

ترجمة :الكاتب الكبير
محمد السباعي

الأبطال

تأليف : توماس كارلايل



الأبطال


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد السباعى

الأبطال

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة



ملخص كتاب الأبطال

لخصه الشيخ عبد الرحمن البرقوقى

ملخص المحاضرة الأولى

البطل فى صورة إله

موضوع هذا الكتاب هو الكلام عن عظماء الرجال ــ تاريخ عظماء الرجال هو التاريخ بحذافيره ١ ــ فائدة ذكرى العظماء ــ أهم ما فى الفرد أو الأمة دينها ــ ما هو الدين ؟ ٢ ــ الوثنية وآراء العلماء ٤ ــ فى كل دين عنصر من الحق ٥ ــ حقيقة الوثنية وكيف ابتدأت ؟ ــ عظمة الكون ٨ ــ فى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد ١٠ ــ أكبر آيات الخالق هو الإنسان ــ كان الأقدمون أفهم منا لجلال هذا الكون ١٢ ــ معنى عبادة الأبطال ١٣ ــ ضلال منكرى البطولة ١٤ ــ عقيدة إجلال الأبطال فطرية فى الإنسان ــ أبعد الإنسان من إجلال الأبطال هم الفرنسيون ــ والفرنسيون مع ذلك يقدسون فولتيرهم ١٦ ــ فضيلة إجلال الأبطال هى الصخرة الراسخة التى تمنع الدول من السقوط ١٧ ــ وثنية قدماء النرويج ــ جزيرة أيسلندة مقر تلك الوثنية ١٨ ــ أول من دوّن أخبار هذه الوثنية ١٩ ــ أول خواص هذه الوثنية هو الإيمان بأن القوى الكونية هى أرواح كبيرة مدهشة مقدسة ــ فرق ما بين نظر المتوحشين الكائنات ونظرنا إياها اليوم ٢٠ ــ جوهر هذه الوثنية ٢٢ ــ رأى وثنيى الشمال فى خلق الدنيا ٢٣ ــ تشبيههم الحياة بشجرة

ملخص المحاضـرة الثانيـة

البطل فى صورة رسول

محمــــد ـ الإســــلام

ملخص المحاضـرة الثالثة

البطل فى صورة شاعر

دانـتى .. شـاكسبير

العظيم يمكنه أن يكون عظيما فى كل فن ٨٧ ـ الفرق بين الشاعر والنبى ـ ويل الذين لا يفقهون السر الإلـهى الموجود فى الكائنات ٨٩ ـ فضل الأنبياء والشعراء على الناس ٩٠ ـ الفرق بين الشعر الحر والكلام الحر ـ حقيقة الشعر ٩٢ ـ لا يزال فى الناس غريزة إجلال العظيم على الرغم من الشك والكفر والاستخفاف المتفشية فى هذه العصور ٩٤و٩٥ ـ إجلال الناس لدانتى وشاكسبير ٩٥و٩٦ ـ غموض تاريخ دانتى ـ صورة دانتى ودلالتها على أخلاقه ٩٦ ـ مولد دانتى ونشأته ٩٧ ـ كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ـ الشعر الكاذب مؤلم ١٠٢ ـ الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا للولوع بها والمحب لها المخلص ـ الحب الصادق أول هاد إلى خبايا الحقائق ١٠٥ ـ حديث الغادة فرانسسكا وعاشقها ١٠٦ ـ من لم يعرف القسوة لا يعرف الرحمة ١٠٧ ـ فرق عظيم بين ما يخرج من أعماق النفس وبين ما يخرج من ظواهرها ١١٢ ـ العمل فى صمت خير من العمل فى جلبة ـ قيمة كل امرئ ما يحسن ١١٤ ـ شاكسبير وعظمته ١١٥ ـ روايات شاكسبير ١١٧ ـ أصح قياس لمقدار عقل الرجل ١١٨ ـ قيمة المرء بمقدار بصيرته ـ ما يجب على الشاعر الكاذب ١٢١ ـ أفعال المرء وأقواله دليل عليه ـ البصيرة مستحيلة الوجود بلا أثر ولا أخلاق ١٢٢ ـ الطبيعة والحقائق للخسيس اللئيم كتاب مختوم ـ كان شاكسبير غير متعمد ١٢٣ شاكسبير للإنكليز أفضل من الهند ـ ستذهب الهند ولكن شاكسبير لا يذهب ١٢٧ .

ملخص المحاضرة الرابعة

(البطل فى صورة قسيس)

لوثر ـ البروتستانية ـ نوكس ـ البيوريتانية

من هو القسيس ؟ ـ القسيس الحقيقى ١ ـ كان لوثر ونوكس قسيسين مصلحين ٢ ـ كما أن العظماء يبنون الأديان كذلك قد يهدمونها وقد يكون الهدم ضروريا ٣ ـ الإنسان سائر فى درج الرقى ٤ر٥ ـ فساد العقائد وتفشى الشك والإلحاد من أسباب إصلاح الأديان ٦ ـ معنى الوثنية وسبب مقاومة الأنبياء إياها ٨ر٩ ـ لوثر فى مقاومته مسألة الغفران وما شابهها ١٠ ـ من الخطأ الظن أن البروتستانية محت عبادة الأبطال والثقة بزعماء الدين ١١ ـ البروتستانية منشأ الملوكية الصادقة ـ الرأى الشخصى فى العبادة ليس أمراً جديداً فى العالم ١٢ ـ ليست الفوضى نتيجة البحث الحر ولكنها نتيجة الكذب وضعف الإيمان ١٣ ـ لا بأس على غير العظيم أن يعتقد رأى العظيم ـ مولد لوثر ١٤ ـ أبو لوثر ـ لوثر وهو تلميذ ١٥ ـ موت « ألكسيس » صديق لوثر بالصاعقة وتأثير ذلك عليه ١٦ ـ لوثر وهو قسيس ١٧ ـ تأثير الإنجيل فى نفس لوثر ـ رؤية لوثر مدينة رومة لأول مرة ١٨ر١٩ ـ غواية البابوية إذ ذاك ١٩ ـ كان البابا يبيع الناس عفو الله ـ تحكك أحد أتباع البابا بلوثر فى قريته ٢٠ ـ ثورة لوثر ضد البابا وكتابته رسالة يرد بها عليه ـ مقاومة البابا للوثر وأمره بإحراق كتاباته ٢١ ـ حنق لوثر على البابا وإحراقه لائحة البابا ٢٢ ـ كان لوثر فى مقاومته أضاليل البابا كالأنبياء فى مقاومة الأصنام ٢٣ ـ حفلة ورمز وظهور لوثر هناك ٢٤ ـ تأثير دعوة لوثر فى نهضة أوروبا ٢٥ ـ مما امتاز به لوثر ثورته فى وجه

ملخص المحاضرة الخامسة

« البطل فى صورة كاتب »

جونسون ـ روسو ـ بعارنز

ملخص المحاضرة السادسة

البطل في صورة ملك

كرومـــويل ـ نابيـــــلون

الثورة في العصور الحديثة

الثـــــــــورة الإنكلـــــيزية

خلاصة أعمال المجتمع الإنساني هو الاهتداء إلى أعقل الرجال وتقليده الحكومة وإعطاؤه الخضوع والطاعة ١٠٥ ـ أعقل الرجال هو أيضا أكرمهـم وأبرهـم ١٠٦ ـ الأماني والآمال ١٠٦ر١٠٧ ـ أصل كل فتنـة جعـل غـير الكـفء على رؤوس الأعمال ١٠٧ر١٠٨ ـ موضوع حقوق الملـوك المقدسـة وبطلانـه ١٠٨ر١٠٩ ـ تفصيل حقوق الملوك ١٠٩ ـ الثورة الفرنسية حق وإن كان حقا ملتفعا في شـواظ الجحيم ١١١ ـ ثوار الثـورة الفرنسـية وعـدم احـترامهم الأبطـال ١١٤ ـ مذهـب الحرية والمساواة ومعناه ١١٥ :

المحاضــرة الأولى

« البطل فى صورة إلــه »

إنما يضمنى وإياكم هذا المقام وتواليه للكلام شيئاً عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مراسح الحياة والأشكال التى تشكلوها فى تاريخ البشر وآراء الناس فيهم وماذا أحدثوا من الأعمال ـ للكلام عن الأبطال وعما استقبلهم به أهالى أزمانهم وعما صنعوا هم من جلائل الأمور ـ ولعل هذا مبحث عويص لا انى موفيه حقه ـ مبحث لعمر الله قصى الغاية يشق على نزع الخواطر مرماه ويقع وراء جهد الأوهام منتهاه. وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بحذافيره إذ فى اعتقادى أن التاريخ العام ـ تاريخ ما أحدث الإنسان فى هذا العالم ـ إنما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الأسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه قائماً فى هذا الوجود كاملا متقنا فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الإلـهية من الخير ، فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول ، وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام !

بيد أن من أسباب العزاء أن فى ذكرى العظماء كيفما كانت نفعا وفائدة ، والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق ، فليس أحسن من مجاورته شىء ـ نور يضىء ، وكان يضىء ظلمات الحياة وليس هو كسراج أشعل ولكنما نجم شبته يد الله بين أشباهه من مواكب الأفق ، هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ومعانى الرجولة والشرف الكبير ، وهو الذى فى شعاعه أنس الأرواح وروح النفوس ، ومتعة الخواطر. وليس فى ظنى أن أحداً منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد. ويقينى أن نظرة فى

تواريخ الأبطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن فى سرد سيرهم جديرة أن تكون بمثابة نظرة فى مخ تاريخ البشر وصميم لبابه وما أسعدنى لو أستطيع فى مثل هذا العصر الذى ضعف فيه إجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئا من معانى عظمة الأبطال وجلالهم ، أى من معانى البطولة ، والبطولة فى مذهبى هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس، ما أسعدنى لو أتيح لى ذلك ولكنى محاول وباذل مجهودى.

لقد قيل ـ وصدقا ما قيل ـ إن أهم ما فى الرجل دينه ـ والأمة مثل الفرد فى ذلك ـ ولست أذهب بلفظة الدين إلى النحلة التى يتخذها الفرد والمذهب الذى ينتسب إليه والقواعد الملية التى يعددها ويشهد بها ، فقد ترى الرجل الذى ذلك شأنه يسفل إلى أدنى حضيض اللؤم والخسة على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين فهذا ما لا أسميه الدين ، هذه الإقرارات والاعترافات أبعد ما تكون فى الحقيقة من الدين إذ هو اعتراف وإقرار لم يصدر إلا من ظواهر الرجل وبواديه ـ أعنى من ناحية اللسان والقوى البرهانية ـ وذلك أقصى ما عنده. ولكن جوهر المسائل للرجل والأمر الذى عليه يترتب سائر الأمور هو ذلك الشىء الذى يعتقده حق الاعتقاد ويوقن به كل اليقين ، فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التى تربطه بهذا الكون الجم الأسرار ، وفيما يتعلق بواجبه فى هذه الدار ووظيفته ـ ذلك هو دينه وربما كان إلحاده وكفره ـ هو اعتقاده أنه متصل بعالم الإلهيات أو بلا عالم مطلقاً ـ فإذا علمت عن الرجل ذلك علمت أى رجل هو وأى شىء يجدر به أن يصنعه فى هذه الحياة ، لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة ما ديانته أو ديانتهم. هل هى الوثنية أو تعدد الآلهة ـ أعنى تمثيل سر الوجود تمثيلا حسيا وعبادة القوى الطبيعية ؟ أم هى النصرانية والاعتقاد بعالم سرى حقيقى وبخلود الروح وارتكاز الوقت على عالم الأبدية ، أعنى بذلك استبدال دولة الأسرار المقدسة التى هى أشرف وأسمى بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة ؟ أم هى الشك والريبة ؟ هل هناك عالم خفى وسر مجهول أم لا ؟ بل ربما كان إلحاداً محضا وكفراً مبينا. فعندى أن الإجابة عن هذا السؤال هو إعطاؤنا روح تاريخ

الفرد أو الأمة إذ أن أعمال الأمة أو الفرد إنما هـى بنات أفكارهم ، وما نتجت ظواهر الآثار إلا من مستتسر الضمائر. ومن ثم أقول : إن دين الأمـة هـو أهـم مـا لديها ، فجدير بنا فى هذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من أخطر وجوه البحث وأكبر أركانه ، فإنه متى أجدنا معرفة هذه برح الخفـاء عن كـل شىء.

وقد جعلنا أول أبطالنا « أودين » الرجل الذى كان يعبده قدماء السويد والنرويج وكان قطب دائرة الوثنية فى تلك الأقطـار ، فلننظـر برهـة إلى البطـل فـى صورة معبود وهو أقدم أشكال البطولة.

* * *

حقا لقد كانت الوثنية شيئا من أعجب الأشياء لا يكاد يتصوره الوهم. وهـل كانت إلا متكاثفات أضاليل وسخافات وأباطيل ؟ قـد نبتـت فـى الحيـاة الغـابرة فالتفت أعياصها واستأشبت أدغالها وخيمت علـى أكتـاف الحيـاة غواشـى قبابهـا ودواجى ظلالها ! مما لا يكاد يصدق به العقل أو يتصـوره الوهـم أن ناسـا عقـلاء أيقاظا صاحين يعيشون عيشة كتلك ويعتقدون عقـائد كهـاتيك ، أعنـى يعبـدون رجلا منهم! لا بل يعبـدون الخشـب المسندة والأحجـار ومـا إليهـا مـن أصنـاف الحيوان والجماد ، ويصوغون لأنفسهم خليطا مشوشا مـن كـل أضلولـة وأبطولـة فيحسبونه فلسفة الكون ــ أما والله ما أحسب كل هذا إلا حديث خرافة.

بيد أنه لا شك فى أنهم كانوا يأتون ذلك. كانوا وهم رجال مثلنـا يعتقـدون تلك الكفريات الفظيعة المنكرة ويطمئنون إليها ويعيشون بهـا عجبـا أى عجـب ! وخليق بنا أن نطرق مليا ونتأمل والأسف ملء قلوبنا ما يوجد فى نفـس الإنسـان من أعماق الضلال وظلمات الجهل. فإن ما أشرت إليه مـن مستنكر المدهشـات قد كان فى الإنسان ولا يزال بل هو فى جميع الناس وفينا أيضا.

بين الجدليين جماعة ليس لديهم مـن القـول فـى الوثنيـة إلا كلمـة واحـدة ، إذ يقولون هى باطل وغش وإنه لم يؤمـن بهـا عـاقل قـط وإنمـا هـى أكذوبـة لفقـت لخداع أناس لا يصح أن يسموا عقلاء ! وأرى مـن الواجـب علينـا أن ندفـع عـن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم الجائر ، وإنـى لأدفعـه الآن عـن

الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها الإنسان دهراً ما فى هذه الحياة. فلم يك دين قط إلا وفيه عنصر من الحق ، ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الأمم دينا ما — ولا ننكر أن الأحاديع والأكاذيب تكثر فى الأديان ولا سيما فى عهودها المتأخرة إذ يعتورها الوهن والاضمحلال. ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول للأديان — إنه ما كان قط للأديان حياة وقوة بل كان داءها ونذير آجالها — فاعلموا ذلك — أصلحكم الله — ولا تنسوه : فإنى لأظن أن من شر السفسطة وأخبث الباطل أن يقال إن دينا من أديان المتوحشين كان منشؤه الكذب ، فإن الكذب لا ينشأ عنه شيء قط وليس من شأنه أن يحدث ويلد ، وإنما من دأبه أن يفنى ما أصاب ويقتل كل شيء حتى لو حاولنا أن نحيط علما بأمر ما فأتيناه من ناحية أكاذيبه ، كان ذلك جديراً أن يخفى عنا حقيقته. وهى ما لا ينكشف لنا حتى ننفى تلك الأكاذيب البتة كأنها أمراض ومفاسد واجب على كل امرىء استئصال شأفتها سواء من الأذهان والأعماق والأعمال ، إذ أن الإنسان — حيثما كان — عدو الأكاذيب بل لأرى الحق حتى فى وثنية أهل التبت (من أقاليم الصين) أقرأ ما دونه الجهبذ الصادق النظر الصريح القول المستر « تيرنر » فى حديث سفارته إلى تلك البلاد ، تجد أن لهؤلاء المساكين عقيدة أن الله يرسل كل حين إلى الأرض بشراً يمثله ويحمل صورته وهو بمثابة اعتقادهم فى بطريق أو بابا ، أو بمثابة اعتقادهم أن هنالك رجلا هو أفضل الرجال قاطبة — وأن هذا الرجل يمكن الاهتداء إلى معرفته من بين سائر القوم : فأما أن الله مرسل فى كل جيل رجلا يمثله ، فهذا هو الحق الكائن فى عقيدة هؤلاء ، وأما كون هذا الرجل يمكن معرفته من سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور. ولقساوسة هذه الأمة طرق إلى اكتشاف الرجل الأفضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم — طرق وايم الله عقيمة ولكنها ليست أعقم من طريقتنا نحن إذ لا نفتأ نولى علينا الابن الأكبر من أسرة بعينها (الأسرة الملوكية) واأسفاه !!... ولكن أرجع إلى ذكر الوثنية فأقول : إنه قد يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا أنها كانت فى حين من الأحيان دينا صحيحاً فى اعتقاد أهلها ، فلنوقنن كل

اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الإيمان و لم يكن بهم ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاب العقول والحواس أيقاظا قد صورهم الله على صورنا وخلقهم كخلقنا لا فرق بينهم وبيننا بحال من الأحوال. لنوقنن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم لآمنا بما كانوا به يؤمنون ولكنا وهم سواسية فى سائر الأشياء. وإذ قد علمتم منى ذلك فعليكم أن تسألونى ماذا كانت تلكم الوثنية ؟

يقول آخرون من ذوى الجدل ــ وهو قول أوجه ــ إن منشأ الوثنية هو شعر الشعراء ، أعنى أن الشعراء كانوا يرون آراءهم فى الكون ثم يخرجون تلك الآراء والإحساسات فى رموز من الأقاصيص وضروب من المجاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد جريا على قانون أساسى من قوانين النفس البشرية ، وهو أن كل ما جرى فى وجدان المرء من إحساس شديد لا يرى بداً من إخراجه بواسطة النطق، ومن رؤيته ممثلا لعينيه فى شىء منظور حتى كأنما هو شىء حى ذو حقيقة تاريخية ولا شك فى أن هنالك قانونا كذلك وأنه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرساها وأشدها تأصلا واستمكانا. ولا شك أيضاً فى أنه قد كان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوى فى أمر الوثنية. وإنى وإن شهدت بشىء من الصحة لتلك النظرية التى ترجع بأمر الوثنية كله أو جله إلى الرموز الشعرية ، لكنى لا أعدها النظرية الصحيحة. وإنى أنشدكم الله : هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين فى ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم إن الأمر لأخطر من ذلك وأجل وأحوج إلى الجد منه إلى اللعب. إن أمر الحياة من أكبر الجد وما أمر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث ، بل إنه الجد أمر من كل جد ، والحق أمر من كل حق.

فقد رأيت أن أولـئك القائلين فى الوثنية بأمر الرموز الشعرية وإن كانوا قد أخذوا فى منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية. فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكذلك كل دين إنما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والإحساسات.

ولكنى أرى رأى هذه الفئة رأيا معكوسا بقولهم عن النتيجة إنها السبب وعن الغاية إنها الأصل. فإن الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الأقاصيص الشعرية أول حاجهم وأكبر همهم ، وإنما أكبر همهم هو أن يعرفوا أى عقيدة يتخذون فى هذه الكائنات ، وأى سبيل يسلكون فى تلك الحياة. وماذا يرجون وماذا يخشون وماذا يأتون وماذا يتركون. أإذا أخرج الشاعر قصة مونقة جعلها رمزاً لمعتقدات جيله ؟ أتحسب أنها أقدم عهداً من تلك المعتقدات ؟ كلا بل كانت العقائد أولا ثم أنشئت القصيدة رمزا إليها وتمثيلا لها. فالعقيدة أصل والشعر صورة ، والعقيدة حقيقة والشعر ظلها. ثم هو مهما بلغ فى مراتب الجد فإنما هو لعب وفكاهة ولهو من عبث الخاطر إذا قيس إلى تلك الحقيقة الراسخة فى النفوس التى يحاول به تمثيلها. فقصارى القول أن الرموز الشعرية هى نتيجة الحقيقة لامسببتها ، فعلينا إذن فى شأن الوثنية أن نبحث من أين جاءت هذه الحقيقة — وماذا كانت ؟

* * *

تذكرون ما توهمه أفلاطون من أنه لو ولد إنسان فى حجرة فى جوف الأرض فترك ثمة حتى بلغ أشده وكمل عقله ، ثم أخرج بغتة إلى ظاهر الأرض فإذا الشمس بارزة فى موكب لألائها. ماذا يبلغ به العجب والاندهاش من منظر لا نبرح نراه فلا يحرك فينا ساكنا ؟ ولكن ذلك الرجل يراه بعينى طفل قد برأهما الله من شوائب أكدار الحياة فرؤيتهما فى منتهى الصفاء ثم يراه كذلك بعقل ناضج. فليس عجيباً أن يرقص قلبه طربا لذلك المنظر الباهر ثم ينفذ ببصره الثاقب إلى ما أودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخر له ساجداً. فاعلموا معشر الإخوان أن أول رجل مفكر بين شعوب المتوحشين — أول إنسان بدأ يفكر إنما هو كذلك الإنسان الذى تخيله أفلاطون جامعا فى طبيعته بين الطفولة والرجولة. كذلك كان أول المفكرين من قبائل المتوحشين ساذجا صريح الطبع كالطفل ، مع قوة الرجل وعمقه ، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والأصوات والأشكال والحركات العديمة العدد فى اسم مركب من ثلاثة أحرف ، كما فعلنا نحن حينما سميناه

« كونا » و « طبيعة » وما شاكل ذلك. فطوينا جلاله العظيم فى أثناء لفظ حقير. ولكن الرجل المتوحش كان كل شيء جديداً فى نظره لم يخفه عنه حجب الأسماء والألقاب ، عاريا أمامه ساطعا لعينيه مشرق الرونق سافر الحسن وضاء الجمال يحار فى كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان. فتأثير جلال الكون فى نفس ذلك الإنسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره فى نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبى فى العصور الأخرى. بلى أيها الإخوان إن للكون لو تدبر الإنسان واعتبر لموقعا فى النفس أى موقع ، وروعة فى القلب أى روعة. تلكم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقها وما يهتز عليها من ملتف النبات ومعشوشب الروض ، وتلكم الجبال الراسيات والأنهار الجاريات والبحار ذات الجرجرة والضجيج والجلجلة والعجيج ، وقبة الفلك الزرقاء تعزف فى أجوائها كل عصافة هوجاء تحدو من السحب كل دجنة وطفاء ، آنا تسح بالديمة المدرار، وآونة بدفع الحريق وصواعق النار. ما هذا أيها الإخوان ؟ بلى ما هذه أما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئا وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن يعرف. هذا سر عميق لاينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوى إنما أولى بالمرء فى مثل هذا المقام الإذعان والخشوع ، وللجهل هنا أفيد من العلم ، وما يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره، أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيمائه. ماذا صنع العلماء فى أسرار الكون إلا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بإلباسها براقع من الأسماء والاصطلاحات ؟ هم يسمون البرق كهربا ، ويلقون الدروس والمحاضرات فى ذلك ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجاج والحرير. ولكن ما هو ذلك البرق ؟ وما الذى أحدثه ؟ ومن أين جاء ؟ وأيان يذهب ؟ لا أكذب الله قد أظهر العلم أشياء كثيرة ، ولكن بئس ذلك العلم الذى يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذى يتضاءل العلم فى حضرته ، ويذل لعزته وعظمته ، ويطفو على جوه الهائل كريشة فى مهب الريح ، والحق يقال يا إخوانى إن هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات.

بل كفى بالزمن معجزة ـ بذلك الشيء الفائق العد والحصر الدائم الكـر وا
المستمر الصمت والسكون ، دائبا يجرى ويتدفق عجلا ساكتا كتيار البحر الزاخ
حيث نطفو فوقه وسائر الكـون كخيـالات تظهـر ثـم تغيـب ، وأنفـاس لا تكا
تصدر حتى تبيد. أما كفانا بذلك معجزة ؟ أليس ذلـك جديـراً أن يلجـم ألسـ
فلا ننطق؟ وبماذا ننطق با لله من هذا الكون الهائل ؟ ماذا كـان يستطيع المتوحـ
القديم أن يفهم منه وماذا عسانا نحن نفهم منه ؟ أليس أقصى ما نستطيع أن نعـ
عنه أنه قوة مركبة من ألف لألف قوة وأنه شيء ونحن شيء آخـر ؟ هـذا كـل
يمكننا معرفته. الكون شيء ونحن شيء غيره قوة فى قوة فى قوة ، فحيثما ألقيـ
البصر قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية. وليست ورقة ملقـ
على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول إلا وفيها قوة. وإلا فكيف كـان يتـأتى لهـا
تعفن ؟ ولعمرى ماذا يقول الملحد المفكر (ولا إخال الإلحاد والتفكـير يجتمعـان
فى هذه القوى الفعالة الدائبة المحدقة بنا لا تكل ولا تنى ولا تفتر ، ولا أول لها و
آخر ولا مبدأ ولا نهاية ـ ماذا يقول فيهـا إلا أنهـا معجـزة رائعـة ، وقـد يتسـا
عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيـه هـى صنـع الخـالق ! ثـم يجـيء العلم بمنظـا
وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هى جثة ميتة توضع فى الزجاجات وتباع فـ
الحوانيت ولكن العقل الإنسانى السليم الفطرة مازال يرى فى هذا الكون شيئا ـ
ـ شيئا يحار فيه الذهن إلـٰـهى المرجع ، أولى الأشياء بنا إزاءه ـ مهما بلغ علمنا
أن نحنى الرأس له إجلالا وننكس البصر خشية ومهابة ونعبـد إن لم يكـن بـالمنطـ
فبالصمت !

وكذلك كان شأن الإنسان القديم المتوحش إزاء هذا الكون الباهر فقد كانـ
عين فؤاده ثاقبـة الرؤيـة جليـة الإنسـان لم تغشـها حجـب الكفريـات ولم تـتراكـ
أمامها سحب الاصطلاحات والعلميات فكان الكون فى نظره إلـٰـهى النسبة بـ
هو الإلـٰـه ذاته أما تنظر إلى ذاك المتوحش الغابر إذ يعسف البيد والفلوات قد أضـ
السبيل فإذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة تلتهب بلألاء أبهر مما يرى أهـ
هذه العصور فيضيء فؤاد ذلك الضال كما يضيء له السبيل ويشرق فى نواحـ

نفسه كما يشرق فى نواحى الأفق وكأنه مقلة فى وجه السماء تنظر إليه من أعماق الأبدية وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين ألا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون ما نسميهم عباد الكواكب ؟

هذا هو ما أراه سر الوثنية أعنى إفراط العجب والاندهاش من الشىء حتى يصير تقديسا وعبادة وكذلك كان كل شىء فى نظر أولـئك الأقدمين رمزاً إلى شىء إلـهى أو إلى إلـه.

وهل ينكر أن فى فعل الأقدمين هذا عنصراً من الحق ؟ أفلو دققنا النظر له أما كنا نبصره فى كل نجم بل فى كل زهرة إلـها ظاهراً ؟ نحن لا نعبد ا لله الآن على هذا النحو ، ولكن ألا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته أنه يرى فى كل مخلوق جمالا إلـهيا ، وأن كل شىء صاغته يد ا لله إنما هو نافذة يشرف منها على أعماق الأبد ؟ نحن نسمى من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال فى كائنات ا لله شاعراً ومصوراً ونابغة وعبقريا ، أفهل كان القدماء المتوحشون إلا كذلك ؟ ألم يكونوا والشعراء سواء فى تعرف بدائع الخليقة ؟ وإن لم ينطقوا بالقصيد أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمل وما أدراك ما عملهم ؟ هو لا شىء !

وإذا كان كل ما نراه هو رمزاً من رموز الخالق إذن فأكبر رموز الخالق وأعظمها هو الإنسان ، إن جوهر النفس الإنسانية وذلك السر الكائن فينا الذى يسمى نفسه « أنا » ــ واخجلاه ما أجرأنا على صياغة الألفاظ لمعان تضمحل فى سعتها الآفاق ــ هذه النفس هى نفس من ا لله ، وكذلك الإنسان هو مظهر الخالق فى الأرض أليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية لباساً لذلك السر المجهول الذى نسميه ا لله ؟ قال الصالح « نوفيلا » : ليس فى طول الكون وعرضه إلا معبد واحد وهذا هو جسم الإنسان وحقا لا شىء أقدس من هذه الذات الشريفة ، وما الركوع بين أيدى الرجال إلا خشوع الذات الإلـهية بادية فى صورة الإنسان ، فإما لمست جسم إنسان فقد وضعت يدك على عرش ا لله ! وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر

الله الذى لا ينال - ولا طاقة لنا بفهمه ولا ندرى كيف تتكلم فيه بيد أنه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه إن شئنا وحسبنا ذلك وكفى.

هذه حقائق كان الأقدمون أسرع إلى إدراكها منا نحن ، نعم ؛ إن الأقدمين أولـئك الذين كانوا يجمعون إلى صفاء أنفس الأطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا أنهم قتلوا الأرض والسماء دراية وعرفوا كل شيء بمجرد وضع الأسماء والاصطلاحات ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللغط فى شأن الكائنات ينظرون إليها وجها لوجه ، والروع والإجلال حشو قلوبهم ، أولئك كانوا أفهم لآيات الله فى كونه وأدرك لسر الله فى عبيده ، هم كانوا يعرفون - ولا بأس فى عقولهم - كيف يعبدون الطبيعة وأحسن من ذلك عرفانهم كيف يعبدون الإنسان وأعنى بالعبادة كما قدمت الإفراط فى العجب والإجلال إلى ما لا نهاية له وذلك ما كان فى طاقتهم إتيانه من سويداوات أفئدتهم وعقولهم كأوفر ما يكون وأرجح ، وظنى أن عبادة الأبطال قد كانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها ، وأن مذهب الوثنية الذى شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جذور فكل إجلال لكوكب من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه أحد جذور تلك الغابة ولكن إجلال الأبطال هو أذهب تلك الجذور فى الثرى وأغزرها مادة وأعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب.

وإذا كانت عبادة النجم لم تخل من حكمة فما بالك بعبادة البطل ! وعبادة البطل هى كما قلت الإفراط فى إجلاله إفراطا لا حد له ، ولا أحسب إلا أن الأبطال ما برحوا موضع إجلال الناس حتى فى هذه العصور وإنه لم يحل فى صدر الإنسان معنى أشرف من إجلاله لمن هو أعظم قدراً منه. ولست بمخطئ إن قلت إن هذا المعنى هو الأثر الفعال فى حياة الإنسان ، أو قلت إنه الأساس الذى يقوم عليه الدين. لا أقصد الوثنية وحدها بل كل دين أشرف وأصدق - كل دين كان إلى وقتنا هذا. وهل ترون معشر الإخوان فى ديننا النصرانية إلا أنها عبادة وإعجاب من صميم اللب وضراعة وخشوع لذات إنسانية علية إلـهية ،

هى ذات أشرف الأبطال قاطبة ــ ذات من لا أسميه هنا ! بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك الأمر المقدس.

وإذا انحدرنا من قمة الدين إلى منازل أحط وأدنى وجدنا فى جميعها من احترام الوضيع للشريف وولاء الحقير للجليل ما يماثل الإيمان فى الدين. إذ الإيمان إنما هو الولاء لنبى أو بطل مقدس ، وماذا ترى ولاء الصغير للكبير الذى روح المجتمع إلا فرعا من عبادة الأبطال ؟ فعبادة الأبطال إذن هى أساس المجتمع ، والرتب والدرج الذى يقوم عليه التعاشر والتواصل هى ما يجوز أن نسميه « هيروراركى » أى حكومة الأبطال. فأهل الدرج والرتب فى الأمة هم لها بمثابة الأوراق المالية كلها يمثل الذهب ، وإن كان الكثير منها لسوء الحظ مزوراً ، فقد نحتمل الأوراق المالية ونعيش بها وإن وجد بينها المزور. فأما أن تكون كلها مزورة فذلك ما لا يقام عليه ولا يحتمل ، إذن تثور الفتن وتقوم الثائرات ويصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها إذ متى وجد الناس الأوراق كلها مزورة لا ينال بها من الذهب كثير ولا قليل ، أخذهم اليأس فأقبلوا يصيحون لا ذهب ، ولم يكن قط ذهب. والحقيقة أن الذهب ــ وأعنى به عبادة البطل ــ موجود برغم كل شيء فى كل آن وكل بقعة ولن يفنى حتى يفنى الإنسان.

فشا فى هذا العصر رأى باطل هو إنكار وجود الأبطال بل كراهة وجود الأبطال. أذكر لمعشر النقاد بطلا ــ الإمام « لوثار » مثلا فإذا هم قد انبروا ينتقدونه ــ لا يأخذون فى إجلاله بل فى أخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفا ضئيلا ! ثم يقولون إن ما ينسب إليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته فالوقت هو الذى أحدثه وشهره ، هو ابن الوقت وكل ما جرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله ـ هذا والله أفن وسخف ، أيقول النقاد الوقت هو الذى أحدث ذاكم الرجل ؟ وآ أسفاه ! لقد طالما صاحت الأوقات تنادى أين البطل ولا بطل أين العظيم ولا عظيم. تصرخ الأوقات يا للفتى فيذهب نداؤها صيحة فى واد ونفخة فى رماد ، وما ذاك إلا أن البطل أو الفتى لم يكن وقت النداء موجوداً ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم. وبعد أن

يبح صوت الوقت ولا مجيب تنهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف ، لأن البطل لم يدركه حينما صاح يستنجده !

والحقيقة أنه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتيح له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى - بين عقل يعرف به حاجة العصر ، وعزم يمضى به فى إبلاغ العصر حاجته ، وفى هذين صلاح العصر وفلاحه. ولكنى أشبه العصور الضعيفة الواهنة المصابة بالكفر والبلاء والحيرة ، وأذهانها الشاكة العاجزة وأحوالها المختلطة المضطربة يحدو بها سائق الشقاء إلى غاية التلف - أشبه كل هذا بحطب يابس ميت ينتظر من السماء شهابا يشعله ، وما الرجل العظيم مرسلا من قوس الله يجيش فى صدره العزم ويغلى فى عروقه البأس إلا ذاكم الشهاب ، وما كلمته إلا شفاء الغلة والتئام الجرح ومجتمع الأهواء ومستقر العقائد ، ثم لا يصيب الحطب حتى يلتهب من كل جانب ناراً كناره . ولكن المنتقد يحسب أن الحطب هو الذى أوجد ذلك الشهاب نحن لا ننكر أن الحطب كان فى شدة الحاجة إلى الشهاب ، فأما أنه أوجد الشهاب ! يا لله من سخافة أولئك النقاد وحمقهم ! أما أنه ليس أدل على حطة امرئ ولؤمه من عدم إيمانه بالعظماء ، ليس أدل على خسة جيل من الأجيال وضعته من عماه عن نور الله المقدس وإيمانه بالحطب اليابس الميت هذا والله أقصى منتهى الكفر. إذ أن الرجل العظيم ما برح فى كل آن مستنقذ جيله من وهدة البؤس والشهاب الذى لولاه ما شبت النار فى الحطب ، وليس تاريخ العالم إلا كما قلت مجموع سير أبطاله.

أولئك النقاد الأصاغر يبذلون الجهد فى ترويج سوق الكفر ونشر أعلام الضلال ، ولكنهم لا يفلحون إذ مازال يظهر الرجل العظيم من آن إلى آن فيرمى بحقه باطلهم فإذا هو زاهق ، وإذا هم قد ظلوا من مذاهبهم فى مثل بيت العنكبوت أو أوهى ، ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هى أن إجلال العظماء فطرية فى طبيعة الإنسان لا تزول مهما اعتورها من الفساد والوهن، وإجلال العظماء باق ما بقى الإنسان. فالكاتب جونسون له من صديقه بوزويل أضرع مقدس ومجل ، على أنهما كانا فى القرن الثامن عشر أشد

العصور كفراً وفجوراً. والأمة الفرنساوية الكافرة تؤمن بفولتيرها وتظهر عبادتها الأبطال فى أغرب صورة حينما أمطروه بالأزهار حتى كاد يغرق بينها ويختنق بها . فحقا إذا كانت النصرانية أعلى أنواع تقديس البطل فإن الفولتيرية من أسفل أنواعه ! فما أعجب أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته نقيض حياة المسيح وكان شيطانا مريداً ، هذا مع أن أبعد الناس من فضيلة التقديس والإجلال هم فرنسيو هذا الجيل. وما ظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شيء مذهبهم وشعارهم فليس فى نفوسهم موضع للإجلال والإكبار. ومع هذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير. يدخل فولتير باريس عائداً من رحلة طويلة شيخا فانيا متهدما قد جاوز الرابعة والثمانين ، فيحسون أنه نوع من الأبطال أمضى حياته فى محاربة الضلال والظلم وكشف أمور المنافقين من أرباب المناصب ــ إنه بالاختصار ممن جاهد جهاد الأبطال وإن لم يسلك فى ذلك إلا خطة غريبة . نعم إنهم يحسون أنه إذا كان الاستهزاء هو أكبر الأمور ، ففولتير إذن هو أكبر الناس ــ هو الإمام الأعظم الذى يقفون أثره ويتطلبون منزلته ، فهو فى الحقيقة إلههم الذى لا يصلح إلا لهم ولا يصلحون إلا له ، ولذلك عبدته فرنسا من الملكة مارى أنتوانيت إلى الحارس الذى على باب « سانت دينيس » ، بل لقد جعل الرجال من أولى المنزلة والجاه يتنكرون فى أزياء خدمة الفنادق لتسهل لهم رؤيته ، ويصيح الحوذى بفرسه : اسعدى أيتها الفرس فإنك تسيرين بالمسيو فولتير ، وقد شبه أحد كتابهم تلك المركبة تخترق باريز براس مذنب (نجم ذى ذيل) قد ملأ جميع الطرقات ذيله ، ثم كانت السيدات يتسابقن لأخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أثراً طاهراً وذخراً ثمينا. ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل أو جميل إلا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل وأجمل.

أجل إن البطل ما زال معبوداً منذ « أودين » إلى « جونسون » ومن المسيح إلى أحقر قسيس فى كل مكان وزمان ، وسيكون ذلك ما دام الليل والنهار لأنه ما منا إلا من يعشق الأبطال ــ يعشقهم ويجلهم وينحنى إكباراً لهم ، وهل ينبغى الانحناء لغيرهم ؟ بل ألا يحس المرء أن فى إجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه ؟

وهل جال فى صدر المرء إحساس هو أشرف من ذلك وأقدس ؟ وأنه ليسرنى ويشفى نفسى أنه ليس فى طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود أن تذهب من نفس الإنسان تلك الغريزة الفطرية ــ عبادة الأبطال. هذا وإن أجيال الكفر التى تعقبها الفتن والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب ، وإنى لأرى فى غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التى تتلقى الدول الساقطة فى مهاويها فتمنعها من الضياع فى أعماق الخراب. فإذا انتهت الدولة المتدهورة إلى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهيىء نفسها للنهوض ، ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود إلى أحسن مما كانت عليه. وهكذا يظهر لى أن عبادة الإنسان للبطل هى الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور ــ هى النقطة الوحيدة الثابتة فى التاريخ الثورى الحديث وإلا كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمقه قراره ولا تعرف سعته شاطئا.

كذلك أجد أن الوثنية روحها الحق وإن كان لها ظاهر مشوه. كيف لا والطبيعة ما زالت مظهر صنع الله وما زال البطل يعبد. ومن هذا وذاك تألفت الوثنية وإن اتخذت من الأشكال والأوضاع الحقير والمنكر ، وظنى أن وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ما عداها لأنها (أولا) آخر الوثنيات عهداً إذا ما زالت مستمرة حتى القرن الحادى عشر. فمنذ ثمانمائة عام كان أهل الاسكاندينفيا يعبدون « أودين » ، ثم هى هامة لنا من حيث إنها ديانة آبائنا أولئك الذين ما برحت دماؤهم جارية فى عروقنا والذين نشبههم فى عدة وجوه. فعجبا أيها الإخوان أن يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف.

(وبعد) فلنلق نظرة فى عقائد أولئك القوم لجملة أسباب ، ولنعلم أن ذلك من الممكن ثم من السهل لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان.

* * *

فى تلك الجزيرة العجيبة المسماة « إيسلاندة » التى يخبر علماء طبقات الأرض أنه استثارها زلزال نارى من قعر البحر ــ وهى بقعة موحشة بباب جرداء

يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من أشهر العام مطوية في أجواف العواصف السوداء إلا أن لها مع ذلك في فصل الصيف لألاء جمال موحش قفر - وهي وسط العباب الخضم تسمو صعداً مكفهرة الجبين جهمة الطلعة تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب في الهامة الشمطاء وتفور فيها الينابيع الحارة حتى تئز مراجلها وتهدر (شقاشقها) إلى غدران من سائل الكبريت وكهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة آثار معترك لمتكافح جيوش الجليد والنار - في هذه الجزيرة وهي أبعد ما يرجى أن يكون به تاريخ مرقوم عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التي نحن بصددها وعلى شاطىء هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الأنعام والإنسان من خير هاتيك النعم ومما يجود به اليم وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصبة قوما شعراء أعني ذوي صدور جياشة بالمعاني وألسنة بها ناطقة ، فكلما تأملت علمت أنه كان يفوتنا شيء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط فلم يعمرها طوائف الأسكانديناف ! الحقيقة أن معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالي « أيسلاندة ».

وكان بالجزيرة في أوائل أمر المسيحية قسيس نصراني يدعى « سيمند » لعله كان لا يزال ينزع به عرق إلى دين آبائه الوثنية فأخذ يجمع عدداً من أغانيهم القديمة - مما قد طال عليه القدم فأمسى حوشيا مهجوراً - وكان توحيديا صوفيا عليه مسحة دينية ، وهذه المجموعة هي ما يسميه أدباء الشمال الـ « الألدار » أو الـ « أدا » الشعرية وهي كلمة مشكوك في اشتقاقها ، لعل المراد بها « السلف » وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى « سنوررو سترلسون » وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس « سيمند » فكتب فيما كتب تاريخا حافلا لعقائد الوثنية وجعله نثراً مفصلا بشذور من النظم فجاء كتابا بديعا مونقا بريئا من كل أثر للتعمل والكلفة وهو ما نسميه « عفو الخاطر » وهذا الكتاب هو المسمى بال « أدا النثرية » فبفضل هذين المؤلفين وشتى أغاني غيرهما جلها « إيسلندى » وبفضل ما كتب عن جميعها من الشروح والحواشي بين « إيسلندى » وغير إيسلندى مما هو للآن مستمر في البلاد الشمالية قد

نستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجها لوجه ولنتناس قبل كل شيء أنها دين باطل بل نتأملها على أنها فكر قديم ثم ننظر أما يمكننا أن نعتذر لها ونرتاح إليها شيئا ما.

أن أول خواص هذه الوثنية فى رأيى هو الإيمان الصريح بأن القوى الكونية هى أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة ، فتلك الأشياء التى تلقى فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهشون لرؤيتها ويركعون لها إجلالا ومهابة ، أعنى أن ما نراه نحن العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم ، كانوا يصورون من القوى الكونيه الضارة المخوفة جانا ومردة « جوتان » مخاليق جساما شعثا غبرا شنع الصور لهم طبائع الشياطين والأبالسة والجليد والنار وزوبعة البحر من هذه الجان والمردة ، أما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهى آلهة وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون وهما يعيشان منفردين كل فريق فى جهة ثم لا تخمد قط بينهما ثائرة الحرب ويسكن الآلهة الجنة (اسجارد) فى السموات ويقطن المردة فى بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار المردة « جوتنهيم ».

عجب كل هذا ، أنا لا أراه باطلا ولا خرافيا ، وكل من أصاب بالنظر الثاقب لبابه وسبره وسبر بمسبار الفحص عمقه وغوره كان رأيه فيه رأيى ، فقوة النار التى تخفى تحن ما بها من آية العجب فى طى اسم كيماوى نجعله حجابا لروعة هولها ، كان القدماء يرونها عفريتا سريع الحركة خفى المدب من قبيلة المردة « جوتان ». وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر « لادرون » — هكذا ذكر أحد رحالة الأسبان — النار وكانوا لم يروها قط من قبل ، نوعا من الشياطين أو ضربا من الآلهة بعضك إذا مسسته ويعيش بأكل الخشب. وكذلك أرى أنه ما كان فى قدرة أى كيمياء قط أن تخفى عنا ما بالنار من عجب لولا ما يعينها من الحمق والغباوة — ما هى النار ؟ — أما الجليد فقد رآه كاهنهم القديم شيطانا فظيعا أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد « هيرم » أو « رايم » ، وهى كلمة بطل استعمالها إلا فى بعض أودية «سكوتلاندة» وهكذا لم يكن

الجليد عندهم كما نراه الآن شيئا ميتا ، ولكنه شيطان حى نراه إذ أظلم الليل يسوق أفراسه البلق إلى كهف حيث يقبل عليهن يمشط شعورهن. وهذه الأفراس البلق هى سحب البرد ورياح الجليد ، أما بقره فهى جلاميد الثلج ، ثم إن هذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفريت فتنفطر وتتصدع.

ولم يكن الرعد فى تلك الأوقات مجرد كهرباء وإنما كان الإله « دونار » — (ثاندار)[١] إله الرعد ، وهو أيضا إله حرارة الشمس ذات الخير والبركة ، وإنما زمجرة الرعد هى غضبه وسخطه. وما احتشاد السحاب السود وازدحامها إلا تقطيب جبين ذلك الإله وكسر حاجبيه. وما الصاعقة تنقض من السماء إلا السنان اللامع يطير من كفه ، ثم هو يدفع عجلته الصخبة فوق قلل الجبال ، فدويها وقعقعتها هو جلجلة الرعد وتراه من غضبه ينفخ فى لحيته الصهباء فذلك حفيف الريح قبل الإرعاد ، و« بولدار » الإله الأبيض الجميل العادل المنعم (الذى وجد المبشرون الأول أنه أشبه شىء بالمسيح) هو إله الشمس.. أجمل الأشياء الظاهرة. . وإحدى العجائب والأسرار رغما من جميع الفلكيين وعلم الفلك ! ولكن أعظم الآلهة فى ظنى هو ذلك الذى عثر على أثره العالم الاشتقاقى الألمانى « جريم » ، وهو الإله « ونش » أو « وش »[٢] إله الطلب الذى يعطينا كل ما نطلب ! أليس ذلك أخلص دعاء النفس الإنسانية وأعمق أصوات الروح ، وإن لم تكن بعد دعاء مهذبا وصوتا منقحا. هذا أبسط آراء الإنسان وهو مع ذلك عنصر جوهرى فى أحدث مذاهب الدين.

وأذكر من باقى الآلهة «آجير» إله الزوبعة ، وذلك لأن النوتية بنهر «ترنت»[٣] ما برحوا للآن متى أبصروا الماء قد طما فى حالة المد — وهى حالة خطرة — صاحوا « حذرا فإن آجير قادم ». عجبا لهذا اللفظ قد بقى بعد زوال

---

(١) كلمة إنكليزية معناها « الرعد » .

(٢) كلمة إنكليزية معناها « طلب » .

(٣) نهر بإنكلترا .

تلك القرون كأن دنيا طغى عليها الماء فغرقت فى عبابه إلا ذؤابة قمة ما برحت لأبصارنا بادية ! وقد كان أسلاف هؤلاء النوتية فى العصور الغابرة يؤمنون بالإلـه آجير ، وما ذلك إلا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديما وضربت فى أنسابنا ، فدمنا مزيج من السكسونى والدانيماركى الشمالى. ولا أرى بين أحد هذه الثلاثة والآخرين إلا فرقا سطحيا مثل ما أرى بين النصرانى والمسلم والوثنى.

وعن إلـههم الأكبر « أودين » سنتكلم قريبا إن شاء الله. ولكن اعرفوا قبل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكانديتيفية أو الشمالية : هو الإيمان بقوى الكون واعتبارها إلـهية رائعة شخصية ــ أعنى آلهة وأبالسة ، ولعله قول معقول ومفهوم. وكذلك كان الفكر الإنسانى فى طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة ، وقد أرى فى هذا النظام الوثنى معنى حراً جزلا شريفا وسذاجة قوية لم تهذب جد تهذيب ، مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها ، والحق يقال إن مذهب الوثنية الشمالية ما هو إلا فكر صريح قوى من الفكر العميق الحر ، يتفتح فى قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه وقلب لقلب ، وهو أول خصائص الفكر الصحيح فى كل آن. فلست ترى لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى لأختها اليونانية من الرقة واللعب ، إنما تتبين فيها قوة ساذجة وحقا مألوفا وإخلاصا جما كبيراً. وإنه لمن الغريب أن نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفة صوره ، منضودة دماه ، فى أبدع نظام ، وأجمل نسق إلى بيوت الوثنية الشمالية ، تمرح فى أفنيتها آلهتها وتخمر النبيذ لتشربه مع « آجير » إلـه الزوبعة ، ثم يرسلون « ثورًا » إلـه الرعد ليحضر المرجل من ديار الشياطين. ويذهب « ثورًا » إلى تلك الديار ، وبعد الجهد الجهيد يأخذ المرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة ، وينقلب راجعا وقد غاب تحت المرجل وبلغ المرجل مواطئ قدميه ! وكذلك ترى لهذا النظام الوثنى ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء ، وقوة هائلة إلا أنها لم تهذب ، فهى كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة، لكنها قدم عاثرة وخطوة طائشة. فانظروا ــ أصلحكم الله ــ ماذا كان رأيهم

في خلق الدنيا.

لما تجاوب الجليد والنار حدثت ريح حارة تكون منها مارد اسمه « يمير » ، ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد وأخذوا جثته فجعلوها دنيا ، فأما دمه فذلك هو البحر ، وأما لحمه فهو الأرض والصخور عظامه ، ثم جعلوا حاجبيه مسكنا لهم أعنى الجنة أو « اسجارد » ، وجعلوا جمجمته قبة السماء ، وما بها من دماغ فهو السحاب ، فهذه استعارة طرفها في المشرق والآخر فى المغرب وأصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ــ آراء جسام ماردية هائلة ما زالت بها العصور تنهنه جبروتها ، وتذلل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية إلى الصفة الإلـٰهية ، والثانية أقوى ولا ريب من الأولى. . ما زالت بها العصور حتى حولتها إلى أفكار شاكسبيرية ، ومعان لوثرية[1]، فأولـئك الوثنيون القدماء هم أباء أدياننا مثلما هم آباء أجسامنا.

ويعجبنى منهم كذلك تشبيههم الحياة بشجرة جذرها فى مملكة الموت ، ثم يسمو ساقها صعدا إلى السماء فينشر ذوائب فروعه على جميع أنحاء الكون ، وهذه هى شجرة الوجود. ويجلس عند أصلها فى مملكة الموت ثلاثة أقضية (جمع قضاء): الماضى والحاضر والمستقبل ، يروون جذورها من البئر المقدسة ثم تمتد أفرعها وما يجرى بها من إيراق وأزهار وأثمار ، وسقوط أوراق وأزهار وثمار. . ويكنى بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال. . تمتد أفرعها بكل هذه الأمور فى جميع الأمكنة والأزمان. أليست كل ورقة من أوراق هذه الشجرة ترجمة إنسان، وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فعلة ؟ وأفرعها تواريخ الأمم ، ووسواسها صوت الحياة صادراً عن الأبد إلى الأبد. فإذا تنفس فى خلالها النسيم فتلك زفرات القلب الإنساني ، وإن صاحت بين أفنانها العاصفة فذاك صوت الآلهة. هذه شجرة الوجود. . هى الماضى والحاضر والمستقبل. . ما كان وما يكون وما سيكون. . تصريف فعل « يكون » تصريفا لا نهاية له ، فإذا

---

(١) نسبة إلى لوثر رأس المذهب البرتستانتى .

تأملتم معشر الإخوان كيف أن جميع الأفعال البشرية تتسلسل وتتصل ، وليس واحد منها إلا آخذا بعنق الآخر متداخلا فيه . وكيف أن الكلمة التى ألقيها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذ جرت أول لفظة على لسان أول متكلم . إذا تأملتم كل ذلك رأيتم أنه لا تشبيه قط أصدق من تشبيه الشجرة هذا : نعم هذا ما أجمله وما أجله إذا قستموه باستعارة أهل هذا العصر التى تشبه الوجود بمكينة « مكينة الوجود » ، بل أرى تشبيه الأقدمين أشرف من أن يقاس بتشبيه المتأخرين وأنبل ! حقا إن مذهب أولـئك الوثنيين الشماليين لعجيب مخالف لما نعتقده نحن فى الطبيعة ، فمن أين أتى؟ من أفكار أولـئك الشماليين ولا سيما من فكر أول رجل شمالى وهبه الله قوة الفكر ـــ أول شمالى نابغة عبقرى كما ينبغى أن نسميه ! وكم قبل هذا الرجل قد عاش فى العالم من رجال غير ذوى فكر ، لم يك منهم إزاء هذا الكون الرائع الهائل إلا العجب الأبكم كالذى يحسه الحيوان ، أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكاد بغير طائل كالذى يشعر به الإنسان ، حتى أتى الرجل المفكر الكبير ـ الرجل العبقرى الذى يوقظ فكره راقد الأفكار فى جميع الأذهان ، وكذلك شأن المفكر أو البطل الروحانى فإن ما يقوله قد كان كامنا فى نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطلقوا به ولكن لا سبيل. فما هو إلا أن ينطق ذلك البطل حتى تثور جميع الأفكار من مكانها كأنما هبت من رقاد طويل ، فتجيب الدعوة أشرع إجابة فرحة به فرح السارى بالصباح. ولا غرو فإنما هو خروج من العدم إلى الوجود ـــ من الموت إلى الحياة ـــ فيا سقى الله عهد ذلك الرجل الكبير فإنه جدير أن يسمى شاعراً وكبيراً وعبقريا وما شاكل ذلك ، وإن حسبه أهل عصره ساحراً وصاحب معجزات ومسدى أياد وآلاء ونبيا وإلـها ! والفكر متى انبعث فلن ينام بعد مبعثه أبداً ، بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طائفة بعد طائفة ، ويزكو غرسه فى رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كماله ، فإذا بلغه لم يكن ثمة مجال للنماء ، وإنما يقلع ذلك الغرس ويخلى مكانه لغيره.

ونحسب أن مثل هذا الرجل كان موجوداً فى أمة الشمال وهو الذى كانوا يدعونه الإله أودين - وكان لهم أستاذاً وإماما فى أحوالهم الروحانية والجثمانية ، وبطلا كبيراً لا تقدر قيمته ، أفرط إجلال الناس له حتى صار عبادة ، ولا جرم فإنه أهل لذلك ، أفما كان أوتى فضيلة النطق بالفكر الجليل ، وفضائل أخرى كانت إذ ذاك من المعجزات. فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبات قلوبهم ، أما فسر لهم لغز هذا الكون ، وعرفهم ماذا يجب عليهم فى هذه الدار وماذا ينتظرون فى الدار الآخرة ؟ وانطلق الوجود وأحيى الحياة ! فهو منشئ الوثنية الشمالية. وأكبر ظنى أن أودين هذا أول مفكر من أمة الشمال كيفما كان اسمه ، كان ولا شك رجلا يعيش بين الرجال ، وهو ما كاد ينشر رأيه فى الكون حتى ثار فى جميع الأذهان مثل رأيه تماما ، فكأنما كان مكتوبا على صحائف الأذهان بالحبر المغطى ، فما هو إلا أن فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الحبر فظهر واستبان. وكذلك ما زال قدوم الرجل المفكر على العالم هو الحادثة الكبرى أم سائر الحوادث !

ثم لا ننسى شيئا آخر أحسب أن فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنية الشمالية أل « أدا » وذلك أنها ليست نظاما فكريا واحدا متماسكا ولكنها مجموعة نظامات شتى الأصول والأزمان ، ولن يعرف الناس قط تواريخ هذه النظامات وكيف تتقلب من صورة إلى صورة بما أدخله عليها مفكر بعد مفكر ، إلى أن لبست الهيئة التى نراها لها فى كتاب الـ « أدا » كلا ولن يعرف ما صنعه «أودين» نفسه وماذا عسى أن يعرف من الأنباء عن « أودين » ، بل أنى يعرف عنه أنباء وكيف يكون له تاريخ . وعجيب أن يكون « أودين » هذا بكسائه الوحشى ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنة الشمالية بشراً مثلنا تناله أحزاننا وأفراحنا ، ويمشى على مثل أرجلنا وأقدامنا. عجيب أن يكون مثلنا حذوك القذة بالقذة ثم يكون قد أتى كل هاتيك المدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وباد الصانع إلا اسمه أودين : إذ أن لفظة

« ودنزداى »[1] أصلها « أودين زداى ». ولعل فى هذه اللحظة أناسا ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لأودين تاريخ، وليس فيما رجم فيه المرجمون ما يستحق أن يذكر.

قد زعم المؤرخ « سنورو » زعما لم يخجل منه على وضوح سخافته بل شفعه بأمتن لهجات الثقة أو القحة ، وذاك أن أودين كان أميراً وفارسا بطلا فى بقعة بقرب البحر الأسود له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته. ثم إن بلادهم ضاقت بهم فخفوا إلى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار. وإن هذا الأمير أودين اخترع الحروف الأبجدية والشعر وغيرهما ثم آل به الأمر إلى أن اتخذه أهل إسكاندينفيا إلـها معبوداً . واعتبروا أتباعه الاثنى عشر أبناء له وآلهة كذلك ، هذا ما لا يشك فيه المؤرخ « سونورو » ولكن المؤرخ « جراماتيكاس » وهو آخر من أهل الشمال أشد ثقة برأيه من « سونورو » . لا يصعب عليه أبداً أن يختلق لكل خرافة من خرافات القدماء أصلا وحقيقة ، ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت ببلاد الدينمارك أو غيرها. ويجىء المؤرخ « تورفوس » بعد هذين بقرون وهو يا للأسف عالم ومحترس ، فيضع تاريخا لزمن أودين إذ يقول إن أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد ، وبما أن هذه الأقوال ظنون أساسها الشك قد كشف بطلانها الزمن ، فلا حاجة بى هنا إلى تفنيدها بل حسبى أن أقول إن تاريخ أودين كان قبل عام ٧٠ بأدهار طويلة وأزمان مديدة ! ولا أرى أودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه إلا شيئا قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفة من غابر الأعوام .

يجىء بعد ذلك المؤرخ « جريم » الألمانى فينكر وجود « أودين » بالمرة ، ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول إن لفظة « فوتام » التى هى أصل كلمة « أودين » المجعولة علما على الإله الأكبر لدى جميع الشعوب النيوتونية فى كل مكان ـ هذه اللفظة التى تتصل حسبما زعم « جريم » باللفظة اللاتينية

---

(١) إنكليزية معناها يوم الأربعاء .

« فادير » واللفظة الإنكليزية « ويد » إلخ ـــ معناها القديم « الحركة » « القوة » ، فهى الاسم اللائق للإلـه الأكبر لا لمخلوق . قال جريم : وهذه الكلمة اسم لله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الأمم التيوتونية ، والنعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس وأكبر وما شاكل ـ حسن وأيم الله ما قال المسيو « جريم » ثم لا يسعنا إلا الإذعان للسيد المذكور فى جميع المسائل الاشتقاقية . فلنقر ولنقتنع بأن كلمة « فوتام » أو « أودين » يراد بها « الحركة » و« القوة ». فما الذى يمنع أن تكون اسما لرجل بطل محرك كما أنها اسم لإلـه ؟ فأما من حيث إن النعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس وأكبر. أليس قد اشتق الأسبانيون من اسم بطلهم الكبير « لوبى » حينما غلا بهم تقديسه لفظة « لوبى » نعتا لكل شىء أفرط جماله حتى قالوا بسنان لوبى وورد لوبى وغادة لوبى : فلو أن ذلك استمر لأصبحت كلمة لوبى وهى نعت من نعوت الأسبانية معناها ملائكى الجمال أو إلـهى الجمال. ولقد قال آدم سميث فى مقالته على اللغة : إنه ما من نعت إلا وكان فى الأصل اسما لشىء شارك الشىء الأصلى فى صفته ، فكلمة أخضر مثلا كانت فى الأصل اسما لشىء شديد الخضرة. ثم إن الناس كلما أبصروا شيئا فيه خضرة ـ عشبا مثلا ـ قالوا عشب أخضر ، وما نزال نقول ساعة ذهبا وخاتما حديداً فكل النعوت فى زعم « سميث » كان أصلها أسماء أشياء. ولا يسعنا أن نعدم رجلا ونقضى عليه لمجرد مسائل اشتقاقية كهذه ! ولا شك فى أنه قد كان لأولئك القبائل القديمة رجل كان أول أستاذ وقائد. وحقا لقد وجد فى وقت ما رجل هو « أودين » أو مثل « أودين » يبصر بالعين ويلمس باليدين وليس من النعوت ، بل بطلا مصوراً من لحم ودم !

فأما كيفية صيرورة الرجل « أودين » إلـها ـــ الإلـه الأكبر ـــ فهذا ما لا أحسب أن أحداً يجب أن يتفلسف فيه ، وقد قلت إن أهل عصره لم يعرفوا لإجلالهم إياه حداً ، بل لم يكن لديهم إذ ذاك ميزان يزنون به الإجلال. فإن أردت أن تتصور إجلالهم ذاك فتوهم إجلالك لبطل من أكبر الأبطال وحبك إياه

حبا من صميم الحشا ما يزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد ، وحتى يمتلئ به وعاء صدرك ويطفح. أو ربما كان ذاك الرجل « أودين » إذ منحه الله العقل الكبير وبعث فى ذهنه نوراً من لدنه وفجر فى نفسه ينبوعا من عنده أصبح يرى نفسه سراً من الأسرار ، ولغزا لا يحل ، وشيئا يوجب الرعب والدهش فى نفسه هو فحسب ، إنه ربما كان إلـٰهى المنشأ ، أى شعبة من القوة الكبرى والذات العليا المسماة فوتان أو أودين (بمعنى القوة العظمى). أنا لا أحسب أن ذلك قد كان منه غشا أو تدليسا ، إنما هى هفوة وهو أصدق ما لديه ، والحقيقة أن كل ذى نفس كبيرة صادقة لا يعرف من ذا هو — فيخال نفسه طورا فى أعلى قمة وآنا فى أسفل حضيض ، ويظل ولا شىء أشكل عليه من أمر نفسه. ثم ترى أن رأى الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما فى الآخر مما يحدث نتيجة ، فإذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقدسونه وأحس هو فى فؤاده حرارة وجدان شريف ، ووقدة شعور طاهر كبير وخليطا مشوشا من ظلمة حالكة ونور وهاج ، ثم نظر فإذا حواليه كون هائل يقطر من جميع أنحائه ماء الجمال : هذا وقد علم أنه لم يسبقه إلى هذا المقام العلى إنسان — خبرونى نشدتكم الله ماذا عساه يحسب نفسه ؟ كأنى به يناجى نفسه « أنا قوة كبيرة » فإذا الناس أجمعون يجيبونه « بلى قوة كبيرة ! » « فوتان » أو « أودين » !

ثم اذكروا ما لمجرد مر الدهور وتقادم العهد من التأثير العظيم فى مثل هذه الأمور ، وكيف أن الرجل الذى كان أثناء حياته عظيما تبلغ عظمته بعد الممات عشرة أمثالها ، وظلمة القدم من شأنها أن تجسم ما يصير فيها وكذلك إذا كان للشىء الهالك محبة فى الفؤاد وإجلال ، استفحل فى الذاكرة وتجسم فى الخيال. فما بالكم إذا كان العصر عصر ظلمات وجهل مطبق ، فلا تاريخ ولا كتاب ولا رقعة ولا نقش فى حجر اللهم إلا صخرة صماء على سبيل الأثر هنا وهناك. بلى والله إنه لولا الكتب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء جيله أربعون عاماً ضربا من أولـٰئك الأبطال الذين تسمعون عنهم فى خرافات القدماء. فماذا يكون إذا مضى على وفاته ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف عام ! إنه لا

فائدة فى التفلسف فى مثل هذه الموضوعات فإنها تأبى بطبيعتها البحث والاستقصاء ، ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان ، وحسبنا أن نلمح فى أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقى يبرق فى جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة. . حسبنا أنه لم يكن صميمها بزور ولا جنون ، وإنما حق ومعقول.

ويزعم أن « أودين » اخترع حروف الهجاء وكان يأتى بها ضروبا من السحر. فهبوا ذلك صحيحا ، أفليس اختراع الحروف هو أكبر اختراع منذ أقدم الدهور إلى وقتنا هذا ؟ وهل هناك شيء أكبر من إبراز كوامن الأفكار بعلائم ظاهرة ؟ أليس ذلك نطقا ثانيا لا يقل غرابة وإعجازاً عن الأول ؟ ثم ألا تذكرون ماذا كان اندهاش ملك « بيرو » المسمى « أناهولبا » عندما رأى الحروف الهجائية ؟ وكيف صعب عليه أن يصدق بتلك المعجزة فأمر أحد أحراسه من الجند الأسبانيين أن ينقش على ظفره لفظة « ديوص » ليمتحن بها الجندى الذى إلى جانبه حتى يتحقق صدق هذه المعجزة فإذا كان أودين قد أوجد الحروف فى أمته فما باله لا يأتى بفنون من السحر ؟

ويحكى لنا المؤرخ « سنورو » أيضا أن « أودين » اخترع الشعر الذى هو موسيقى الكلام ، فتخيلوا — أصلحكم الله — أنفسكم فى هذه العصور عصور طفولة الأمم — فى تبلج صباح الشعوب الأوربية ، إذ يشرق فى جميع الأنحاء لألاء جديد ندى، وإذ أوربا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة، وكل نفس بها رجاء. رجاء ودهشة يتوهجان فى جميع النفوس شعاعا جما ونوراً عميقا ! أولئك كانوا أبناء الطبيعة الأقوياء ، وكان لهم فى « أودين » فوق كونه قائدهم وفارس خيلهم شاعر ونبى ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع. وكذلك سمة الرجل الجليل فى كل آن يكون بطلا من جميع جوانبه ، بطلا قبل كل شيء فى روحه وفكره. وهكذا كان ذلك البطل المتوحش « أودين » بالنسبة إلى أمته ، كان له قلب كبير قد فتح أبوابه فتلقى هذا الكون الكبير ، وتلقى الحياة الإنسانية كما كانت حينذاك ، ثم قال كلمته فى

هذه وذاك فهو كما قلت بطل فى صورة وحشية أولية ، ولكنه بطل عبقرى كريم النفس شريف الخلق. فإذا كنا نحن أبناء القرن التاسع عشر لا نزال نعجب بذلك الرجل ، فماذا كان إعجاب أولـئك المتوحشين به ؟ حقا لقد كان عندهم بطلا بل نبيا بل إلها ، أو بعبارتهم هـم « فوتان » أى « أودين » ومعناها القوة الكبرى ، والفكر رعاكم الله فكر فى أى صورة بدا وعلى أى شكل ظهر حتى لأحسب أن « أودين » هذا هو من قبيل أكبر أبطال العالم. وحسبكم برهانا فكره الكبير فى قلبه الوحشى العميق !. أفلا ترون فى كلماته الخشنة جذور ألفاظ إنكليزية لا نزال نستعملها ؟. وما وجوده فى تلك العصور المظلمة بضائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع.

فجدير بنا أن نرى فيه نموذج الرجل الشمالى وأشرف بنى جلدته ، ثم ما كاد يظهر فى قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن أخلص الولاء وأصدق العبادة ، فهو الجذر الذى أنبت أشياء جمة ، ولا تزال ثماره يانعة يرف رونقها فى جميع أرجاء الحياة النيوتونية. حتى أن كثيراً من أسماء بلادنا واسم يوم الأربعاء كما ذكرت مشتق من لفظه « أودين ». أفلا ترون بعد ذلك أن آثار الرجل قد جاوزت إلى بلادنا ، وأن أفرعا من فروعه قد امتدت إلينا ومن ذلك الجذر ذياك الورق.

فإذا كان الرجل أودين قد باد وهلك ذكره ، فهذا ظله الواسع المديد ما زال ينشر أعلامه على تاريخ الأمم النيوتونية جميعه ، لأنه متى سلمنا أن أودين كان وقتا ما إلـها أمكننا أن نفهم أن نظام أفكار الأقدمين أو عدم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجىء هذا الرجل قد أخذ بعد مجيئه وتعاليمه فى طريق آخر ، ولبس هيئة جديدة ، إذ جعل جميع الأمم التيوتونية ينقشون على ألواح ضمائرهم كل ما قال ذلك الرجل وعلم بحروفه وشعره وأصبح مذهبه مذهبهم ورأيه رأيهم. وكذلك شأن الرجل الكبير فى كل حين. أو ما ترون فى العقائد الإسكاندنافية التى يصعد ظلها الهائل من أعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الأفق الشمالى صورة الرجل « أودين » ؟ نعم الفكر فكر كيفما

كان ، وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثاً وما تاريخ العالم إلا بمجموع سير أبطاله !

بيد أني أرى في صورة ذلك التاريخ القديم شيئا مرققا للأفئدة ، وهو إفراط أولئك القوم المتوحشين في حب بطلهم وإن شاب ذلك الحب سذاجة وعجز. نعم إنه وإن شابه منتهى العجز فلقد كان في منتهى الوفاء والشرف ، وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الإنسان. وأما لو أمكنني أن أفهمكم ما لم أزل أعتقده منذ زمن مديد من أن هذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وروح تاريخ الإنسان في هذه الدنيا. لكان لكم في ذلك غنية عن كل ما سوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات. نحن لا نعبد أعاظم رجالنا الآن كلا ولا نفرط في إجلالهم بل نقتصد يا للأسف في إجلالنا لهم ألأم اقتصاد ! فهذا وربكم شر ونكر ، ولكن خلو العالم من العظماء أشر وأنكر وأدهى وأمر.

وكذلك ترى في مذهب هؤلاء الوثنيين على علاته فضلا وقيمة ثمينة ، وهو وإن لم يكن اليوم بحق فقد كان في يومه حقا. أليست كأنها صوت آبائنا الأول يصيح من أعماق القرون الغابرة ، يهيب بنا نحن أبناءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول : « هذا رأينا في الدنيا ، هذا كل ما استطعنا أن نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون ، فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهدنا ، واجعلوا بدل احتقاركم لنا شكرا لله الذى رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منا إشرافا على كونه وأصح رؤية ، ولكن لا تحسبوا أنكم بلغتم القمة فإن رأيكم وإن فضل رأينا لكنه ما زال جزئيا ناقصا ، والأمر أعظم من أن تناله مدارك إنسان لا أثناء الزمان ولا خارج الزمان. وكأني بالإنسان بعد أن تمر عليه من هذه اللحظة آلاف السنين بالرقي والنهوض ، لا يزال يجد أن أقصى جهده هو الإلمام بطرف من أطراف هذا الكون ، فإن الأمر كما قلت أكبر من الإنسان وليس في وسعه أن يفهمه ، وكيف وهو شيء عديم النهاية .

الإيمان بأن الكون شيء إلـهي مقدس ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات ، هو عنصر خرافات الإسكندناف وسائر

الخرافات. ولعل الوثنية الإسكاندنافية أصدق فى هذا الأمر من جميع ما عداها إذ الإخلاص أكبر خواصها. وهذا الإخلاص هو عزاؤنا على خلو ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهذيب ، فقد أحس أن هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة وروح يقظى ، وقلوب صحيحة مخلصة جمعت بين معنى الطفولة والرجولة ، إلى سذاجة فى شرف إحساس وعمق فى نشاط وصفاء وإجلال فى شغف وإخلاص فى شجاعة ، فلله أولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم. وكذلك ترى أن هذا الإيمان بالطبيعة قد كان أكبر عناصر الوثنية ، فأما الإيمان بعظمة الإنسان وواجباته الإلهية والأدبية وإن لم يكن مفقوداً من الوثنية ، فهو العنصر الأهم فى الأديان والأطهر والأصفى. وكذلك ترى أن الإنسان يذهب فى أول أمره إلى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ، ثم يعرف أنه لا قوة فى الحقيقة إلا القوة الأدبية وإن أهم الأمور هو تمييزه بين الخير والشر ، بين الفرض والمحرم إلا بعد تصرم الدهور الطويلة.

أما من حيث الخرافات المذكورة فى كتابهم المسمى الـ « أدا » فهى كما ذكرت آنفا أحدث عهدا من مدة « أودين » ، ولعلها لم تكن فى نظر أولئك الأقوام إلا ضربا من اللهو والفكاهة ولم تكن إنجيلا لهم ولا توراة. إذ أن العقيدة كما قدمت لا بد أن توجد أولا ثم تزدحم حولها الأقاصيص الشعرية التفاف الجسد بالروح. ولا أحسب العقيدة الشمالية إلا أنها كانت قبل نظم الأشعار حية فعالة فى نفوس أهلها ، وكذلك سائر العقائد تكون أنشط وأنمى كلما كانت أسكت وأصمت.

ومما يرى فى كتابهم الـ « أدا » ذلك الكتاب المبهم المظلم ، يؤخذ أن رءوس العقائد لم تكن إلا ما يأتى الإيمان بالمنتخبين ، وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يقضى عليهم بالقتل فى ساحة الوغى وحومة الحرب ، ثم الإيمان بالقضاء المحتوم وهو أن من قضى عليه أن يموت قتلا فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر ، ثم الاعتقاد بأن أول واجبات المرء هو أن يكون شجاعا. أليست هذه الثلاثة هى أعظم أصول الشرائع العظمى شريعة لوثر وشريعة محمد ؟ بل أزيدكم وشريعة نابليون

أيضا ، بل هى سنة الإنسان أينما كان وكيفما كان ، وهى السلك الذى يؤلف نظام فكره أجمع ، والخيط الذى منه ينسج ثوب عقيدته. وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان الذين قضوا فى معترك القتال إلى قاعة « أودين » ، أما الأرقة الأخساء والجبناء الأذلاء فينبذون فى ديار « هيلا » إلهة الموت . هذا هو فيما أراه روح الوثنية الشمالية جميعها ، فقد كان أولئك الأقوام يعتقدون أن الشجاعة رأس كل شىء ، وإنها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازب ، وأنهم يستوجبون سخط « أودين » ويستنزلون عقابه إذا هم لم يشجعوا فى جميع المواطن فانظروا بربكم أما ترون فى ذلك معنى عاليا كبيراً ؟ حقا إنه لواجب أبدى وفرض سرمدى حتى اللحظة ، كما كان حقا فى تلك العصور أن يكون الإنسان شجاعا ، وما زال أول واجبات المرء أن يقهر الخوف. وحقا إنه ينبغى لنا أن نقطع دابر الخوف فإنه لا سبيل إلى العمل حتى نصنع ذلك. فإذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان خليقاً أن تخبث نفسه ويفسد طبعه ، وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية وأفكاره زوراً وباطلا لصدورها عن نفس ذليل وقلب جبان. ولذلك أرى أنه لو استخلص لباب المذهب الأودينى من قشوره لألفى حقا إلى هذه الساعة. كيف لا وإنما أول واجبات الإنسان أن يكون كما قدمنا شجاعا ، وأن يمضى قدما فى سننه ، ويكون رجلا فى كل ما يحاول ويزاول. ثم هو فى جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره. وما زال ظفر المرء على الخوف وظهوره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته فى كل آن.

ولا شك فى أن شجاعة أولئك الشماليين القدماء كانت وحشية جداً ، وقد روى المؤرخ « سنورو » أنهم كانوا يرون الموت فى غير مواطن الحرب عاراً وسبة .

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل

فإذا أحس أحدهم دنو الأجل واقتراب الموت الطبيعى ، أحدث الجراح فى بدنه تزلفا بذلك إلى « أودين » ليفسح له فى جناته مقاما. وكان الملوك إذا

أشرفت عليهم مناياهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا فى سفن ، ثم يرسل السفينة فى اليم منشورة القلاع تدب فى خشبها نار بطيئة المسرى ، فإذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح ، تأججت فى بدنها النار وطار فى أركانها شواظها. وكذلك يلقى البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا — شجاعة وحشية قاسية حمراء دامية ولكنها شجاعة ، وخير من لا شىء. ثم أى نجدة روعاء وهمة قعساء وأى عزيمة ومضاء قد كانت لملوك البحر من أولئك الشماليين ! لكأنى والله أراهم مشمرين على ظهور سفنهم صامتين مقفلى الشفاه غير شاعرين بأنهم قد أوتوا منتهى البسالة والنجدة — يكافحون البحر الثائر وعفاريت أمواجه وشياطين حيتانه ونينانه ، بل يكافحون البر والبحر وكل ما عليهما. أولئك آباء بحارتنا : رالى وبلاك ونلسون ! لقد ذهب أولئك الأبطال وما ترنم بعظائم أعمالهم شاعر كهوميروس ، إلا إنى أرى مآثر أغاممنون (أحد أبطال اليونان فى شعر هوميروس) تتضاءل فى جانب مسعاة رجل من أولئك الأبطال الشماليين ، رجل مثل « رولف » أو « رولو » أمير نورماندى ذلك الملك البحرى الفاتك ، فإنى أرى له الآن يداً فى حكومة إنكلترا وإن كان قد مرت على عهده القرون والدهور.

ولم يكن بلا فائدة كل ما فعله أولئك الأقوام من الجولان فى البحار ومن الحروب والوقائع أثناء عدة أجيال ، لأن ذلك لم يكن إلا تنازع الرئاسة ليعلم أى أمة أقوى فتسود. ثم رأيت أن من أولئك الملوك الشماليين من كان يلقب قاطع الشجر ، أعنى الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات ، وفى ذلك معنى وأيم الله كبير . ولقد أخطأ المؤرخ « سكالدز » حيث زعم أن هؤلاء الملوك كان أمرهم قاصراً على الحرب ، بدليل أن الحرب وحدها لا ترزق أمة ولا تمير شعبا، وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزرة ! وإنى لأحسب أن المحارب الصادق يكون كذلك الغابى[1] الصادق ، أعنى أنه يكون أيضا المصلح الصادق والمفكر الصادق

(١) أعنى قاطع الغاب .

والعامل الصادق ، لا يدع أمراً إلا ويتناوله برفق وصدق ، وما ذلك إلا لأن الشجاعة الصادقة هى الأساس لكل هذه الأمور ، والشجاعة الصادقة شىء والقسوة والفظاعة شىء آخر ، فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه أولئك القوم ضد الغابات وضد الظلم الوحشى من قوى الكون ليذللوا لنا الطبيعة ! أو لم نسر نحن أبناءهم فى ذلك الطريق الذى نهجوه لنا ؟ إذن أفلا يعد الله تلك الهمة وهاتيك الشجاعة ؟

ويظهر لى أن تعليم أودين قومه فضيلة الشجاعة وإجابة القوم إياه ، لإصابة قوله هوى فى نفوسهم وظنهم أن كلامه وحى جاء به من السماء ، وإنه لذلك إله ــ يظهر له أن هذا هو أول بذرة نبتت منها الديانة الشمالية وفروعها من الخرافات على اختلاف ضروبها وألوانها والرموز الشعرية والقصائد والقصص والأناشيد والأغانى إلخ. أأقول نبتت ! عجبا عجابا ! إنما يقال نبت للشىء الحى. وقد قلت إن هذا المذهب الوثنى لم يك إلا ظلمة حالكة يبرق فى جوفها ذهن أودين كالنجم فى الديجور ، نعم ولكنها ظلمة حية . تدبروا رعاكم الله ذلك . هذه الظلمة هى الذهن المتوحش الجاهل ــ ذهن تلك الأمة البربرية الشمالية يصبو ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر إلى ما شاء الله فى فطنته ونطقه ! نعم إن الفكر بذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ، ثم لا تزال تنمو وتنمو كشجرة الهند متى أصبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على ما لا نهاية لعدده . وذلك أن البذرة تخرج شجرة ، فأى فروع هذه الشجرة أصاب الأرض صار فى الحال جذرا لشجرة جديدة تنبت فروعا فتصير جذورا ، وهكذا إلى ما شاء الله ، والفكر حى لا يموت ، وأول من فكر من الرجال على ظهر هذه الأرض فهو بادئ الجميع ــ ثم الثانى والثالث . بل كل مفكر صادق إنما هو من قبيل « أودين » أو إن شئت فقل إنما هو « أودين » على النكرة ، ثم هو قد بعثه الله ليعلم الناس رأيه فى الله وفى الكون والإنسان ، ولينشر ظل صورته على أجزاء من تاريخ العالم .

فأما مزايا ذلك المذهب الشعرية فهذا ما لا موضع له هنا ، كلا ولا كبير أهمية . وقد توجد أشعار نبؤية حادة حارة ولكنها على كل حال ضرب من اللهو أضافها إلى قواعد الدين أناس متأخرون ، وما أحسب أنه قد بقى من أشعارهم إلا الأغانى . وأمثال هؤلاء المتأخرين لا يزال منهم من يترنم بالأشعار شأن المصورين المحدثين لا يبرحون يصورون ، لا من صميم القلوب كما كان قدماء المصورين وكما هو الأصل فى التصوير والباعث عليه ، بل ربما ليس من القلوب ألبتة فاعلموا ذلك ولا تنسوه .

وقد حاول شاعرنا « جراى » أن يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين القدماء فخاب خيبة الشاعر بون ، إذ ترجم « الإلياذة » فلم يؤاته الشعر على إبراز روح هوميروس ، وحسب جراى أن حياة أولئك القوم كانت موحشة مظلمة ترفرف عليها ظلال الروع والرعب فصورها كذلك ، ولم يدر أن أهم عناصرها هى وعورة كوعورة صخورها وخشونة كخشونة قفارها ، إلى أنس لا وحشة وانشراح لا انقباض ، وشىء من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدها الرهيبة . وكان القوم غاية فى السذاجة لم يميلوا فى تصوير آلهتهم ووقائع هذه الآلهة إلى ما مال إليه إخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية ، فكأنى بأولئك الشماليين لا يجدون فى وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهوتين مرتعدى الفرائص أمام مدهشات المرسح. ثم يعجبنى جداً سذاجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم ، فمن ذلك ما يتخيلون من أن « ثورًا » إله الرعد يقطب جبينه فى حنق صادق ، ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه ، ثم أجد كذلك الرحمة بادية فى أجمل مظاهرها فى خرافاتهم تلك ، فمن ذلك أن « نولدار » الإله الأبيض إله الشمس الكريم المنعم الجميل يموت ، فلم يدعوا فى الطبيعة شيئاً إلا نقبوا فيه عن دواء . ولكنه مات وقضى الأمر فتبعث أمه « فريجا » رسولا اسمه « هرمودر » ليبحث عنه . ويطوى الرسول تسع ليال وتسعة أيام يخب فى أودية منخفضة مظلمة ، ومنعرجات معتمة مشكلة ، حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبى . ويقول له الحارس « نعم ، لقد عبر « بولدار » ههنا

آنفا ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جداً إلى جهة الشمال » فيستمر الرسول فى سبيله حتى يصل باب مملكة ويرى بولدار يحادثه ، فإذا هو رهين بذلك الملك قد قضى عليه ألا يغادره قضاء محتوما لا مفر منه . وقد أبت ملكة الموت أن تطلقه ، كلا ولو أرادت ذلك الإلهة طرا . ثم إن امرأته تطلب من أجله أن تموت لتؤنسه فى ديار الموت فيجاب طلبها ، ويبقى الزوجان معا آخر الأبد . ثم يرسل « بولدار » خاتمه إلى « أودين » وترسل زوجته «نانا» خاتمها على سبيل الذكرى ـ وا أسفاه ووارحمتاه ؟

والحقيقة أن الشجاعة ينبوع الرحمة ـ ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب . وقد قال المؤرخ « أهلاند » أليس من آيات القوة والشجاعة أن تجد نفوس هؤلاء القوم فى إله الرعد رفيقا مؤنسا ؟ وألا تخاف ولا تذعر من رعده ، بل ترى أنه لا بد لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجميل من مصاحبة الرعد ؟ وقد كان الرجل الشمالى يرتاح ويستأنس إلى « ثورا » ويحبه ويحب سيفه القاذف بالصواعق ، ويلاعبه ويداعبه ، وكان ذاك الإله عنده هو إله الحرارة الشمسية أيضا ، أعنى إله العمل والأمن والخير والبركة ، وصاحب الفلاح ورفيقه فى الغرس والحرث . ثم إن « ثورا » نفسه لا يرتفع عن مباشرة جميع الأعمال الخشنة السوقية ، وما يزال يذهب إلى ديار الشياطين ليذلل عفاريت الثلج والجليد ويقهرها ، وفى بعض هذه الأقاويل ما فيه من الفكاهة والضحك .

فمن ذلك ما ذكرنا من أن « ثورا » يذهب إلى ديار « المردة » ليجلب مرجل «هيمير» حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير ، فيدخل عليه «هيمير» شيخ الأبالسة ولحيته مرصعة بالبرد . وكلما رمى ببصره عموداً من العُمُد انفلق من حدة نظرته . وبعد طويل صخب وعربدة يأخذ « ثورا » المرجل فيلبسه فى رأسه فإذا هو قد بلغ قدميه ، ذلك لأنه مرجل مارد ـ « هيمير » الذى كأن كل بقرة من بقره هضبة من الثلج .

هذه أفكار وأيم الله ماردية هائلة الجسامة ، غير أنها تحتاج إلى أن تراض وتذلل حتى تصير أفكاراً شاكسبيرية ودانتية[1] وجايتية[2] . ثم أني أبصر نسبة قريبة بين « ثورا » إله الرعد و« جاك قاتل المردة » وبين « هندايتن » و« إيتن الأحمر الإيرلندى » التي جاءت في أقاصيص شعراء أحدث عهداً من شعراء تلكم العصور الوثنية ، بل إني لا أجد « هامليت شاكسبير » إلا فرعا من تلك الشجرة القديمة الشمالية وهذا ما لا نزاع فيه ولا ريب ، نعم إن هامليت أو أمليت قد ورد فى خرافة قديمة من أساطير الأولين ، تحدثت عن مقتل ملك بصب السم فى أذنه أثناء نومه إلى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسبيرية . خرافة قديمة أخذها أولا الشاعر القديم « ساكسو » فصاغ منها قصة دانيماركية ، ثم تناول شاكسبير ما صنعه « ساكسو » فصور منها ما ترونه . فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الأفياء قد نما طبيعة أو صدفة !

وحقا إن فى هذه الأغانى الشمالية معنى صادقا شريفا شأن كل قول يتداوله الرواة وتتوارثه القرون ، وليس هو بجرد جزالة فى اللفظ وشرف فى الديباجة ولكنما شرف وجزالة فى المعنى وخشونة فى الروح ووعورة . وأرى فى قلوب أولئك القدماء جداً صادقا وإطراقا فى غير ضجر ولا شكوى ، وكأنى بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والإلهام ما رآه الناس فى جميع العصور بالروية والتفكير ، وهو أن الدنيا باطل وعرض زائل بل خيال لا حقيقة ، وكذلك رأى الفلاسفة من كل أمة وملة .

العيش نوم والمنية يقظة ‏ ‏ ‏ ‏ والمرء بينهما خيال سارى

ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظة ، أن « ثورا » يذهب إلى « أتجارد » — حديقة أرض المردة يصحبه اثنان من أتباعه «ثيالفى» و« لوكى » وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة فيجعلون يطوفون فى سهول وقفار بين

---

(١) نسبة إلى دانتى أكبر شعراء إيطاليا وأعظم رجالها قاطبة .

(٢) نسبة إلى جايتى أكبر شعراء ألمانيا وأعظم رجالها على الإطلاق .

صخور وأشجار ، حتى إذا جن الليل آنسوا دارا ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولجوه فإذا مكان خال فأقاموا به . فلما سجى الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ « ثورًا » معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال ، وجعل صاحباه يجريان هنا وهنالك فزعا يلتمسان مخرجا ، فوجداً غرفة صغيرة فعاذا بها وأقام ثورًا بالباب يترقب عدوا مهاجما ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن إلا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم .. المارد « سكيرمير » وكان نائما ناحية منهم . وكان المكان الذى حسبوه داراً فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها إلى جانبه عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عاذا بها هى بيت الإبهام و لم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع . يا لها من قفازة عتيقة !

ثم إن المارد « سكيرمير » صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ، ولكن «ثورا» ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى تام . وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه انتبه وحك وجنته وقال : ورقة سقطت . ثم عاد إلى نومه فأرسل « ثورا على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلا : ما هى إلا حصاة . ثم نام فصب عليه « ثورا » بيديه جميعا ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد ، فما زاد على أن قطع شخيره وقال : أحسب أن بهذه الشجرة عصافير ، وإلا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكيرمير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأسا وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثراً . فقالوا له : طفل ولا ريب . ثم أومأ له إلى قطة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول « ثورا » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد إلا إحدى أقدامها ، فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل — انظر ثمة إلى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها. فعانقها ثورا وجهد وكد فما فعل شيئا.

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا : لقد غلبت ولكن لا تخجل فإن فى الأمر سراً أنا كاشفه لك . فأما الكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر ، وحسبك أنك أحدثت به جزرا ، ومن ذا الذى يا ثورا

صخور وأشجار ، حتى إذا جن الليل آنسوا دارا ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولجوه فإذا مكان خال فأقاموا به . فلما سجى الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ « ثورًا » معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال ، وجعل صاحباه يجريان هنا وهنالك فزعا يلتمسان مخرجا ، فوجداً غرفة صغيرة فعاذا بها وأقام ثورًا بالباب يترقب عدوا مهاجما ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن إلا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم .. المارد « سكيرمير » وكان نائما ناحية منهم . وكان المكان الذى حسبوه داراً فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها إلى جانبه عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عاذا بها هى بيت الإبهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع . يا لها من قفازة عتيقة !

ثم إن المارد « سكيرمير » صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ، ولكن «ثورا» ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام . وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه انتبه وحك وجنته وقال : ورقة سقطت . ثم عاد إلى نومه فأرسل « ثورا على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلا : ما هى إلا حصاة . ثم نام فصب عليه « ثورا » بيديه جميعا ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد ، فما زاد على أن قطع شخيره وقال : أحسب أن بهذه الشجرة عصافير ، وإلا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكيرمير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأسا وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثراً . فقالوا له : طفل ولا ريب . ثم أومأ له إلى قطة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول « ثورا » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد إلا إحدى أقدامها ، فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل ــ انظر ثمة إلى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها. فعانقها ثورا وجهد وكد فما فعل شيئا.

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا : لقد غلبت ولكن لا تخجل فإن فى الأمر سراً أنا كاشفه لك . فأما الكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر ، وحسبك أنك أحدثت به جزرا ، ومن ذا الذى يا ثورا

يستطيع أن يشرب البحر ؟ وأما الهرة التى أردت أن ترفعها فتلك هى الحية التى تلتف حول الأرض فتمسك أجزاءها وتضم أركانها ، فقل لى أكنت محاولا برفعك إياها أن تخرب العالم ؟ وأما العجوز فهذه هى الدهر والهرم والدوام ، ومن ذا الذى يصارع ذلك ؟ لا إنسان ولا إله فإنها غلابة لكل شىء . وأما الضربات الثلاث التى ضربتها فتأويلها أن تنظر إلى هذه الأودية الثلاث « فهى من صنع ضرباتك » فنظر « ثورا » إلى رفيقه فإذا هو المارد « سكيرمير » وهذا المارد هو الأرض ذاتها ، وما قفازته إلا أحد الكهوف ، وأملس المارد فلم يبق له أثر . ثم إن ثورا التفت لينظر حديقة المردة فإذا هى قد صارت هواء و لم يبق إلا صوت المارد يهتف به ساخراً : « أولى لك ألا تعود إلى ديار المردة » .

هذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الأقاويل التنبؤية الجدية ، ولكن أليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب إبريز ؟ نعم ذهب أنقى وأصفى مما يوجد فى خرافات اليونان ، وإن كانت أجود صنعة وأرشق معرضا . وقد أرى لذلك المارد « سكيرمير » فكاهة جميلة أساسها الجد والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء ، ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل « بين جونسون » وهى فكاهة تجرى فى دمائنا حسبما يخيل إلى لأنى أكاد أسمعها الآن من أقاصى غابات أمريكا يصدح بها كاتبها الكبير « أمرسون » .

ومن الرائع الكبير من أفكار القوم ذاك الذى فى الصورة الآتية ، وهو أنه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهى بموت الجميع وخراب الكون ، ولكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجمل وأبهى ، وأرض أنضر وأحلى ، وإله أشرف وأقوى يعدل بين الناس جميعا . فعجيب من هؤلاء الناس كيف أدركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيامة والبعث ، وهذا فيما أراه القانون الأساسى لكل مخلوق أحدثه الدهر وأقامه فى دار الأمل[1] . قانون قد نفذ إليه نظر ذوى الإخلاص والبصيرة وسينفذ ما دام الإنسان .

---

(١) الدنيا .

ولننظر الآن إلى الخرافة التى يذكر فيها آخر ظهور « ثورا » فى الأرض ونجعلها خاتمة هذا الباب ، ولعلها فيما يخيل إلى آخر هذه الخرافات عهداً وفيها إنكار لانتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ما تولى من عهود الوثنية .. وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من محافظى الوثنيين فى أوائل انتشار النصرانية ببلاد النرويج ، وهذا فحواها : بينما الملك « أولاف » أمير النرويج ذلك الذى كانت له اليد الطولى فى هدم صروح الوثنية ونشر ألوية النصرانية فى البلاد ، سائحاً فى حاشيته على سواحل النرويج يتنقل من ثغر إلى ثغر ويبث العدل فى الرعية أو يصلح من أمورها ، إذا بغريب بادى الوقار أصهب اللحية نبيل الصورة مهيب الطلعة قد طرأ ، ثم كان من حديثه ما أعجب الملك وراعه ، ولكنه ما لبث أن غير لهجة كلامه فخاطب الملك قائلا : نعم أيها الملك « أولاف » ، ما أجمل هذا الشاطئ يزهو فى رونق الضحى ، وما أندى خضرته وأبهى نضرته . فحبذا السهل وحبذا الجبل ، وهنيئا لك الملك والدولة والسلطان ولكن اذكر أنك ما كنت ممتعا بذاك لولا ما مهده لك « ثورا » من أمر البلاد ، وما وطأه لك من شأن الملك ، فكم كافح دونه المردة ، وكم دافع عنه الأبالسة . وكم لاقى فى ذلك من يوم أرونان (شديد) ونهار عصيب ، والآن إذا استتب لك الأمر تناسيت « ثورا » ودفنت ذكره . فيا أيها الإنسان انتبه من رقدتك وكن من أمرك على حذر ! » قال الغريب ذلك وقطب جبينه ، والتفت الملك وحاشيته فإذا هو قد غاب عن الأبصار ، وكان هذا آخر ظهوره على مرسح العالم!

وإنى لأرى باعث حزن وشجن فى ذلك الصوت .. آخر أصوات الوثنية الذى فنى معه « ثورا » والعالم الشمالى بأكمله فناء لا رجعة بعده ، وكذلك كل جليل ورائع وعظيم فإلى الفناء مصيره ، وما من شيء حبيب إلينا عزيز علينا إلا وتجرى بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحس ، ويروعنا بنواه يوم وداع .

وكذلك كان لأولئك الشماليين الأمجاد فى تقديس الشجاعة (هكـذا يمكننا أن نعرف وثنيتهم) ما كفاهم دينا وشرعا ، وما تقديس الشجاعة بـالأمر الهـين . ثم لا أحسب إلا أن عرفاننا بعض الشيء عن وثنية آبائنـا شـيء مفيـد ، ذلـك أن الدين لا يبرح منه فى نفوسنا — وإن لم نشعر بذلك — أثر ، فشعورنا به جديـر أن يجعل صلتنا بالماضى آكد وفهمنا له أصفى وأثقب ، والماضى تعلمـون ميراث لنـا وأى ميراث ، وهو جزء من الحقيقة التى هى مجموع كل عصر وكل أمة فعلمنـا بالجميع خـير مـن جهلنـا بـه . وقـد جـاء فـى كـلام « جـايتى » أن رجـلا اسمـه « مايستر » سأل أستاذه بأى الأديان الثلاثة أنت مؤمن ؟

فأجاب « بجميعها ، لأن من اجتماعها يتكون الدين الحق » .

المحاضــرة الثانيــة

(البطــل فى صــورة رســـول)

(محمــــد ـ الإســلام)

ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة .. الوثنية الشمالية إلى دين آخر فى أمة أخرى .. دين الإسلام فى أمة العرب ، وما هى إلا نقلة بعيدة وبون شاسع بل أى رفعة وارتقاء نراه هنا فى أحوال العالم العامة وأفكاره .

فى هذا الطور الجديد لم ير الناس فى بطلهم إلـهاً بل رسولا بوحى من الإلـه ، وهذه هي الصورة الثانية للبطل . فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم ، بل لنا أن نسأل : أكان من أى ناس قط أنهم عمدوا إلى رجل يرونه ويلمسونه فقالوا هذا خالق الكون ؟ أنا لا أظن ذلك ، إنما يقولون هذا القول فى رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه على أن هذا أيضاً لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلـهاً غلطة وحشية فاحشة . ولكن دعنا نقل إن الرجل العظيم ما برح فى جميع الأزمان لغزاً من الألغاز لا ندرى كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم مزايا جيل من الأجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواه استقبلوه كإلـه أو كنبي أو كيفما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر . ومن طريق إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم فى ذلك الأمر يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .

فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً ـ أعنى من ذات الله فهو جنس واحد : « أودين » أو « لوثر » أو « جونسون » أو « بارنز » وأرجو أن أوفق

إلى إفهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر إلا الهيئة التي يكتسونها هم ، أو الطريقة التي يستقبلها بها أهل زمنهم .

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخانق.

فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة . (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئا ألبتة من أقوال أولئك السفهاء ! فإنها نتائج جيل كفر ، وعصر جحود وإلحاد ، وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان ، ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجبا ؟ والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتا من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك ، فما ذلك الذى يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد ، نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن . وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته ، وتعطيه بغيته . كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقا ، وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقا ، ومحنة

ـ والله ـ ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأمما بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ، ويحيق مصابها بالغير لا به . وأى مصاب وأبيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنساوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة ! » .

أما الرجل الكبير خاصة، فإني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذبا، فإني أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة . وعندى أنه ما من رجل كبير ـ ميرابوا أو نابليون أو بارنز أو كرمويل ـ كفء للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول . أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء . بل أقول إن الإخلاص ـ الإخلاص الحر العميق الكبير ـ هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان . لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لا يبرح يفتخر للناس بإخلاصه . كلا فإن هذا حقير جداً وأيم الله ـ هذا إخلاص سطحى وقح ـ وهو فى الغالب غرور وفتنة ، إنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ولا يشعر به ، بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوما واحدا ؟ نعم إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه أهى مخلصة ، أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد . هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله .. حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته . هو يرى الكون مدهشا ومخيفا وحقا كالموت وحقا كالحياة . وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا فى غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنما هى مكتوبة بحروف من اللهب لا شك فيها ولا ريب . ها هى ! ها هى ! فاعرفوا ـ هداكم الله ـ أن هذه هى

أول صفات العظيم ، وهذا حده الجوهرى وتعريفه وقد توجد هذه فى الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد فى نفس كل إنسان خلقه الله ، ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا أصليا صافى الجوهر كريم العنصر .. فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسميه شاعرا أو نبيا أو إلـها . وسواء هذا أو ذاك أو ذلك فقد نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء .. نعم هو يرى باطن كل شىء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات، وسخيف الأوهام والآراء . كيف ؟ وإن الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ، ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم شاعراً كان أو فيلسوفا أو نبيا أو فارسا أو ملكا ألا تراها ضربا من الوحى ؟ والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة ، فوجب علينا أن نصغى إليه قبل كل شىء .

وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر . وما الرسائل التى أداها إلا حق صراح وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة ، فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع . ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

وهب لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات ـ وأى إنسان لا يخطئ . إنما العصمة لله وحده ـ فإنه ليس فى طاقة أية هفوات أو غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى ، وهى أنه رجل صادق ونبى مرسل .

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ونجعل من الجزئيات حجبا تستر عنا الحقائق الكلية — الهفوات ، أيحسب الناس أنه يخلو منها إنسان ؟ إن أكبر الهفوات عندى أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات . ما بال الناس لا يذكرون نبى الله داود ؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام ؟ ألا ما أهون أمر الذنوب وأصغر خطر الأغلاط — الجزئيات والقشور — إذا كان لبابها كريما وسرها حراً شريفا ، وكان فى التوبة النصوح والندم الصادق ووخز الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر لأدران الروح من أدران الشوائب ، أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟ إنما ألأم الذنب هو كما قلت حسبان المرء أنه برىء من كل ذنب . وكل نفس هذا شأنها فهى فى نظرى مطلقة من الوفاء والمروءة، بعيدة عن التقى والبر والحق — أو هى ميتة — أو إن تشأ فقل هى بقية بقاء الرمل الجاف المميت . وإنى أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون فى مزاميره لأصدق آية على ارتقاء المرء فى معارج المكرمات ، وعلى حرب العقل والهوى — حربا طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه لقى مشفيا على الانقراض ، ولكنها حرب بغير نهاية ، مشفوعة أبدا بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذى لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة . يا ويل النفس الإنسانية !! ما أشد خطبها بين ضعفنا وقوة شهواتها ! أو ليست حياة الإنسان فى هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل فى استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق فى ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة إلا لأخرى وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات . وإنما الأمر الهام هو أيظفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ وإنا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقا والصميم صحيحا ، وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة إنسان .

* * *

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلاداً كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم . وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من

اللين والدماثة كما كان يبسط من عبوس وجود البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء . وكان الأعرابى صامتاً لا يتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفراً تخالها بحرا من الرمل يصطلى جمرة النهار طوله ، ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ولا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار ، يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبى النظر . وإذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق ، فالعرب ولا شك طليانه . والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ . وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحر له ، فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه . ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به إليه الفرص . وكان العربى أغلب وقته صامتا فإذا قال أفصح : ويزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة أنهم شاركوا اليهود فى مرارة الجد وخالفوهم فى حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفى ألمعية القريحة وأريحية القلب . وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد ، حيث كانت تقام أسواق التجارة فإذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ، ويجدون لرناتها أية لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهالكون .

وأرى للعرب صفة واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذافيرها ، ألا وهى التدين . فإنهم مذ كانوا ما برحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان ، وكانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته . فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع

وجوهه ، فإن مصنوعات الله ما برحت بوجه ما رموزاً له ودلائل عليه . ألسنا كما قدمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال ، أو « أسرار الجمال الشعرى » ، كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه . ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد وأى تقوى وإخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟ وقد اتفق النقاد أن « سفر أيوب » أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب فى بلاد العرب . ورأيى فى هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب ، ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها ـ عمومية تخالف التعصب والتحيز . وحسب الكتاب شرفا أن يكون يضرب بعرق فى كل نفس ، ويمت بصلة إلى كل قلب ، ويكون كالبيت يفضى إليه منتهى السبل ، وكالأرج الضائع تتنازعه جميع الأنوف . والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل ـــ حياة الإنسان وفعل الله به فى هذه الدار . وقد أتانا بذلك فى أنصع بيان وأشد إخلاص وأحسن سهولة . وإنى لأتبين فيه العين البصيرة والقلب النافذ الفهم الجم الخشوع ، فهو الحق من حيث جثته والنظر الراسب فى قرارة كل شىء وصميم كل أمر ـ مادى وروحانى . ألا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرَس « الله الذى أودع الرعد حنجرته » « فهل ترى صهيله إلا قهقهة لرؤية الرماح ؟ » هذا والله أجود الاستعارة ، وما أحسب أن فى عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه . ذلك إلى ما فى الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل . وما قرأت فيه قط إلا حسبت قلب الإنسانية يترنم شجى ووجداً ، ودمع الإنسانية يفيض حرقة وكمداً . فيا لها من رقة فى شدة ورأفة فى قوة وما أشبهها إلا بسحر الليلة الصائفة ـ رقة نسيم فى جلال مشهد عظيم ، وإلا بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار . وما أحسب أن فى جميع التوراة شيئا يدانيه فضلا وقيمة .

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ، ولا يزال للآن بمكة في البناء المسمى « الكعبة » . وقد ذكر المؤرخ الروماني « سيسلاس » الكعبة فقال : إنها كانت في مدته أشرف معابد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بخمسين عاما . وقال المؤرخ « سلفستاردي ساسي » : إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات . فإذا صح ذلك فلا بد أن إنسانا قد بصر به ساقطا من الجو ! والحجر موجود الآن إلى جانب البئر زمزم والكعبة مبنية فوقهما ، والبئر تعلمون منظر حيثما كان سار مفرح ، تنبجس من الحجر الأصم كالحياة من الموت ، فما بالكم بها إذا كانت تفيض .

بديمومة لا ظل في صحصحانها ولا ماء لكن قورها الدهر عوم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجا وبارحها المسموم للوجه ألطم
أظل إذا كافحتها وكأنني بوهاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها . والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضا من الله وصفاء ، وقد قدسها العرب والحجر الأسود وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين . وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التي ترسل كل عام ، والتي يبلغ ارتفاعها سبعا وعشرين ذراعا حولها دائرة مزدوجة من العمد ، وبها صفوف من المصابيح ، وبها نقوش وزخارف عجيبة ، وتوقد تلك المصابيح لتشرق تحت النجوم المشرقة فنعم أثر الماضي هي ! ونعم ميراث الغابر هذه كعبة المسلمين ! ومن أقاصي المشرق إلى أخريات المغرب .. ومن دلهي إلى مراكش تتوجه أبصار العديد الجمهر من عباد الله المصلين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات كل يوم . نعم لهي والله من أجل مراكز المعمورة وأشرف أقطابها .

وإنما من شرف البئر زمزم وقدسية الحجر الأسود ومن حج القبائل إلى ذياك المكان ، كان منشأ مدينة مكة. ولقد كانت هذه المدينة وقتا ما ذات بال وشأن، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها. وموقعها – من حيث هي مدينة –

سيء جداً ، إذ هى واقعة فى بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ، ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ، ولكن الذى اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ، ثم إن أماكن الحج مازالت من قديم الزمان تستدعى التجارة ، فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار والباعة . والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم يكن فى الحسبان . لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، والمركز لكل ما مر من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها فى حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للمأكولات والغلال . وكانت حكومتها ضربا من الجمهورية الأرسطوقراسية عليها صبغة دينية . ذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظمى فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة ، وكانت لقريش فى عهد محمد ، وأسرة محمد من قبيلة قريش . وكان سائر الأمة مبدداً فى أنحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والأخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء وربما كان الأمير راعيا أو ناقل أمتعة ، وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف علنى إلا التقاءهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد ، وإلا رابطة الدم واللغة . وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طوالا خاملى الذكر غامضى الشأن — أناسا ذوى مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذى يشاد فيه بذكرهم ويطير فى الآفاق صيتهم ، وما ذلك ببعيد . وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعى اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة — أعنى حياة المسيح ووفاته ، وهى التى

أحدثت انقلابا هائلا فى جميع سكان العالم ــ فلم تعدم هذه الأنباء تأثيرها من الفوران فى أحشاء الأمة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم أن ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش وقد مات أبوه قبل مولده . ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه ــ وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جد شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحا باراً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير بملء قلبه ، وكان يقول ينبغى أن يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسنا وفضلا ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به إلى أبى طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده ، فرباه عمه ــ وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل .. على أحسن نظام عربى .

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية وما أشبه ، وفى الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلا يتبع عمه فى الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث من قبل هذا التاريخ ببضع سنين ــ رحلة إلى مشارف الشام إذ وجد الفتى نفسه هنالك فى عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً فى نظره ــ أعنى الديانة المسيحية . وإنى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس « بحيرا الراهب » الذى يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه فى دار ، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما . فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة و لم يكن يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره إلا خليطا مشوشا من أشياء ينكرها ولا يفهمها . ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشئون فأقامت فى ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ، ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى ، وتحلها له يد

الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . فلعل هذه الرحلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة .

ثم لا ننسى شيئا آخر وهو أنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب . ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أميّة محمد ، نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء ـ أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور ـ من كان بين محمد وبينه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره .

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شابا مفكراً ، وقد سماه رفقاؤه الأمين ـ رجل الصدق والوفاء ـ الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره . وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة . وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام ، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة لا يتناول غرضا فيتركه إلا وقد أنار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حجته ، واستثار دفينته . وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم ، كريما برا رءوفا تقيا فاضلا حرا ـ رجلا شديد الجد مخلصا ، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة ، جم البشر والطلاقة ، حميد العشرة حلو الإيناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله ـ هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا .

وكان محمد جميل الوجه وضيء الطلعة حسن القامة زاهى اللون ، له عينان سوداوان تتلألآن ، وإنى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى ينتفخ ويسود فى حال غضبه ، كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء « لوالنرسكوت » وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر . نعم لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان عادلا صادق النية . كان ذكى اللب شهم الفؤاد .

ألوذعيا كأنما بين جنبيـ ـه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئا نارا ونوراً . رجلا عظيما بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم ، وهو غنى عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

وما ألذ وما أوضح قصته مع خديجة وكيف أنه كان أولا يسافر فى تجارات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان ينهج فى ذلك أقوم مناهج الحزم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو . ولما زوجت منه كانت فى الأربعين وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة. ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها ومما يبطل دعوى القائلين إن محمداً لم يكن صادقا فى رسالته بل كان ملفقا زورا أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوى مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك إلا بعد الأربعين أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا التاريخ تبتدئ حوادثه وشواذه حقيقية كانت أو مختلفة ، وفى هذا توفيت خديجة . نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادئ الساكن ، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميل ظنونهم به . ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجعا وثار يريد أمرا جليلا وشأنا عظيما .

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا وأيم الله لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير أبن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً ، وحنانا وبرا ، وحكمة وحجى ، وإربة ونهى — أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه . وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين . فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة ، إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ، ويتوشح بمتبع الأباطيل . لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات . لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروانقه ومباهره ، لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « هأنذا » . فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهى مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعية ، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها مصغية ، وكل القلوب واعية ، وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الأعوام الطوال — منذ أيام رحلاته وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار: ماذا أنا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كونا ؟ وما هى الحياة وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهار ، ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة ، لم يجبه لا هذا ولا ذاك وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره .

وهذا ما ينبغى لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه . فقد أحس ذلك الرجل القفرى أن هذه كبرى المسائل وأهم الأمور ، وكل شيء عديم الأهمية فى جانبها . وكان إذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلية أو فى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده . وقد قلت إن أهم خصائص

البطل وأول صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ، فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة . وكان يقول فى نفسه : « هذه الأوثان التى يعبدها القوم لا بد من أن يكون وراءها ودونها شيء . ما هى إلا رمز له وإشارة إليه . وإلا فهى باطل وزور وقطع من الخشب لا تضير ولا تنفع ، وما لهذا الرجل والأصنام ، وأنى تؤثر فى مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ، ولو عبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير ؟ أى خير له فى هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ إنه فى واد وهم فى واديهم يعمهون فى ضلالهم ، وهو ماثل بين يدى الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة . فإما أن يجيبها وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجبها يا محمد أجب لا بد من أن توجد الجواب . أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره ؟ حمق وأيم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجة ؟ وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف ؟ أو فى ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا — إذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل إن محمداً كاذب، ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافة وحمقا ، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع.

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع إلى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ، ونعمت العادة ما أجل وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد !! لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجى ضميره صامتا بين الجبال الصامتة ، متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية . أجل حبذا تلك عادة ونعمت - فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه فى غار بجبل « حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى ، إذ هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريبا مكان خلوته ، فقال لها : إنه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر ، وإنه قد أنارت

الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء . وإن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه باطل ، خلقنا ويرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له ، وستار يحجب النور الأبدى والرونق السرمدى . الله أكبر و لله الحمد : ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه ، وأن القوة كل القوة هى فى الاستقامة لحكمته والرضا بقسمته أيا كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة ، ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو . ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم « جابتى » : إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون . نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم ، وما قيل إن منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الإذعان للضرورة ـ فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الإنسان مكرها ـ بل فى اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هى خير ما يقع للإنسان وأفضل ما يناله ، وأن لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وإنه من الأفن والسخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله . بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونا عادلا وإن غاب عن إدراكه. وإن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة . نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكون وتقوى .

أقول وما زالت هذه الخطة المثلى والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيبا وظافرا وحراً وكريما وسائراً على المنهج الأقوم وسالكا سبيل السعادة ما دام معتصما بحبل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر الأمكن ، غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة . نعم هو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهرى ـ قطب رحى الكون ومحور الدهر ـ وليس بظافر إذا فعل غير ذلك . وحقا إن أول وسيلة تؤدى إلى اتباع هذا القانون هى الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شىء غيره صالح ! وهذا يا إخوانى هو روح

الإسلام ! وهـذا هـو أيضـا روح النصرانيـة ، والإسـلام لـو تفقهـون ضـرب مـن النصرانية ، والإسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء ، وأن نفطم النفس عن الشهوات وننهى القلب عن الهوى ، وألا نجمح في عنان المنى وأن نصبر على البث والأسى ، وأن نعرف أنا لا نعرف شيئا ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ونعدها يداً بيضاء ونعمة غراء ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول « إنا بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون » .

فمن فضائل الإسلام تضحية النفس في سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بني الأرض . نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها ، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن بالخسران والهلاك وقد سماه محمد « عليه السلام » وحيا و« جبريل » وأينا يستطيع أن يحدث له أسماء ، ألم يجئ في الإنجيل أن وحي الله يهبنا الفهم والإدراك ؟ ولا شك أن العلم والنفاذ إلى صميم الأمور وجواهر الأشياء لسر من أغمض الأسرار لا يكاد المنطقيون أن يلمسوا منه إلا قشوره . وقد قال نوفاليس : « أليس الإيمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد إذا اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه لم يك إلا أمراً بديهيا ، وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ونجاه من الهلاك والظلمة ، وكونه قد أصبح مضطرا إلى إظهارها للعالم أجمع ــ هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين .

ويخيل إلينا أن الصالحة خديجة أصغت إليه في دهشة وشك ثم آمنت وقالت « إي وربي إنه الحق » . ونتوهم أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع ورأى في إيمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت إليه من قبل ، فإنه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكا في اعتقاده . ولقد قال نوفاليس : ما رأيت شيئا قط آكد ليقيني وأوثق لاعتقادي من انضمام إنسان آخر إلى في رأيي . نعم إنه لصنيع أغر ونعمه وفيرة . وكذلك ما

انفك محمد يذكر خديجة حتى لقى ربه حتى إن عائشة ـ زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التى اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها ـ هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم ألست الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبنى أكثر مما كنت تحبها . « فأجاب محمد » كلا والله لست أفضل منها ، وكيف وهى التى آمنت بى والكل كافر ومنكر ، ولم يك لى فى هذا العالم إلا صديق واحد ـ وهذا الصديق هى . وآمن به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك وعلى ، وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به .

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذلك فما كان يصادف إلا جحوداً وسخرية ، حتى إنه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيبا ، فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأيهم يمد إليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة ، وثب على وكان غلاما فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى أحد لهجة إنه ذاك النصير والظهير ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمداً ومعاديه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على ، ولكن رؤية رجل كهل أمى يعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو إلى العجب المضحك ، فانفض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية فى الجد والخطر ! أما على فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه فإنه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة ، وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب فى القرون الوسطى . وقد قتل بالكوفة غيلة ، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل إنسان عادلا مثله وقال قبل موته حينما

أوسر فى قاتله « إن أعش فالأمر إلى ، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تعفوا أقرب إلى التقوى » .

وكان فى عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قريش حراس الكعبة وخدمة الأصنام ، وانضم إليه منهم رجلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ . وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال ، وكان عمله بالطبع سيئ الوقع لدى كل إنسان حيث جعلوا يقولون من هذا الذى يزعم أنه أعقل منا جميعا ، والذى يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب ؟ وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم وألا يسخط القوم ويثير غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته . فأجابه محمد : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . كلا فإن فى هذه الحقيقة التى جاء بها لشيئا من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر وأى مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر ما دام قد أراد أن تظهر ، وبرغم قريش جميعها وبكره سائر الخلائق والكائنات . نعم لا بد من أن تظهر ولا يسعها إلا أن تظهر . بذلك أجاب محمد ، ويقال إنه « اغرورقت عيناه » : لقد أحس من عمه البر والشفقة وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ولكنه أمر صعب المراس مر المذاق .

واستمر يؤدى الرسالة إلى كل من أصغى إليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة إقامتهم بمكة ، ويستعمل الأتباع هنا وهنالك وهو يلقى أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشراً باديا وكامنا ، وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه . ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه ، فنصبوا له الأشراك وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم . وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب ، وتعلمون — أصلحكم الله — أن محمداً ليس بحاجة إلى أن نرثى له ولحاله النكراء إذ ذاك ومقامه الضنك وموقفه الحرج ، ولكن اعرفوا معى أن حاله إذ ذاك

من الشدة والبلاء كما لم ير إنسان قط ، فلقد كان يختبئ فى الكهوف ويفر متنكرا إلى هذا المكان وإلى ذاك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تتهدده الحتوف وتتوعده الهلكات وتفغر له أفواهها المنايا ، وكان الأمر يتوقف أحيانا على أدنى صغيرة — كإجفال فرس من أفراس أتباع محمد — فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكنه أمر محمد — ذلك الأمر العظيم — ما كان لينتهى على مثل تلك الحال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعا وكانوا أربعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ، وألفى المقام بمكة مستحيلا هاجر إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن المدينة أى مدينة النبى وهى من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ فى المشرق . والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا كبيرا ، وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويخلون أمامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة ، فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ، ويحيط به من كالحات المحن والملمات . وهكذا شأن كل إنسان فى مثل هذه الأحوال ، وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط . فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم ابن الصحراء عل أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ولسان حاله يقول : وأما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن ! وحقا رأى . فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق ، وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر . وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتوا وطغيانا. فليجعل الأمر

إذن إلى الحسام المهند والوشيج المقوم وإلى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء !
وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدر فواق ، وكانت النتيجة ما تعلمون !

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا . فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ، ولكن ما هو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق والرأى الجديد أول ما ينشأ . يكون فى رأس رجل واحد فالذى يعتقده هو فرد - فرد ضد العالم أجمع . فإذا تناول هذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا فقلما والله يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال . أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا ؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون . وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى . فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار ، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم ، وليس فى طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها بل ما هو أحط وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط ، وما كان أعمق جذرا فى الحق وأذهب أعراقا فى الطبيعة فذلك هو الذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده .

أقول الطبيعة أعدل حكم ، بلى ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم . إنك تأخذ حبوب القمح لتجعلها فى بطن الأرض ، وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور تبن وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقذاء ولكن لا بأس عليك من ذلك ، وألق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى فى جوف الأرض العادلة البارة فإنها لا تعطيك إلا قمحا خالصا نقيا . فأما القذى فإنها تبلعه فى سكون وتدفنه ولا تذكر عنه كلمة ، وما هى إلا برهة حتى ترى القمح زاكيا يهتز كأنه سبائك الذهب الإبريز، والأرض الكريمة قد طوت كشحا على الأقذاء وأغضت، بل إنها حولتها كذلك إلى أشياء نافعة و لم تشك منها شجواً ولا نصبا . وهكذا

الطبيعة فى جميع شئونها فهى حق لا باطل، وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون، وهى لا تشترط فى الشيء إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم . فإذا كان كذلك حمته وحرسته أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه . فترى لكل شيء تحميه الطبيعة روحا من الحق . أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو واأسفاه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذه الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعنى أن الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور فى ظلام وتجيئنا الحقائق فى أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها فتموت وتذهب . نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبدا ويتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف ، وما يزال يتنقل من الأثواب والأبدان من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود سنة الطبيعة التى لا تتبدل . نعم إن جوهر الحقيقة الكريم حي لا يموت،وإنما النقطة الهامة والأمر الوحيد الذى يعرض فى محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشيء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائى . ليس الأمر الهام عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك هو : أفيك أقذار وأكدار أم لا ؟ وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا ؟ أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا ، بل أفيك قمح ؟ أيقول بعض الناس إنه نقى ؟ إنى أقول له « نعم نقى ـ نقى جداً ولكنك قشر ـــ ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح ، ومجرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقى ولا غير نقى وإنما أنت لا شيء والطبيعة لا تعرفك وإنها منك براء .

نحن سمينا الإسلام ضربا من النصرانية ، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لأيقنا أنه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت إذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ـ تلك النصرانية التى كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك

القلب ببطلانها قفراً ميتا : على أنه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جداً ، وبفضله فقط آمن الناس بها . وحقا إنها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حى على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة .

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ، ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم ـ نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية إلى لباب الأمـــر وصميمه فقال فى نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهى منكر وفظيع وكفر لو تعلمون . إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقنا وبيده حياتكم وموتكم ، وهو أرأف بكم منكم ، وما أصابكم من شىء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقا وجدير أن يصدق به . وإن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشىء الوحيد الذى للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشىء هو روح جميع الأديان ـــ روح تلبس أثوابا مختلفة وأثوابها متعددة وهى فى الحقيقة شىء واحد ، وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماما كبيرا لهذا المعبد الأكبر « الكون » جاريا على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا محاولا عبثا أن يقاومها ويدافعها . ولم أعرف قط تعريفا للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا فإن الفلاح فى ذلك (إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) : وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة ، وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر ؟ أما أنه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها ، وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها ، وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب

وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق فإنها حطب ميت أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب .

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة . هذا وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة . ولذلك لا عجب إذا قلت إن الأوربى يجد فى قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع فى صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم ، وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع فى شئون الحياة ومسائلها ، والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيراً يضىء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ، ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فى غياهب الحياة . وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالى ، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته فى آذان الألوف من خلق الله وفى قلوبهم اثنى عشر قرنا فى كل آن ولحظة ويقال إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة .

إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب . والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم « براديه » وأمثاله أنه طائفة من الأحاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذاراً له عما كان يرتكب ويقترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فإنى لأمقت كل من يرمى محمداً بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الرأى الباطل ، والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال فى الخلوات الصامتات ،

وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لا تكاد تجد مخرجا . وقل ما نطق به فى جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم . ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير ، فلقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات ، وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن - حروب مع قريش والكفار ، ومخاصمات بين أصحابه ، وهياج نفسه وثورانها - كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط . وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر ، يطفو بها الوجد ويرسب ، وتدور بها دوامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نوراً هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه ، أيزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته فى نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

والإخلاص المحض الصراح يظهر لى أنه فضيلة القرآن التى حببته إلى العربى المتوحش ، وهى أولى فضائل الكتاب أيا كان وآخرتها ، وهى منشأ فضائل غيرها بل لا شيء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى . ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقا من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته ، ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم . أجل لقد كان لمحمد فى شئون الحياة عين بصيرة ، ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع أذهانها كل ما أبصره ذهنه ، أنا لا أحفل كثيراً بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الإنجيل شبيهاً ، ولكنى شديد الإعجاب بالنظر الذى ينفذ إلى أسرار الأمور فهذا أعظم ما يلذنى ويعجبنى ، وهو ما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال : حسبكم بالكون معجزة . انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير فى الآفاق لا يدرى من أين جاء ، وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ، ثم يسح بمائه ويهضب ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا . أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكلأ لبنا وهى فخر لكم ، والسفن — وكثيرا ما يذكر السفن — كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح ، وبينا تسير إذا هى وقد وقفت بغتة وقد قيض الله الريح معجزات وأى معجزات بعدها تريدون ؟ ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوة وعقل « ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات » وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم ، وتموتون فتصبحون غير موجودين « ثم وهبكم الرحمة » لقد أدهشتنى جدا هذه الجملة فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم ؟ هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة . وكذلك أرى فى محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال ، وأتبين فيه عقلا راجحاً عظيما وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا لو شاء لكان شاعرا فحلا ، أو فارسا بطلا ، أو ملكا جليلا ، أو أى صنف من أصناف البطل .

نعم لقد كان العالم فى نظره معجزة أى معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة ، وهو أن هذا الكون الصلب المادى إنما هو فى الحقيقة لا شىء — إنما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة ، وهو ظل علقه الله على صدر القضاء لا غير . وكان يقول هذه الجبال الشامخات ستتحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى ، وكان يقول الجبال أوتاد الأرض ، وأنها ستفنى كذلك يوم القيامة ، وأن الأرض فى ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب فى الفضاء هباء منثورا فتنعدم . وكان لا يزال واضحاً

لعينيه سلطان الله على كل شيء ، وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورنق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة ، والجوهر والحقيقة ، وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ولا يرونه شيئا مقدسا ، بل لا يرونه شيئا واحدا وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل فى تسيير السفن البخارية . فسرعان ما تنسينا الكيماوات والحسابيات ما يكمن فى الكائنات من سر الله . وما أفحش ذلك النسيان عارا وأكبر هذه الغفلة إثما . وإذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر ؟ إذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية — بقلة ذابلة نعم ، وما أحسب العلوم — لولا ذلك — إلا خشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية ، ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التى لا تبرح تمدك بالخشب إثر الخشب فيما تمدك وتعطيك : ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولا إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبد ، وإلا فما العلم إلا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

وقد قيل وكتب كثيراً فى شهوانية الدين الإسلامى ، وأرى كل ما قيل وكتب جورا وظلما . فإن الذى أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وإنما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الأزل ، وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان فى إمكانه أن يجعل . والدين المحمدى بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة .. إقامة الصلاة خمسا فى اليوم ، والحرمان من الخمر ، وليس كما يزعمون كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولته ، لأنه من أفحش الطعن على بنى آدم والقدح فى أعراضهم أن يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل وإتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة التماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة ! كلا فإن أحسن الآدميين لا يخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندى الجاهل الجلف الذى يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس له مع ذلك « شرف » يحلف به ، فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى. وليست أمنية أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتى عملا شريفاً وفعلا محموداً ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم

إلى أبلد إنسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد فإذا هو قد تأجج قلبه حماسا ، واتقدت نفسه غيرة ، وصار فى الحال بطلا . وما أظلم الذين يتهمون الإنسان بقولهم إنه ميال بفطرته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة . إنما مغريات الإنسان وجاذباته هى الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل . أقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل تذك ناراً تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص ، وما كان قط اعتناق الناس لدين من دواعى الشرف والعظمة .

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ ـ كلا ، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت . لقد كان زاهداً متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وإنهم ليذكرون ـ ونعم ما يذكرون ـ أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد فى الله قائم النهار شاهر الليل ؛ دائب فى نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وربكم وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا وإعظاما ، وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفية ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعر المقادة صعاب الشكيمة . فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير . ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه . وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ، لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار

ما ناله محمد فى ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال .

وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة ـ صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه . ولا نحسب أن شدة تدنيه أزرت بفضله ، كلا بل زادته فضلا . وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزئ غلامه : العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يسخط الرب. ولما استشهد مولاه زيد «ابن حارثة» فى غزوة « مؤنة » قال محمد : لقد جاهد زيد فى الله حق جهاده ، ولقد لقى الله اليوم فلا بأس عليه . ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكى على جثة أبيها ــــ وجدت الرجل الكهل الذى دب فى رأسه المشيب يذوب قلبه دمعا ! فقالت « ماذا أرى ؟ » قال « صديقا يبكى صديقه » مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا فى محمد أخا الإنسانية الرحيم ـ أخانا جميعا الرءوف الشفيق ، وابن أمنا الأولى وأبينا الأول .

وإنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه : ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية . إذا كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره . ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد . وطالما كان يذكر يوم « تبوك » إذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم : الحصيد ! إنه لا يلبث إلا يوما . فماذا تتزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم إنه حر ولكن جهنم أشد حراً . وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية ، إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة .

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب ولهو ، بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء . ولم يك منه إزاءها إلا الإخلاص الشديد والجد المر . فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق ، وعيشة المرء فى مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل إنه هو نفسه أكذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف ـ شعاع الله ـ متضائلا فى مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت . فهو رجل كاذب لا أنكر أنه مصقول اللسان مهذب حواشى الكلام محترم فى بعض الأزمان والأمكنة . لا تؤذيك بادرته ، لين المس رقيق الملمس كحمض الكربون تراه على لطفه سما بقيعا وموتا ذريعا .

وفى الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها ، وهى التسوية بين الناس. وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس فى الإسلام سواء ، والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الإسلام . ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءا من أربعين من الثروة ، تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا . وما هو إلا صوت الإنسانية ـ صوت الرحمة والإخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل ـ ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره ، فأقول إن العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء فى الكتاب . فإن القرآن قد أقل جداً من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن إيماء وتلميح . وإنما المفسرون والشراح الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا وألما جسمانيا حتى أسندوه إلى النار. ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قال : « وقال لهم خزنتها سلام

عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فالسلام والأمن هما فى نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، والشيء الذى عبثا يتلمسه الإنسان فى الحياة الدنيا . وقال أيضا : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ؟ وأى شيء أهنأ من التآلف والتصافى ؟

وأى دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقرع عن مآربها ؟ وهذا هو منتهى العقل والحزم . فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات . ولعل أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وأن يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعييه وتعتاص عليه إذا هم أن يصدعها ، بل حليا وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ، ولا أسهل من نزعها . وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصوداً من محمد معيناً ، أو كان وحى الغريزة وإلهاماً فطرياً فهو والله نعم الأمر .

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت فى القرآن . وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » ماذا ترون كل هذا إلا ظلا تمثل فى خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق ، أعنى الواجب وجسامة أمره . لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمرا جسيما ، ويرى لكل عمل إنسانى مهما حقر خطارة كبرى . فما كان من سيئ فله من السوء نتيجة أبدية ، وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية ، وأن المرء قد يسمو بصالحاته إلى أعلى عليين ، ويهبط بموبقاته إلى أسفل سافلين ، وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمة بأحرف

النار ، وكل ذلك قد حاول فى أشد إخلاص وأحد جد أن يخرجه للناس ويصوره لهم ، فأخرجه وصوره فى صورة تلكم النار والجنة ، وأى ثواب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة .

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية ، وفيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها ، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم . وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم ، ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم — إذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والأبد ، وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة « من السائر ؟ » فيجيبه السائر « لا إله إلا الله » وإن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيفة ، وإن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاى فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام ، ونعم ما يفعلون .

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيى به من العرب أمة هامدة وأرضاها مدة . وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة ، والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة . وكذاك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة

رقى فى درج الفضل ، وتعريج إلى ذوى المجد ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان . ألستم ترون فى حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم ، كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير ، فإذا هى بارود سريع الانفجار وما هى برمل ميت ، وإذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى ؟ ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فى انتظاره كالحطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

المحاضـــرة الثالثـــة

البطـــل فى صـــورة شاعـــر

(دانتـــى ـ شاكسبـــير)

البطل فى صورة إله والبطل فى صورة نبى هما من ثمرات العصور الغـابرة لا يعود بهما الزمان بعد ذلك أبداً ، وهما يدلان على جفاء فـى الفكـر وغلظـة فـى الفهم يمحوهما مجرد تقدم العلوم الطبيعيـة . ومحـال علـى النـاس أن يحملهـم فـرط العجب والإعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه إلـها أو ناطقاً بصوت إلـه ، إلا إذا كانوا عائشين فى عصر خال ألبتة مـن الأوضـاع العلميـة الطبيعيـة . نعـم لقـد انقضى زمن الآلهة والأنبياء وجاء الزمن الذى يلبس فيه البطـل صـورة أقـل عظمـة وأبهة وإن لم تك أقل فضلا وحقـا ، أعنـى صـورة الشـاعر ، والشـاعر نـوع مـن البطل لا ينفرد به عصر دون آخر جدير أن تنتجه أقدم العصور وأحدثها .

بطل نبى شاعر ـ إلى غير ذلك من شتى الأسماء نعطيهـا لـلرجل العظيـم فـى شتى الأزمان والأمكنة ، وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق ، وحسـبما برعـوا فيه من فنون الفضل وأبواب العلم ! أو على هذه القـاعدة يمكننـا أن نعطـى كثيراً من الأسماء غير ذلك . وإنـى لأوقـن بـأنى لا أحسـب أن هنـاك رجـلا عظيمـا لا يمكنه أن يكون عظيما فى كل فن ، فالشاعر الـذى لا يسـتطيع إلا أن يجلـس إلى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة ، مستحيل عليه أن ينظم قصيدة بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفـــارس الأروع إلا إذا كـان هـو نفسـه فارسـا أروع . ولا أحسـب الشاعر الكبير إلا أنه يجمع فى نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف ، وإنه قد كان يمكنه أن يكون ـ بل هو بالفعل ـ كل هـذه . ثم لا أفهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل . « ميرابو » صـاحب القلـب الكبير المتوهـج ، المتأجج

نارا ، المفعم دموعاً ، أن يكون شاعرا ينظم القصيد والمبكيات التمثيلية والمقطعات ، فيقرع بها القلوب والأكباد لو قد ساقته الأحوال والأسباب إلى ذلك . والأمر الأولى الجوهرى هو أن يكون الرجل عظيما . وإن فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن أكبر وقائعة ، وقد أذكر قواد لويز الرابع عشر فيخيل إلى أنهم كذلك شعراء ، وأن فى كلمات القائد تورين ما يماثل أقوال ساموبل جونسون حكمة وبلاغة . فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل ، وما كان لامرئ قط أن يُجل ويُعظم بغيرهما . أوَ لا تذكرون أن الشاعرين « بترارك » و« بوكاشيو » كانا يقومان بأعمال سياسية فيحسنا القيام بذلك ؟ أم لا تحسبون أن الشاعر « بارنز » لو قد جعله الله مكان « ميرابوا » لأتى ما لم يستطعه ؟ ولا نعلم أى عمل من الأعمال كان شاكسبير لا يؤديه على أكمل حال لو قد أسند إليه .

ولست أنكر أن لكل امرئ طبيعة خاصة واستعدادا فطريا ، وأن هنالك فروقا فى الغرائز ، ولكن فروق الأحوال والعلل أكثر وأكبر . وما عظماء الرجال فى ذلك الأمر إلا كأصاغرهم ، فإنك لتتناول الطفل الممكن تصييره أى صانع فتعلمه حتى يصبح حدادا أو نجارا أو بناء ، ومتى أصبح هذا أو ذاك بقى كذلك طول عمره . وإذا كنا لا نزال كما قال « أديسون » نجد الرجل الأعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء تحت ثقله الفادح ، وآخر ضخم الجثة شديد القوى عبل الشوى عادى الألواح كأنه الهيكل المبنى وهو مع ذلك خياط لا يحمل إلا خيطا وإبرة يخف محمولهما على النملة . على أن الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعى . وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف ؟ — أيصير غازيا أم سلطانا أم فيلسوفا أم شاعرا ؟ إنها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم وما عليه إلا أن يقرأ العالم وقوانينه ، والعالم وقوانينه صحيفة منشورة أمامه ، وما لدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به فى شأن الرجل العظيم .

إن بين الشاعر وبين النَّبى فى نظر المتأخرين فرقا كبيرا ، ولقد كان مدلولهما فى بعض اللغات القديمة واحدا . فلفظة « فاتيس » معناها شاعر أو نبى .

والحقيقة أنه مازال بين النبى والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب . وما برح جوهرهما واحدا من حيث إن كليهما ينفذ ببصره إلى سر الكائنات المقدس . أو ما يسميه « جايتى » السر الجلى ، الجلى لكل إنسان ولا يكاد يراه مع ذلك إنسان . السر الإلهى الكائن فى كل كائن – المستقر فى باطن « الظاهر » كما يقول « فيشتى » – السر الذى ما جميع الظواهر من النجوم الزاهرة إلى الرياض الناضرة إلى ظواهر الإنسان وأفعاله ، إلا ثوب له وبدن يتراءى فيه ويظهر . نعم السر الإلهى فى كل زمان ومكان موجود ولا ريب ، وربما أغفله الناس فى معظم الأوقات والجهات إذ يحسب الكون الذى هو « فكر ا لله المحقق » شيئا عاديا تافها هامدا كأنما هو شيء جامد تولى صنعه النجار والحداد . ولا داعى هنا للإكثار فى ذلك الموضوع ، ولكنى أقول ويل للذين لا يفقهون ذلك ولا يؤمنون به ، ويل بهم وأسف عليهم ، ويا بؤس للحياة إذا كانت غير مشفوعة بذلك !

ولكنى أقول من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله ، فإن « الفاتيس » أعنى الشاعر أو النبى بإحدى اللغات القديمة لم ينسه و لم يغفله ، ولكنه نفذ إليه ببصيرته ، وإنما أرسله ا لله ليفعل ذلك وليكشف من سر ا لله ما غمض .

هذه هى إبداء رسالته إلى الناس أن يجلو لنا غامض السر – ذلك السر الذى هو إليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق ، فإذا نسوه فقد ذكره مسوقا إلى ذكره بأقوى دافع من ذات نفسه ، عائشا فيه من حيث لم يرد و لم يشعر فهو ليس بتابع لمعتاد القول ولكنه رجل نظارة مبتدئ محقق ، فهو لا يستطيع إلا أن يكون مخلصا . ومن عاش من الناس وسط الظواهر فهو العائش فى صميم الحقائق ، المجتهد فى ا لله الجاد فى شئون الحياة والكائنات . ولو عبث العالم طراً فالإخلاص أول أسباب شاعريته ونبوته ، وهكذا يشترك الشاعر والنبى فى إدراك سر ا لله الجلى فهما من حيث ذلك واحد .

أما الفرق بينهما فذاك : وهو أن النبى قد تناول هذا السر المقدس من وجهة نظر الخير والشر – المحظور والمباح . وتناوله الشاعر من وجهة الجمال والحسن

والجلال وما شاكل ، فأحدهما الهـادى إلى ما نفعل ، وثانيهما الدال على ما نعشق . على أنهما بعد متداخلان وفرعان متعانقان لا يمكن الفصل بينهما وفصم عروتهما . ولا يخلو النبى أيضا من تتبع الجمال أيا كان ، وإلا فكيف له أن يبصرنا ما يجب علينا إتيانه ؟ ولقد جاء فى التوراة ــ وهو قول نبى ــ آية جديرة أن تحسب كأبدع ما نظم شاعر وهى : « انظر إلى زهر الرياض فإنك لا تراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج ، وهو مع ذلك قد كسى من ثياب البهجة وبرود الحسن ما لم يكسه سليمان فى ريعان سلطانه » أليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة إلى أعمق أعماق الجمال ؟ « زهر الرياض » رافل من فنون ألوانه فى أقشب من مطارف الأمراء وآنق من حلل الملوك وهى بعد نابتة من الثرى المتواضع والتراب المتطامن ، كأنها عيون الملاح ترنو إليه من خلال بحر الجمال الباطن . وهل كان للأرض أن تصوغ هذه الأزهار لو لم يكن الجمال جوهرها رغما من ظاهرها الجعد المتلبد ؟ ومن ثم قال « جيتا » قولا استنكره الكثيرون وهو : « الجمال أفضل من الخير ، والجمال يشتمل على الخير وأكثر » وإنما قصد إلى الجمال الحق الذى يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات « بولونيا » ، وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبى .

قليل فى شعراء الأعصر القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا الغاية القصوى . وهذا القول وأيم الله إن كان ظاهره الصدق فهو فى الواقع أخدوعة . إذ الحقيقة أنه ليس فى جميع الشعراء كامل ، وإنما الشعر عرق يجرى فى طبيعة كل امرئ لا يخلو منه ، وكل إنسان يجد فهم قصيدة فهو فى أثناء قراءتها شاعر ، وما الفؤاد الذى يرتاع لتلاوة جحيم « دانتى » إلا من طينة فؤاد ذلك الشاعر وإن كان بعد أقل شاعرية . ولم يك غير شاكسبير بقادر على اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية القديمة ــ حكاية الشاعر « ساكسو جراماتيكاس » . ولكنه ليس من إنسان إلا ويستطيع أن يصنع قصة ما من تلك الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداءة بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال أو ضعفه . وأرى التعريفات كلها اختيارية ذوقية ما لم يكن هنالك فرق محدود كما

بين المربع والدائرة ، فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه وجيله ، حتى نضع أمره بينهم كالغرة فى الفرس البهيم والأبلق وسط الدرهم كان جديراً أن يسموه شاعراً . وكذلك شأن انتقادهم أكابر شعراء العالم فإن من رأوه من الشعراء قد برز فى مضمار الشعر حتى بز القرناء وحلق فى سماء الخيال حتى علا النظراء ، أجمعوا على إجلاله وسموه شاعراً عاما . على أن مثل هذا الحكم ليس فى الحقيقة إلا مسألة ذوق ورأى خاص ، فإن فى جميع الشعراء بل فى جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية العامة لم يخل فرد من ذلك . وسرعان ما ينسى الناس معظم الشعراء ثم لا تحسبن أن الأعاظم الأفضلين منهم : أمثال شاكسبير وهوميروس: إلا ملاقين من النسيان حظوظهم، ولا بد من يوم يصبح أمرهم فيه نسيا منسيا .

ولسائل أن يسأل : أى فرق هنالك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعرى ؟ فالأجوبة على ذلك كثيرة ، ولا سيما ما كتبه نقاد الألمان فى ذلك الصدد وفيها الذى لا يفهم لأول وهلة ، فمن ذلك قولهم : إن الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ، ثم هو ينفض هذه الخاصية أعنى عدم النهاية على كل شىء يصفه أو يصوره . فهذا الكلام وإن لم يكن بمحكم ولكنه جدير بالذكر ، إذ كان إنما قيل فى موضوع مبهم مثل الشعر . ثم هو لا يخلو من بعض المعنى إذا تُؤمل وتُدبر . أما أنا فإنى أجد معنى جما فى التعريف القديم للشعر وهو إنه الكلام الموزون المودع شيئا من الموسيقى حتى لهو ضرب من الغناء . وحقا لو اضطر الإنسان إلى إعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزاً ذلك التعريف القديم ، فإذا كان نظمك موسيقيا لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة وفى جميع الأفكار والمعانى والنظام والنسق ، فهو شعر وإلا فلا . والمعنى الموسيقى هو ما إذا خرج من ذهن نفذ إلى لباب الشىء وأدرك مكنون سره ، أعنى النغمة الكامنة فى جوفه — أعنى ما يستمر فى ضمير ذلك الشىء من موسيقى الائتلاف والوئام — من تلك الموسيقا التى ليس إلا بفضلها يوجد ذاك الشىء ويكون أهلا لأن يوجد فى هذه الدنيا . ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شىء موسيقى ، أعنى أنه إذا بدا

للناس بدا فى منطق موسيقى ، أى بدا فى صوت الغناء . وإنى أرى معنى الغناء عويصا عميقا ، إذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير الغناء بالقلم أو باللسان ؟ والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهى العمق ، الذى يذهب بنا إلى شواطىء المجهول فيتركنا ننظر برهة فى ذلك البحر.

أجل إن فى جميع الكلام حتى فى أكثره استعمالا لشيئا من النغم والغناء . وليس ثمة قرية فى العالم مهما حقرت إلا ولأهلها لهجة قد خص بها منطقهم وكلامهم ــ فهذه اللهجة هى النغمة التى يغنى بها أولئك القوم ما يقولونه من الكلام ! نعم إن اللهجة ضرب من النشيد والترنم ، وما من قوم إلا ولهم لهجة خصوا بها وإن كانوا لا يفطنون إلا للهجات غيرهم . ثم اذكروا أيضا أن كل كلام صادر عن انفعال فإنه يلبس بطبيعته ثوبا موسيقيا . بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشىء عميق فهو غناء ، بل يظهر لى أن الغناء هو لبابنا الجوهرى ، وإن كل ما فينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فإنما هو لفائف وقشور وأغلفة ! نعم الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميع الأشياء ، ولقد كانت اليونان تقول فى خرافاتها إن للفلك فى مسيره موسيقى . ولعل ذلك كان دليلا على ما كانوا يشعرون به من تركيب الكائنات الباطنى ونظامها الداخلى ، وإن روح أصواتها وتعبيراتها لم يك إلا غناء وموسيقى . وعلى ذلك فسنسمى الشعر : فكراً موسيقيا ، والشاعر هو الذى يفكر على هذه الصورة . وأساس ذلك هو فى الحقيقة قوة الذهن ، وإنه الإخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعراً . انظر إلى صميم الأشياء يكن نظرك موسيقيا ، فإن قلب الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك أن تنفذ إليه .

ويظهر لى أن الشاعر ــ كاشف أسرار الوجود بنغماته ــ ينزل من نفوس الناس منزلة منحطة جداً عن منزلة النبى ، إذ يرون عمله تافها ووظيفته صغيرة . فكان البطل عندهم أولا إلـها ثم نبيا ثم شاعراً . أليس فى ذلك دليل على انحدار الرجل العظيم فى أنظارنا على توالى الزمن ؛ فإنا نراه أولا إلـها ، ثم ذا وحى إلـهى ، ثم لا نرى فيه بعد ذلك إلا ناظم أشعار جميلة ورجلا نابغة وبارعا وما

أشبه ؟ هذا هو الظاهر لى ولكنى أحمل نفسى على الاعتقاد بأن الأمر خلاف ذلك ، شعوراً منى بأنه لا يزال فى بنى آدم الإجلال المفرط — لم ينقص مثقال ذرة — للعظمة والبطولة فى أية هيئة بدت وأى اسم أعطيت .

وقد أعلم أنه إذا كنا الآن لا نرى فى الرجل العظيم إلها ولا نبيا ، فما ذلك أن أرينا فى الله وفى ينبوع الضياء الأقدس الأعلى ومنبع العظمة والعقل الأوفر الأوفى قد اتضع وخبا ، بل بالعكس لأنه قد سما وطاب . وجدير بكم أن تعوا ذلك وتذكروه . ولا أنكر أن الشك والكفر والاستخفاف آفات هذه العصور قد أحدثت ضرراً عظيما فى هذا الأمر الأجل الأعلى بإضعافها فى نفوس الناس إجلالهم للبطل ، حتى أصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للإجلال . وهذه وأبيكم ألأم العقائد وأنكاها وأوخمها مغبة . ولن يكون مع اعتقادها إلا اليأس المطلق من الإنسانية وسائر أمورها وأشيائها . ومع كل ذلك فانظروا إلى نابليون ! ضابط صغير على طائفة من جند المدافع . هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم إياه ما لم يصبه كثير من الأنبياء وجبابرة الملوك . ثم انظروا إلى الشاعر بارنز كيف كان إذا اطرد به مجرى الحديث استوقف الأميرات وخدم الإصطبلات بسحر بيانه فلم يبق منهم إلا من شعر بأن لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروهما لأحد غيره ، وأنه هكذا تكون الرجال وإلا فلا ! فترون من ذلك أنه قد كان يكمن فى قلوب هؤلاء القوم وإن لم تصرح به ألسنتهم ويلمح من خلال حركاتهم — وإن لم يظهر ساطعا جليا — أنهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لا يجدونها لسائر الرجال ، فى ذلك الفلاح الكثيف الحاجبين الوقاد المقلتين صاحب الكلمات التى تستوكف الأعين تارة بهوامر الدموع ، وطورا تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع ، أو لا نشعر نحن أيضا بذلك ؟ ولكنه لو طهر الله نفوس الناس من أدران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل الله ذلك يوما ما — نعم لو أبدلت القلوب من رذيلة الإيمان بالمظاهر الكاذبة فضيلة الإيمان بالجواهر

الصادقة ، إذن فأى منزلة تكون لمثل الشاعر بارنز فى نفوسنا وأى محبة وإكبار تمجيد ؟

وعلى كل ذلك ألا ترون أن لدينا شاعرين هما وإن لم ينالا منزلة الألوهية ، فقد نالا فى هذه العصور على ما بها من رذائل الاستخفاف والنكران والشك منزلة التقديس والولاية ؟ نعم إن شاكسبير ودانتى لوليان من أولياء الشعر حرام على كل إنسان أن ينال مقامهما الشريف بأدنى إساءة ، وهذه نتيجة وصل إليها العالم بالإلهام والفطرة رغما مما قام فى طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر . ويفصل هذين الشاعرين من الزمن مسافة قصية ، وكلاهما قائم فى فضاء الدهر كراهب فى فضاء القفر له مملكة من الوحدة ودولة من الوحشة غريب فى جيله وقومه.

غربته العلى على كثرة الأهـ ـل فأضحى فى الأقربين غريبا

لا مثيل لهما فى سائر الشعراء تباركا عن الأنداد والأقرن ، يحفهما فى نظر العالم نور من الجلال ورونق من الكمال فهما مقدسان وإن لم يتول تقديسهما بطارقة وقسوس . وهكذا ترون كيف أن ما أودع نفوس البشر من فطرة إجلال البطل ما يزال يحيا فى قلوبهم برغم انتشار السخرية والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر ، وسنلقى نظرة فى تاريخ هذين البطلين .

لقد ألفت عدة تراجم لدانتى ، وجملة حواش وشروح لكتابه ، ولكنها على العموم قليلة الثمرة . أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه شىء وقد باد معظمه حتى لا يمكن تداركه ، لم يك دانتى فى زمانه إلا رجلا صغير الشأن شريداً طريداً مكسور الفؤاد مهيض الجناح قليلا اهتمام الناس به مدة حياته . وأسوأ من ذلك أن معظم أنباء ذاك الخمول والبلاء تراها على علاتها قد بادت على ممر خمسة قرون ، وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح ، فكتابه هو جل ما نعرفه عنه . كتابه وصورته المنسوبة إلى المصور « جيوتو » التى إما نظرت إليها لم يسعك إلا الشهادة لصانعها بالإحسان والإجادة أيا كان . أما أنا فأرى ذلك الوجه أمس الوجوه لكبدى وأقرعها لأحشائى ، وأرى آية الحزن والألم وآية

الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادى فى رقعة المصور منفرداً وحيدا لا يحفه شيء من الأثاث والمتاع ، إلا ما يرفرف عليه من روح الوحشة — أرى كل ذلك عنوانا على تاريخ دانتى ! وظنى أنه أشجى وجه صور من عالم الحقيقة — وجه محزن مفتت للفؤاد أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان ، لا كما تكون فى الرجل بل كما تكون فى الطفل . ولكن قد خالط هذه المعانى الرقيقة معان أقسى وأمر ، معاني وحشة وسخط وألم فى تجلد وتعزز ويأس فى رفعة وكبرياء . روح رقيقة هواء قد لبست آية البأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار ، كأنما تنظر إليه من وراء سجف من الثلج ! وقد قلصت شفتاه احتقاراً وازدراء ، لا كازدراء الإنس بل كازدراء الآلهة للشيء الذى يذيب حشاه ويأكل فؤاده ، كأن ذلك الشيء هو أحقر ما يكون وأدنى ، وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشيء ، وإن كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب . إنما هو وجه رجل منابذ للدنيا مناصب لها معارض لأحكامها ، قد صب عليها غارة شعواء ، وأقام لها من الحرب سوقا بضاعتها أبدا نافقة ، ورحى ما تبرح العمر دائرة . وهل هى إلا محبة تحولت حنقا لا يفتر ولا يستريح ، متمهلا مطردا ساكنا كحنق إله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ! هذا هو دانتى ، هذا هو صوت عشرة قرون خرس ، هذا هو الرجل الذى صدح لنا صوتا عن الجحيم والجنة !

وأرى هناك مطابقة بين ما نعرفه عن حياة دانتى وبين صورته وكتابه . ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من أعمال إيطاليا فى عام ١٢٦٥ ، وعلم وثقف على أحسن نظام كان إذ ذاك . وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتينى ، وله قدم راسخة فى بعض أبواب العلم . ولم يدع دانتى فيما نظن شيئا يتعلم حتى حصله ، وكان ذا فهم صفي مهذب وذكاء مشتعل وعقل راجح . وكان قد أتقن من العلم ما جاء فى الأزمان القريبة من عصره ، فأما ما بعد عنه فى أقاصى الغابر فلم يجد إليه سبيلا لخلو عصره من المطبوعات ومن أسباب التواصل . وسلك فى حياته المذاهب المعتادة فصحب جيش بلاده فى حربين .

وذهب مرة سفيراً إلى بعض الولايات ، وأصبح بفضل ذكائه وجده أحد القضاة الأكابر وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان قد عرف فى طفولته صبية حسناء فى مثل سنه ومنزلته ، وكان يراها أحيانا وكانت تمتد بينهما صلات على بعد . وكلكم يعرف ما كان من أمره معها ، وما كان من الشتات والفرقة ، ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل ، وهى تشغل جزءا عظيما من كتاب دانتى ومن حياته أيضا . ويظهر لى أنه لم يحب قط غيرها إنسانا وكان حبا من صميم الأحشاء . وأن فؤاده ما برح بناجيها ــ والقبر ما بينه وبينها ــ وينزع إليها وهى مع الله ماتت ، وزوج من امرأة أخرى ولكنه لم يسعد . وشتان ما بينه وبين السعادة !

ولسنا متوجعين لدانتى آسفين لما أصابه ، فإنه لولا تلك المصائب لما كان دانتى إلا أحد قضاة بلده ، ولخسر العالم كلمات من أبرع ما أنشد وما تغنى به . نعم لقد كان يزيد قضاة « فلورنس » واحداً ، ولكن العشرة القرون الخرس كانت تستمر على خرسها ، والعشرة القرون التالية المصغية (لأنه سيتم طبعا بعد تاريخ وفاة دانتى عشرة قرون وأكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة ــ كتاب دانتى ــ وتخسر لذيذ مسموعها . نعم لا أسف ولا حرقة ولا حسرة ، وكيف وإنما أراد الله لذلك الشاعر حياة أشرف وأسمى . ولعلنا لا نعرف أيهما الأسعد الأهنأ ــ عيشته المرة الأليمة ؟ أم عيش هادئ عادى ؟ والسعادة والشقاء سر من الأسرار يعيى به البشر ، وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل .

وبينما دانتى عائش فى وطنه قائم بوظيفة القضاة ، إذ ثارت فتنة أدت إلى نفيه وسائر حزبه ، فكتب عليه منذ ذاك الشقاء والويل ، وانتزعت أملاكه وأصبح وهو :

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد   كالسيف عرى متناه عن الخلل

وكان يشعر وفى حشاه جمرة تتوقد ، بأن ما لقيه من أفحش الظلم وأفظع الجور ، وحاول جهده أن يرجع إلى وطنه وثروته ، ولم يدع وسيلة إلا اتخذها حتى السلاح ، ولكن عبثاً حاول ، وما زاده اجتهاده إلا خطبا على خطب ومحنة

فوق محنة فأهدر دمه ، ونودى متى قبض عليه أعدم إحراقا . هكذا وجد فى بعض الآثار . وألفى أيضا رسالة تاريخها واقع بعد هذه الحوادث بعدة سنين ، رداً من دانتى على اقتراح قدمه إليه قضاة بلده يعدونه بالعفو والعودة إلى منصبه وأملاكه ، إذا هو قبل أن يقدم معذرة وغرامة . فأجاب فى عزة وكبرياء « إذا أنا لم أرجع برىء الساحة موفور الكرامة ، فلا رجعت أبدا » .

وكذلك راح دانتى فى هذه الأرض الرحبة الفضاء بلا دار ينتقل من مضيف إلى مضيف ، ومن محل إلى محل ، منطبقا عليه قوله : آه ما أوعر المسلك وما أخشن الطريق ! » ولم يكن دانتى بالجليس الممتع ، وأنى يكون كذلك من ظل وهو كسير القلب كسيف البال ؟ كلا ولا كان دانتى صاحب الطبع الحاد والفؤاد الجاد والأحزان والأشجان بجدير أن يلهى الغير بفكاهته ويضحكهم بنادرته ، وقد روى عنه « بترك » أنه لما كان فى بلاط الأمير « كانديلا سكالا » وقد لامه ذلك الأمير على إطراقه واكتئابه وصمته ، أجابه بجواب خشن . وكان الأمير إذ ذاك وسط مجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر ، فأقبل على دانتى يقول له : « أليس عجيبا أن نرى ذلك الماجن المسكين يجتهد ليجعل فى مقاله متاعا ولذة ، وأنت على ما بك من عقل وحكمة تطوى اليوم فاليوم والشهر فالشهر مطرقا صامتا لا تفوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ » فقال دانتى : « لا عجب . أو لا تذكر المثل : إن الطيور على أشكالها تقع » ؟ فمثل هذا الرجل الكبير صاحب الأجوبة المسكتات والكلمات الموجعات والصمت والإطراق ، لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك . وكذلك ما زالت الأيام بدانتى حتى أفهمته أنه أصبح ولا مأوى له على ظهر الأرض ولا ملاذ ولا ملجأ ولا أمل ، وأن الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب فى أنحائها شريداً .

كأنما هو فى حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه

وإنه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له ، أو حشا يخفق وجدا عليه ، وإنه لا خل ولا صاحب ولا سلوة ولا عزاء .

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجافت جنح بالطبع إلى الآخرة ، وتوجه وامتلأ خياله بصورة العالم الأبدى - ذلك العالم الحق الذى ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها إلا ظلا كاذبا يرفرف عليه . وناجته نفسه : أما وطنك « فلورنس » فلست ناظراً آخر الأبد ، وأما الجحيم والجنة فسوف ترى ! وماذا وطنك والأمراء وماذا العالم والحياة ؟ تلك لا شىء ! وكذلك إذ أصبح دانتى فى الدنيا بلا مأوى جعل مأواه فى عالم الآخرة الرائع الهائل . وكذلك أصبح لا يرى حقيقة غير الآخرة ، فصارت مسرح خواطره ومراح أفكاره . والآخرة سواء حسبها الناس شيئا معنويا أو شيئا حسيا فإنها ما برحت أهم أمورهم ، ولكن دانتى كان يعتقد أنها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد ، وكذلك كانت عقيدة تلك العصور . فلم يشك دانتى فى أنه سيبصر طبقات الجحيم وينظر بها بركة « ماليبولج » كما يشك أحدكم فى أنه يبصر القسطنطينية لو أصبح على شاطئ البوسفور . فلما أفعم فؤاد دانتى من هذه الأفكار والخواطر ، وطال عليه تأملها فى سكوت ، وتدبرها فى صمت ، طفح بها إناء صدره وفاض فبرزت للعالم فى ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر .. كتابه المسمى « القصة المقدسة » أشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى أسباب العزاء لدانتى ، بل من أعظم دواعى الفخر أنه استطاع أن يخرج ذلك الكتاب الأجل فى منفاه ومحنته ، وأنه لم يك فى طاقة « فلورنس » ولا فى قدرة أى رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين إتيان تلك المأثرة الكبرى والمفخرة العظمى أو يعينوه عليها . وكان يشعر بعض الشعور أنه عمل جليل كأجل ما يستطيعه امرؤ ، وكان ذلك البطل الضخم يقول فى شدة بأسائه وأزمة نكرائه إذا أمضيت عزمك ظفرت - كل من سار على الدرب وصل - وكانت مؤنة الكتابة كبيرة عليه جداً ، وكان نصبها شاقا حتى قال : « هذا الكتاب الذى تركنى عدة أعوام فى هزال » . أجل لقد أحرز دانتى قصبات السبق بالكد والألم لا بالدعة والعبث . بل بالجد العلقمى والجهد الناصب . كيف لا ؟ وإنما بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه . وكذلك معظم

الكتب الجليلة تنقش بدماء كتابها ، والكتاب مودع سيرته جميعها . وكانت وفاته بعد أن أكمله بمدة يسيرة ولما يطعن في السن — وإنما قضى في السادسة والخمسين من عمره ضحية الحزن والكمد .. هكذا يقال ، وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته في بلدة « رافينا » . ولما مر على وفاته قرن طلب أبناء وطنه الجثة من أهالى « رافينا » فأبوا كل الإباء ، وعلى قبر دانتى هذه الآية : « هأنذا — دانتي — مدفونا بعيداً عن وطنى ومسقط رأسى » .

قلت : إن قصيدة دانتى غناء ، وقد سماها « تيك » غناء لغزيا عميقا ، وما عدا بذلك عين الحقيقة . وقد قال « كولريج » فى بعض كتاباته : إن كل جملة موسيقية التركيب . يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم ، فلا بد من أن تكون ذات معنى جليل شريف ، لأنه ما زال أبداً بين الجسم والروح ، بين اللفظ والمعنى ألفة وشبه . والشعر القديم الجيد .. شعر هوميروس مثلا ، كله غناء ، بل كل شعر حر غناء . وأن كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ولكنه قطعة نثر فصلت في لفظ طنان فيه عقوق لقواعد النحو ، وأذى ومصاب على القراء . وإذا كان في رأس أحد الناس خاطر فما باله لا يبديه فى عبارة سهلة قريبة .. أعنى في جملة نثرية ؟ بل ما باله لا يستريح أو يخرجه ملتويا معقداً تطن به القافية ؟ أما أنه لا حق له قط فى النظم والغناء بالقوافى حتى تتملك فؤاده حرارة الانفعال وموسيقى الوجد ، فيصبح صوت منطقه بفضل موسيقية أفكاره وعمقها وعظمتها موسيقيا . إذن فله علينا أن ندعوه شاعراً ونصغى إليه على أنه غريد الناطقين وهزار اللافظين ، والأدعياء فى ذلك كثيرون . ولذلك كانت قراءة النظم على القارئ الأريب عملا شاقا إن لم نقل عملا لا يطاق ! وما أقبح النظم الذى لم يكن هناك ضرورة إلى نظمه .. الذى كان أولى له أن يلقي إلينا معناه فى وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا طنين . وإنى أنصح إلى كل من أمكنه أن يقول أفكاره ألا يغنيها ، وأن يفهم أنه لا مجال فى الأحوال الجدية وبين القوم الجادين للطنين بأفكاره والتلاعب بها ما دامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه شعراً . وكما أن الغناء الحر يلذنا ويطربنا فكذلك الكاذب منه يؤلمنا

ويوجعنا ولا يقع منا إلا موقع الضوضاء الممقوتة المنكرة ، ولا نراه إلا كطنين الذباب أو دوى النحل .

وحسب دانتى فخراً أن أقول: إن قصته هى غناء حسن . بلى إنى لأحس الوزن الموسيقى يطرد فى جميع لفظها فكأنها نشيد من الأناشيد . ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلا فى ذلك ، بل أرى حركة اللسان فى تلاوتها تجرى على ميزان فكأنها ضرب من الرقص . ولكن السبب الأكبر فى ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد ، فجوهرها ومادتها من الموسيقى . وهى بفضل عمقها وحرارتها وإخلاصها موسيقية ، وإنك ما تعمقت قط إلا أصبت الموسيقى فى كل شىء . ثم لا تنس ما بالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب ، وهذا أيضا من جنس الموسيقى . وكأنما أركانها الثلاثة : الجحيم ومكان التطهير والجنة .. فى تواجهها الأركان الثلاثة لقصر مشيد ، وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آلة الروع والجلال والهيبة . هذا هو العالم الذى خلقه دانتى وملأه بالأرواح بين منعم ومعذب ـ هذا هو عالم الأرواح خلقه دانتى ؟ وهى أشد أشعار الدنيا إخلاصا ، فالإخلاص هنا أيضا مقياس الفضل . ولقد خرجت من لباب لبه فهى ما تزال تبلغ لباب ألبابنا .

أفرغت فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبة إلى كل نفس

وكان أهل فيرونا إذا بصروا به فى إحدى الطرقات قالوا . ها هو الرجل الذى كان فى جهنم ! بلى وخالق الخلق لقد كان فى جهنم .. فى جحيم الحزن والكربة والبلاء ، والقصص التى تخرج من القلوب مقدسة لا يكون مصدرها إلا الشقاء والبث واللوعة . أوَليس الفكر والعمل الحر أيا كان والفضيلة العليا .. أفليست كل هذه بنات الألم ؟ فكأنها نتجت من الزوبعة السوداء . أليست مجهودا صادقا كمجهود الأسير إذ يحاول خلاصه ؟ وما زال الألم مصفاة النفوس وراووق للطباع .

وقد هذبتك الحادثات وربما صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

بلى ليخيل إلى أن شعر دانتى قد سبك فى تنور روحه ، وبودقة قلبه . ألم يتركه « مهزولا » عدة سنين ؟ وأن الدقة لتعتور قصته جميعها لم تغادر منها فقرة ولا جملة ، فتراها لذلك أصدق ما يكون وأجلى وأنصع ، وتراها متجاوبة الأقسام ينزل كل جزء من أجزائها فى موقعه كأنه حجر المرمر أنعم نحته وأجيد صقله . وهل هى إلا روح دانتى تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيون من أبدع قوالب الشعر وأعجب . وتا لله ما هو بالعمل السهل وإنما أمر عظيم وخطب جلل ، ولكنه أمر نفذ وعمل أكمل .

ولعل الحدة هى مميزات دانتى ، فما هو بالرجل الواسع الصدر السمح النفس ولكنه رجل ضيق الطعن متحزب . وبعض هذا راجع إلى طبيعة العصر ، وبعضه إلى طبيعة الرجل . فترى أن ملكات دانتى وقواه الذهنية قد تجمعت وتكثفت حتى أصبحت حدة نارية ، وشعوراً عميقا فهو ينفذ فى جسم كل شىء حتى يرسب فى قرارته . ولست وا لله أعرف فى الوجود شيئا له مثل هذه الحدة . انظروا إلى تصويره الأشياء تروا أن له أقوى قوة بصرية ، فإذا نظر إلى الشىء عرف حقيقته فأداها وحده ، وتذكرون صفته لقاعة « دايت » بالجحيم إذ قال : « ذروة حمراء ! حديدة محماة جمرية التوقد مخروطية ، تتوهج فى ظلمة كثيفة طخياء » ما أنصع هذا الوصف وما أبينه وما أوضحه لأول وهلة ، ثم إلى الأبد : وهذا عنوان الرجل فإن فى دانتى لأخصر إيجاز واقتضاب فى دقة وإحكام ، وإنه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمى .. ثم وراء هذه سكوت أفصح وا لله من القول .

والشعر لمح تكفى إشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

ما أرشق تشبيهاته وما أدقها وما أحكمها ، حتى ليخيل إلىّ أنه يحز فى الشىء بقلم من نار ، فيقول عن المارد المنتفخ حينما ارعوى لزجر فرحيل : « إنه كالشراع المحطم عموده بغتة فهوى » ويذكر أحد المعذبين فيقول : « بوجه مشوى » ثم انظروا ما ذكره من (الثلج النارى) المتساقط على المعذبين (ثلج نارى بلا ريح بطىء مصمم دائب لا ينى ولا ينتهى) ولا أحسب هذا التصوير

إلا قطعة من صميم عقل الرجل ، وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطلياني الحاد السريع النارى الصامت الشديد القوى ، وحركاته الوشيكة المقتضبة وثوراته الساكتة العظيمة .

لأن التصوير وإن لم يكن من القوى الظاهرية السطحية ، ولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه ، أوجد رجلا يحسن الوصف تجد رجلا فاضلا ذا قيمة ، فإنه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن فى فؤاده حب يلقيه على ذاك الشيء فيكون سببا إلى التعمق فيه وإنعام النظر .. لو لم يكن ذا جد وإخلاص . والرجل العديم الفضل لا يستطيع أن يصف لك شيئا فإنه بضعفه ولؤمه لا يمكنه أن يتعدى الظواهر ، ولا يقف إلا عند الأكاذيب والأباطيل . أوَ لا يمكننا القول بأن آية الذهن هو قدرته على استبانة حقائق الأشياء ؟ ـ استبانتها بالامتزاج بها الناشئ عن محبتها والانجذاب نحوها . وكذلك الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا للولوع بها الذى كله إخلاص لها وصبابة إليها . وقديما كان الحب أول هاد إلى خبايا الحقائق . الحب الصادق الصاحى الراكز على أساس العقل والحكمة لا الكاذب الثمل الطائر بأجنحة الخديعة والطيش . لأن الحب الصادق يستدعى رقة الشعور وسداده ، والشعور الرقيق المسدد هو مقلة النفس المستجليه للغوامض المستبطنة للدخائل . ولن ترى الرجل البليد الإحساس الكليل إلا محجوبا عن أسرار الأمور لا يلابس منها سوى القشور . وهذا هو الواقع حتى فى المسائل العملية ، فالرجل الذكى الأريب هو ما أبصر من الأمر المراد إتيانه النقطة الجوهرية ، فأمسك بها وصفح عن كل ما عداها .

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلاء الناصع الذى كأنه وهج الحريق فى الليل البهيم ، هو كل ما يمتاز به وصف دانتى وتصويره ، بل تراه أيضا شريفا جليلا كيفما قلبته ومن أى ناحية أتيته ، ثمرة روح شريفة جليلة . انظروا إلى ما ورد بالقصة من حديث الغادة « فرانسسكا » وعاشقها ـ ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الأكباد تجدوه كأنه منسوج من ألوان قزح على رقعة من السواد الأبدى ، أو كأنه صوت ناى جم النواح مبحوح الأنين يناجى حبات القلوب

باديا فيه رقة الشكوى وذلة الولهى ورنة الثكلى . وأشجى ما فيه أن الحبيبين يلقيان عذاب الجحيم معا ، فحبذا ذاك الاجتماع سلوة فى الشقاء وعزاء فى الضراء . لقد كان الشاعر صديق والد « فرانسسكا » هذه ، وربما جلست تلك الفتاة على ركبة دانتى صبية بريئة من كل عيب حسناء سمحاء ، ولكنها إذا أذنبت فى حياتها أبى دانتى إلا عدل الجزاء فجعلها فى جحيمه بحيث تعلمون . ولكنه شفع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بحبيبها . يا لها رحمة فى قسوة ، وعفو فى شدة ، وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن إدراكها دانتى . وما أقبل رأى القائلين بأن كتاب دانتى لم يكن إلا هجاء فاحشا أراد أن يسىء به إلى من أعياه مؤاخذتهم والانتقام منهم . وأحسب لو أن رجلا حمل فى قلبه حنان الأم الرءوم ورأفتها فذاك هو دانتى . ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف الرحمة أيضا ، والذى تخاله منه رحمة هو فى الحقيقة جبن أو تصنع للرحمة قصد الافتخار . وما أعرف فى العالم رجلا أرحم من دانتى ولا أكثر حبا ، وإن بين جنبيه لحشا خفاقا ، ووجداً وإشفاقا ، وفؤاداً ملتاعا ، وولها ونزاعا ، كحنين النايات والعيدان لينا لينا ، أو كمهجة الطفل . ويشوب كل ذلك مرارة الحنق ووعورة البأس والعناد ! سخط على عمى الحظ وعثرة الجد وجور القضاء ولؤم الزمن ، وصبابة وحنين إلى حبيبته « بياتريس » ولقاءهما فى الجنة ، ونظره فى عينيها النجلاوين تشرفان بشعاع النور المقدس — وقربه منها .. من الغادة التى طهرتها حياض الفردوس وصفاء الأبدية . كل هذا شبيه عندى بأغانى الملائكة . ولعله أصفى ما نطق به امرؤ فى هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر .

وأرى هذا الرجل الحاد حادا فى كل شىء ، فلقد نفذ بحدته إلى كل جوهر ولب . وما عمق نظره فى التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل إلا ما يعتور جميع ملكاته من الحدة . وهو فوق كل ذلك كبيرا من حيث الصلاح والتقى وذاك أساسه وعنصره . فاحتقاره للدنيئة عظيم ، وأسفه على أولى البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده . وهل الأسف والاحتقار إلا حب قلب تحول عن جهته وأحيل عن طبيعته . ويقول فى كتابه عن الجناة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم

: « لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة إليهم ثم نضرب صفحا » . يا لـه احتقار في ترفع ونفرة في سكوت وأنفة فـي صمـت وإعـراض ثـم قولـه يذكـر فئة من المعذبين : « لقد انقطع أملهم حتى من الموت » ليخيل إلىّ أن دانتي يعرّض بنفسه في هذه الجملة ، فلقد أتى عليه حين من الدهر كـان قـد يئـس مـن الراحـة حتـى راحة الموت . ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفـؤاده المكلـوم شـعاع أمـل أنـه سيلقى بعد كل ذلك الجهد والمصـاب والكمـد راحـة القبر ، وأن القضـاء نفسـه لا يمكنه أن يحرمه « هذه النعمة » . مثل هذه الكلمات كانت في ذلك الرجـل ، وأراه في الحدة والشدة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظـير إلا فـي أنبيـاء بني إسرائيل . فإذا أردت مثل كلامه فانظر في التوراة العبرانية .

ولا أوافق قوما يفضلون الجحيـم فـي قصـة دانتـي علـى قسـميها الآخريـن ، ومرجع هذا التفضيل هو في ظني « بيرونيـة »[1] فـي الـذوق والمشـرب . ولعـل القسم الثاني « مكان التطهير » أبرع من الجحيم وأسمى . أجل ما أشـرف ذلـك الجبل — جبل التطهير — فهو رمز لأشرف أفكار هذا العصر .. رمز لبراءة الإنسان بالتوبة . وإذا كـانت الذنـوب مـن وخامـة العاقبـة كمـا تعلمـون ، والجحيـم مـن العذاب والألم كما تعهدون ، أليس جديراً أن يكـون فـي التوبـة منجـاة للمذنـب وبراءة ؟ والتوبة أجل أعمال النصرانية . ثم ما أبدع ما وصفها دانتـي وأبـرع ، إذ قال : إنه بعد خروجه من الجحيم أبصر على مدى العين بريق أمواه تترقرق ، ولمع أمواج تهتز وتخفق في بريق الصباح ولمع الضحى . فهذه صورة تدل علـى تحسـن الحال ، وهذا ولا شك فجر الأمل والرجاء قد لاح ، والأمل حي لا يموت وأشد ما يكون في الحزن ، كالشهاب أسطع ما يكون في فحمة الديجور .

كالكوكب الدرى أخلـص ضـوءه   حلك الدجـى حتى تألـق وانجلـى

وهناك جبل يقوم في سفحه ويصعد في أوعاره المذنبون التائبون وقمة الجبـل في عليين دونها باب الجنة . وماتني أنفاس هؤلاء التائبين المستغفرين تتصاعد إلى

---

(١) نسبة إلى بيرون — يراد طريقة بيرون وهي كراهة العالم .

عرش الله ويقولون لدانتى حين يرونه : استغفر لنا ربك . ولا يأتلون فى ذلك الجبل صعوداً وارتقاء ومشقة وعناء ، وقد أدنى الكلال خطاهم وأنضى الكد أبدانهم وأسنوا وشاخوا فى ذلك الصعود ولما بلغوا القمة . ولكنهم مواظبون وجادون حتى يبلغوها وعندها باب الفردوس ، وبرحمة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين . وكلما بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع ، وترنح الجبل طربا ووجف سروراً وهتفت الملائكة بنشيد مقدس ! فهذا فى نظرى تصوير لمعنى شريف .

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متوازرة ولا غنى لواحدة عن الأخريين وأرى « الفردوس » أحد أركانها موسيقيا صامتا وغناء ساكتا ، وهى المنكرة لسيئة الجحيم ، والجحيم لولاها ضرب من الباطل ، ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثله نصرانية القرون الوسطى ، وهو شيء جليل حر الجوهر طول الدهر . ولعله لم يتمثل فى نفس إنسان كما تمثل فى نفس دانتى ، إذ سطعت حقيقته فى ضميره ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحى فى الحجر . وما دانتى إلا نبى أرسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر . وما أغرب والله سهولة انتقاله وسرعة تخلصه فى مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية إلى العالم الخفى ، حتى لنجدنا بعد سبعة أبيات أو ثمانية وسط عالم الأرواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملموسة لا ريب فيها ! وكذلك كانت فى نظر دانتى ، وما كانت الحياة الدنيا عنده إلا سبيلا إلى حياة أخرى خير وأبقى . ولم تكن الدنيا فى نظر دانتى بأقل غرابة من الآخرة ، ولا الآخرة بأقل حقا من الدنيا . وإذا كانت الآخرة عنده هى عالم أرواح فالدنيا كذلك فى نظره عالم أرواح . أو ليس فى كل امرئ روح ؟ نعم لقد كان ذلك بينا له جليا ، ولقد كان يعتقده وينظره ، فهو من أجل ذلك شاعره ، والإخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر .

وجحيم دانتى وجنته ومظهرهما إنما هما فى الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته فى الكون . ولعل ناقداً يقوم فيقول لنا ما قصة دانتى إلا ألعوبة شعرية وضرب من

اللهو والعبث . كلا وا لله إنما هى أشرف وعاء ضمن روح النصرانيـة وهـى تمثـل بأجسم رموز التمثيل ما أحسه دانتي من أن الخير والشر هما قطبا هـذا الوجـود اللذان عليهما مدار كل شيء . وإن الخلاف بينهما ليس هو أن الخـير أفضـل مـن الشـر .. مذهـب المـاديين الذيـن يرجعـون فـى كـل أمـر إلى الحسـاب والـوزن والمكسب والخسارة ، بل إن الخير هـو الصـالح فقـط والفـرض والواجـب ، وأن الشر هو الخبيث المحرم إتيانه تحريما كليا لا مقارنة بينهمـا ولا قيـاس ولا تفضيـل ، فأحدهما للآخر كالحياة للمـوت ، كالجنـة للنـار . نعـم مـا شـعر دانتـي إلا رمـز لذلك ، ورمز للعدل السرمدى والتوبة والندم للنصرانية بأكملها كمـا كـانت فـى تلك القرون رمـز . ولكنها فى نظر دانتي ونظر تلك الأجيال عـين الحقيقـة التى لا ريب فيها ولا شك ولا نزاع ، التى يعتقدها الناس من صميم أفئدتهـم . ولقـد قلنا من قبل إن الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية و الأقاصيص المنظومة . ولا أحسب أن أهل عصرنا هذا يحسبون قصة دانتي مجرد قصة قصد بهـا الانتقـام ممن أساءوا إليه ومجرد عبث وصنعة ، فإذا رأى ذلك أهل العصور الآتيـة فشـد مـا يخطئون . وقد قلنا عن الوثنية إنها البيان الحق لما كان يجيـش فـى صـدر المتوحـش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه ـ بيان كان فى وقتـه حقـا صادقـا ، وليـس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا . ولكن انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية ـ فرقـا كبيراً لم تكن الوثنية إلا تمثيـلا لظواهـر الكـون وأفعـال الطبيعـة ، وحيـاة الإنسـان وطبائع الأشياء وتقلباتها ، وتصرفات شئونهما واختلاطهما فى هذه الدنيا . وأمـا النصرانية فتمثل قانون الواجب الإنسـانى ـ قـانون الأخـلاق والآداب . فكـانت إحداهما للطبيعة الحسية بيانا عاجزاً ساذجا لأفكار الإنسان الأولية ، إذ كان أهـم الفضائل هى الشجاعة ـ الاستعلاء على الخوف . و لم تكن الأخرى للعالم الحسى بل للعالم الأخلاقى ، فإن لم يكن من الفرق سوى ذلك فـأى فضـل بـين وارتقـاء عظيم .

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التى سبقت عصـر دانتـى صوتهـا فـى ذلك الشاعر الكبير ولسانهـا ، و« القصـة المقدسـة » من يـراع دانتى ولكنها فى

الحقيقة إملاء عشرة قرون نصرانية ، وإنما أتمها دانتى وأكملها . وتلك ما زالت الحال . وكذلك الحداد بآلاته وأدواته وصنعته وحذفه .. قل وا لله نصيبه هو فيما يأتيك به من بدائع صنعته . وإنما معظم الفضل لجميع من سلف من واضعى الصنعة ومبتدعى أساليبها وأبوابها ، وكلهم قد صنع معه ما صنع ، وتلك هى الحال فى كل أمر . فدانتى هو لسان القرون الوسطى ، ومن خلال سطوره يلذ آذاننا صوت أفكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم وأشهى الغناء . ويرن فى مسامعنا موسيقيا أبديا ما دعا لله داع وما ترنم فى الأيك مسجاع . وما أفكاره تلك السامية الجميلة الرائعة إلا ثمرة ما ذكر جميع الصالحين من قبله ، ولو أفضل وا لله أولئك ، وهل خلا هو من الفضل ؟ أما إنه لو لم ينطق لبقى الطيب الكثير من تلكم الأفكار كامنا مكتوما — لا أقول ميتا : بل حيا صامتا .

وعلى كل حال أليس هذا الغناء اللغزى هو غناء روح من أكبر الأرواح ، وتمثيل حقيقة من أكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتى شىء خلاف الوثنية الشمالية وخلاف النصرانية التى هدمها الإسلام بقرى الشام — وإنما هى أجل فكرة اعتقدها الناس انبرى لها ذلك الشاعر فغناها وألبسها ثوبا لا يبليه الدهر .

* أبقى على الزمن الباقى من الزمن : أليس خليقا بنا أن نفرح بذلك الكتاب ونغتبط ؟ وظنى به سيبقى الآلاف المؤلفة من السنين ، لأن فرقا عظيما بين ما خرج من أعمق أعماق النفس وما صدر من خوارج أجزائها . فالخارجى هو سحابة صيف ومسألة تولد مع الصبح وتموت مع المساء ، وتزول كالظلال بزوال الأهواء والأميال ، وما تزال تتلون وتتشكل بتلون الصروف وتشكل الأحوال . وأما الداخلى فإنه سواء اليوم وفى غد وآخر الأبد وما يزال ذوو النفوس الحرة والقلوب البارة فى كل زمان ومكان يجدون فى دانتى هذا أخا وصديقا وخلا شفيقا لما بين روحه وأرواحهم من النسب ، وبين قلبه وقلوبهم من الصلة والسبب .

أو لم يكن نسب هناك فملؤنا مـاء تحدر من غمام واحد

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعة من أصل واحد ، أصبح الألم الذى يقدح فى نفسه كذلك فى نفوسهم ، والأمل الذى يدب فى روحه يدب أيضا فى أرواحهم ، فقلبه وقلوبهم كالناى والعيدان إذا حن وهتف خفقت جوابا وأنّت وأعولت . وذلكم نابليون كان يرتاح فى منفاه بسانت هلينا إلى قصيد هوميروس ويسر جدا بما فيه من الحق والصدق . وبين القارئ والمقروء كما تعلمون عدد السنين ، وأقوال أنبياء الله الأقدمين ما تبرح تخالط نفوسنا لخروجها من نفوس قائليها ، وصدور الكلام من أعماق الروح هو سر خلوده الوحيد . ودانتى فى عمق الإخلاص كأحد هؤلاء الأنبياء ، وأقواله كأقوالهم خارجة من القلب . ولا عجب إذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلد شىء أخرجته أوربا لأنه ليس أخلد من كلمة الحق شىء . وكل ما بالقارة الأوربية من كنائس ومعابد ونحاس وحديد ومبان مشيدة وثيقة ، فمهما بلغت من المتانة والرسوخ فهى قصيرة العمر فى جانب غناء قلبى كهذا . وظنى أنه سيبقى حبيبا إلى القلوب شهيا إلى النفوس وقد زالت جميع هذه الأشياء عن أوضاعها ، وليست محدثة وتألفت فى تراكيب جديدة وانعدمت ذواتها وإن لم تنعدم مادتها . وإن ما صنعت أوروبا وما أتت لكثير جدا : مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع وطوائف ، آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قبيل آية دانتى إلا شيئا قليلا . وذلكم هوميروس حى للآن يخاطبكم وجها لوجه . ولكن أين دولة اليونان ؟ بادت من القرون العديدة ، وذهبت وزالت و لم يبق منها إلا كثبان أنقاض إن تسلها عن سالف مجدها لم تحر غير السكوت جوابا . حلم كان ومضى . دولة أصبحت فى الثرى . كأنها رفات أميرها أغا ممنون ! وكذلك قد كانت اليونان ، وهى اليوم لا تكون إلا ما نطقت .

وماذا نقول للقوم السائلين : « ما فوائد دانتى ؟! » إنه سؤال غريب لا يسعنا أمامه إلا الضحك والاستغراب . حسبنا القول بأن العقل الذى أمكنه أن ينغمس فى عنصر النغم والغناء ثم يغنى لنا من ثمت غناء حسنا ، جدير أن يكون قد أثر أكبر الأثر فى صميم الحياة وقلب الوجود . وإنه ما زال طول الدهر ينبوع

الغذاء لما فى النفوس من جذور كل خير ومكرمة ، يغذيها بطريقة لا يهتدى إلى قياسها ووزنها علماء الاقتصاد بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ما تسقط عنا من نفقات الشمع والبترول؟ والخلاصة إن دانتى أجل من أن تقدر قيمته.

وعلى العموم فما كانت الرجال وأعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم فى الدنيا ـ بما نراه نحن أنه تأثيرهم ـ تأثير ؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل ، ليصنع كل امرئ صنعه فما ثمرته إلا حسب عناية غيره وسيثمر ثمرته . وليس يهمنا أخرجت أعماله ترفل فى حلة الملك والدولة وترن من ضجيج الحروب وصدى الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التى هى جرائد مصفاة ، أم خرجت عارية من كل هذه ـ خفية صامتة ـ نعم ماذا يهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هى الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة إلا ما أحسن ، وإذا كانت أعمال الملك أو الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فإنها كالهباء ، وما ذلك الملك إلا أكذوبة وباطل وحرض هالك وسقط متاع مهما أحدثت أعماله فى الجو من الضجة والجلبة ، ومهما قلل من مضارب السيوف وأدار من أقداح الحتوف ، ومهما قبض من الآجال والأموال ، وملك من أعنة الرجال والأحوال . هذا الملك فى الحقيقة لم يكن . ألا فلتكبروا معى دولة السكوت وعالم الصمت ! حياهما الله من عالم ودولة ! لا يريان بالحس ولا يدركان باللمس . وهما مع ذلك أنفع من الصراخ وأجدى ، وخير من الضجة وأبقى .

* * *

وكما أن الله أرسل دانتى ليصور لنا فى أشجن الغناء والنغم ديانة القرون الوسطى أو حياتها الباطنة . فكذلك أرسل شاكسبير ليصور حياتها الظاهرة الخارجية كما كانت إذ ذاك ، وما بها من مظاهر الفروسية والنجدة والمروءة ، وشتى الأهواء والمشارب والمطامع والمطامح ، والأساليب الدنيوية للتفكير والعمل والرأى . وكما أنا نبصر فى هوميروس يونان القديمة ، فكذلك سيكون شاكسبير ودانتى بعد آلاف السنين المعرض الواضح لأوروبا الحديثة تتجلى فيه دينية

ودنيوية ، نعم لئن يك دانتى أدى إلينا العقيدة أو الروح فقد أعطانا شاكسبير العمل أو البدن . وكأن الله أبى إلا أن نعطى البدن أيضا فأعطاناه على لسان شاكسبير . وكذلك لما بلغت حياة القرون الوسطى ــ تلك الحياة الشريفة العالية ــ حد الكمال ، وآذنت بالاضمحلال السريع أو البطىء كما نراها الآن فى كل مكان ، أرسل شاكسبير بعينه البصيرة وصوته الرنان لينظر تلك الحياة وليتغنى بها غناء يبقى ما ترنم النسيم فى الشجر ، وغرد البلبل فى القمر . رجلان كفئان ــ دانتى عميق حاد فائر كأنه ما بجوف الأرض من النار ، وشاكسبير واسع هادئ بعيد مرمى البصر قصى مدى النظر ، كأنه الشمس نور الأرض الظاهرى . أحدهما ثمرة إيطاليا ، والثانى بحمد الله ثمرة بلادنا .

وعجيب والله كيف ساقت الصدفة إلينا ذلك الرجل ؟ وظنى أن شاكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة والكمال والاستغناء بالنفس بحيث إنه لو لم يخرج من قريته بسبب ما أتى من سرقة الغزلان ، لكان له فى عيشة القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ما عداهما . وكان قد عاش ومات ولم تفتح أغلاق خزائنه ، ولم تكشف أسرار دفائنه ، فحرم العالم أكبر شعرائه قاطبة . نعم لولا تشرده عن وطنه لذلك الحادث لاكتفى بالغابات والسموات والريف والعيش القروى . ولكن إن كان شاكسبير هذا قد جاءنا عفواً ، ألم يجئ ذلك العصر ــ عصر إليصابات ــ أيضا عفواً كأنما من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن وأحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحيى وتذبل وتنضر ، كالشجرة التى جعلها الوثنيون فى الشمال رمزاً للحياة الدنيا ــ ولكنها تذبل وتنضر وتلقى أوراقها وتورق بقوانين أزلية ونواميس أبدية ، لا تظهر عليها ورقة إلا بميقات : لا يظهر عليها بطل إلا بميقات . عجيب والله ما بين جميع الأشياء والكائنات من الأسباب والروابط ، فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق إلا وهى جزء متداخل فى نظام الكائنات أجمع ، مستحيل فصله عن سائر الأجزاء . وليست كلمة أو فعلة لرجل ما إلا ومنشؤها العالم أجمع . ولا بد أن تعود بالتأثير آجلا

أو عاجلا ظاهرا أو باطنا فى العالم أجمع . أجل ، هى شجرة « أجدرازيل » التى أصلها فى مملكة الموت وذرى فروعها فى الجنان !.

وعهد إليصابات هذا وشاكسبيره من بعض الوجوه ثمرة العصور السالفة — وينسب إلى كاثوليكية القرون الوسطى . وإنما نشأت هذه الحياة الظاهرية العملية التى تغنى بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التى سجع بها دانتى . لأن الدين كان إذ ذاك كما هو الآن وكما يكون فى كل آن روح العمل — كان الحقيقة الأولى الجوهرية فى حياة البشر . ومن العجب أن ظهور شاكسبير لم يكن إلا بعد أن نسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التى شاكسبير من ثمراتها — بقدر ما فى استطاعة تلك اللوائح أن تنسخ دينا وثيق العرى — ومع ذلك فقد ظهر شاكسبير برغم البرلمانات ولوائحها . لقد أرسلته الطبيعة حين شاءت و لم تبال باللوائح والبرلمانات . فإن للملوك والأميرات مذهبا وللطبيعة كذلك مذهبا . واللوائح البرلمانية حقيرة برغم ما تحدث من الجلجلة والدوى . إذ أى لائحة أو مناظرة كانت قادرة على إخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا الولائم بالقصور ، ولا افتتاح صحائف الاشتراك ، ولا بيع الأسهم ولا غير ذلك من الطنين الحق أو الباطل ! إنما جاد ذلك العصر الإليصاباتى بمجده وشرفه من غير ما طلائع ولا رواد ، ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد . وجاء معه شاكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر ، أداه إلينا الحظ فى سكوت ، فتناولناه فى سكوت . كأنما هو شىء صغير الشأن قليل الخطر ، وإنه فى الواقع النعمة لا تقدر ، والهبة لا يحد مقدارها ولا يحصر .

إن صفوة الأدباء فى جميع الأقطار الأوروبية ، وأعاظم الفحول من النقاد والكتاب والشعراء قد أوشكوا أن يجمعوا على أن شاكسبير سيد شعراء العالم على الإطلاق . والحق أقول : إنى لا أعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة والذهن القوى إذا تأملنا جميع صفاته فى أى إنسان آخر . تبارك والله تعالى عن الشبه ذلك العمق الساكن والنفس الجذلة الصافية تتراءى فى جوفها صور جميع الأشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق . وقد قيل إن فى تركيب روايات

شاكسبير ـ فضلا عن سائر الفضائل والمزايا ـ آية على فهم مماثل لما جاء فى كتب بالون « النظام الجديد » « نوفام أورجنام » وهذا حق ولا غرابة فيه ، وربما كان أبين إذا نظرنا إلى الحوادث التاريخية أو الجغرافية العارية الجافة التى أحدث منها شاكسبير رواياته البارعة الرائعة ، واجتهد أحدنا أن يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ما صنع ذلك الشاعر الأكبر ! حجارة وأخشاب وحديد متراكم بعضها فوق بعض فى أفسد اختلاط وتشويش شاد منها ذلك الرجل قصرا موثق الأركان ، مونق البنيان ، تتلي فى أصغر أجزائه آية الإحكام والصنعة ، حيثما ألقيت البصر لم تلق إلا إتقاناً وإحسانا ، فكأنما ظهر فى الدنيا وحده بقانون أبدى فى فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى . وما هو إلا أن ننظر إليه حتى ننسى الأنقاض المبعثرة والأخلاط المشوشة التى صاغ منها وصور ، وإن كمال تلك الصنعة التى كأنها صنعة الطبيعة نفسها لنخفى فضل الصانع وتغيبه . ولنا أن نصف شاكسبير فى ذلك بأنه أكمل من كل إنسان وفوق كل امرئ بطبقات ، فإنه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال ، والمواد التى يصوغ منها شعره ومقدار قوته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والأحوال ، وما نظرته فى ذلك بالسريعة القصيرة ، ولا غناء فى تلك ، وإنما نظرة طويلة جمة الشعاع غزيرة الضياء ينير إشراقها الموضوع كله ـ وعين ذات إبصار دائب دائم ـ ساج ساكن ، أو بالاختصار عقل كبير . وعسى أصح قياس لمقدار عقل الرجل هو أن تجعله يصف لك فى قصة أمرا جليلا كان أبصره ، فتنظر أى تمثيل وصورة يقدم لك ، وأى حادثة هى فى نظره أعظم وأجل فيبرزها ، وأى أمر أدنى وأقل فيخفيه ، وما هو أحسن ابتداء واستهلال ، وأعجب تخلص وانتقال ، وماذا أبرع تقسيم وتبويب ، وأبدع تنسيق وترتيب . وكيف يكون حسن الغاية ، وجودة النهاية ؟ فإذا حملت الرجل على إبداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد ، وكددت أسباب عقله منتهى الكد ، إذ لا بد له أن يفهم الشيء الذى يحاوله ، ويبصر الأمر الذى يزاوله ، وعلى قدر عمق النظر يكون فضل الجواب . أتراه يضع الكلام فى مواضعه ؟ ويجعل اللفظ إلى لفقه وقريبه ، والمعنى إلى شكله

ونسبيه ؟ وهل أرسل روح النظام فى تلك الأنقاض المبعثرة والأخلاط المشوشة فرد الفوضى نظاما ، والخلاف وئاماً ، وألف أعناق الشوارد ، وجمل شمل البدائد ! وهل أمكنه أن يقول للشيء كن فيكون ؟ هل أمكنه أن يقول ليكن ثمت ضياء يجول به عالم السديم نظاما ؟ أما إنه ليستطيع ذلك لو كان الضياء فى عقله والشعاع فى نفسه .

ومن أسباب عظمة شاكسبير أيضا براعة تصويره للأشخاص والأشياء ، لا سيما الأشخاص . نعم لشدة ما تنجلى عظمته فى ذلك وتستبين . ولا أحسب أن إنسانا يماثله فى تلك القوة المخترعة الهادئة . فإذا نظر إلى الشيء لم ينظر منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميم لبه . فكان ذلك المنظور يتحلل أمامه فى ذوب من الضياء فتنكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه . نحن نسمى ذلك إبداعا واختراعا وخلقا ـ خلقا شعريا وما هو ـ لو تأملت ـ إلا النظر الدقيق المستوعب للشيء المحيط بظاهره وباطنه ، ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعا . ثم أما ترون فى شاكسبير أيضا فضائل الحكمة والعظة ، والعبرة والشجاعة ، والمروءة والصراحة ، والحلم والعفو ، والسداد والصدق ، وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذللة العقبات ، الهازمة المشقات للخروج من كل قحمة عزاه ، وورطة نكراء . عظمة ويمين الله فى سعة السموات والأرضين ، وعقل يمثل لك الحقائق كما هى لا كما يحرفها الذهن المنحرف عن الجادة ويحورها الفكر المصدود عن القصد ، فكأنما والله عقل شاكسبير المرآة المستوية إذا كانت أذهان غيره من الكتاب والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . أعنى أن شاكسبير رجل يعدل فى النظر ويسوى فى الرأى بين جميع الأشياء والبشر ـــ رجل كريم عادل . براعة والله وقوة ، وجلال وعظمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع أصناف الرجال من هامليت إلى أوثيلو إلى فولستاف ، إلى روميو إلى كوريالاناس ، وتأديته إياهم فى أكمل خلقهم وصفاتهم ، والتسوية بينهم فى حبه ومعذرته ، وسعته إياهم جميعا بلطفه ورحمته ـ حبذا هو أخو البشر وشقيق الإنسان ، وما كان ذهن باكون ليقاس

بذهن ذلك الشاعر ، فإن الأول على كماله وعظمته من طينة أدنى من طينة الثانى ــ طينة أرضية مادية حقيرة بالقياس إلى ذهن الشاعر الأكبر ، وإنى لا أجد لشاكسبير فى التاريخ الحديث مثيلا قط ، وليس منذ أيامه حتى الآن من يذكرنيه إلا رجلا واحداً هو « جيتا » فإنه أيضا نظار إلى حقائق الأمور وجواهر الأشياء . ويمكنك أن تقول فيه ما قاله هو فى شاكسبير إذ قال : « أشخاص شاكسبير كالساعات الشفافة الوجوه ــ بينما تريك الساعة فى وجوهها، إذا هى أيضا تريك اللوالب والآلات فى ضمائرها المكشوفة وأحشائها ».

العين البصيرة ، هذه هى الكشافة لبواطن الأمور ، والكامن فى ألبابها من النظام والائتلاف ــ الكشافة لما أودعته الطبيعة أجواف الأشياء من الأغراض ــ من المعانى الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة . نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شىء مهما قبح ظاهره غرضا هو للعين البصيرة واضح بين ، أفهل هذه الأشياء خبيثة دنيئة ؟ إنك قد تضحك من تلك الأشياء وقد تبكى ، وقد تمد بينك وبينها الصلات والأسباب كيفما كانت ، أو على الأقل يمكنك أن تصد عنها وتنصرف ، وتعرض وتنحرف ، حتى يحين أن تقتلها وتمحوها . والعقل الكبير هو أول مواهب الشاعر ، فإذا أوتى ذلك فقد صار شاعرا ــ شاعراً بالقول فإن لم يؤاته ذلك فشاعرا بالفعل . وكونه يكتب أو لا يكتب ــ ثم يكتب شعراً أو نثرا هذا أمر ثانوى يتوقف على الصدف ــ ربما على أدنى الصدف ، ولكن القوة التى تمكنه من أن يبصر لباب الأشياء والمودع ضمائرها من النظام (لأن لكل كائن نظاما فى جوفه وائتلافا موسيقيا فى ضميره ، وإلا فما كان يتماسك ويكون) ما هى بنتيجة عادات ولا صدف ، ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا الرجل العظيم كيفما كان . ولذلك أول ما نقول للشاعر بل لكل إنسان هو ــ أنظر ! فإذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنا لك فى استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافى ، ولا حاجة هناك إلى ذلك الطنين والدوى وتسمية نفسك شاعراً ، وأولى لك أن تقطع من ذلك الأمل وتنفض يدك من هذه الأمنية ، فإذا شئت ، فإن لك فى غير الشعر مجالا ومندوحة ، فى التجارة مثلا أو الصناعة أو الزراعة ،

وحسبك ذلك . وأنت فاضل ما أجدت صنعتك وأحسنت عملك أيا كان ، بشرط أن يكون حلالا طيبا كريما ، ولا عار فى العمل المتقن ما لم يكن خبيثا ، والإتقان نتيجة العقل ، فالعقل هو أجل النعم كما فقده أشد المحن .

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحقيقة أن قيمة المرء بمقدار بصيرته . ولو سئلت أن أعرف بملكات شاكسبير فقلت إرباء عقله على كل عقل لكنت قد أدركت الغاية وبلغت النهاية . وما هى فى الحقيقة تلك الملكات التى نذكرها كأنها أشياء شتى ، كأن للمرء ذهنا وخيالا وإدراكا مثلما له يدان ورجلان وقدمان ، وهذه غلطة مبينة ، ثم نسمع أيضا أن للمرء « طبيعة ذهنية » و« طبيعة أخلاقية » كأن هذين شعبتان كل فى ناحية . أما إنه لا باعث على استعمال تلك الألفاظ المختلفة إلا ضرورة النطق ، وأرانا إذ كنا لا بد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال تلك الكلمات المتفرقة . ولكن لا ينبغى أن تتجمد الكلمات حتى تصير أشياء ، فإن ذلك هو السبب إلى خطئنا فى هذا الأمر وضلالنا . وإنما يجب علينا أن لا نزال نذكر أن هذه الأقسام ليست فى الحقيقة إلا أسماء ، وأن طبيعة المرء الروحانية ـ القوة الحية الكامنة فيه ـ هى شىء واحد لا ينقسم ولا يتشعب ، وأن ما نسميه خيالا وإدراكا وذهنا ومفكرة وبصيرة وغير ذلك ، إنما هى صور مختلفة لتلك القوة المبصرة ، وكلها شديد اتصال بعضها ببعض .. دليل بعضها على بعض ، حتى لو عرفنا أحدها لأمكننا أن نعرف الباقى . وما أخلاق المرء إلا ناحية من تلك القوة الحية التى بها يعمل وبها يكون . وكل أفعال المرء ـ لو تفقهون ـ دليل عليه ، حتى ليمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه فى الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه ، فإن جبنه أو إقدامه ليبدو لك فى خلال لفظه . وما كلمة الرجل أو رأيه بأقل نميما عن شجاعته أو خوره من ضربته أو طعنته ، وهو هو بعينه واحد يظهر للملأ نفسا واحدة فى صور شتى .

قد يعيش الرجل من غير يدين قائما على قدميه يسعى بهما فى الأرض ويضرب . ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق ، والرجل الذى لا خلاق

له المجرد من كل أثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرة ، لا يرى شيئا حق الرؤية ولا يعرف شيئا حق المعرفة . لأن المعرفة الصادقة لشيء ما تستوجب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه ، أعنى الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة . وإذا لم يكن من العدل بحيث لا يزال ينتصف لكل شيء من نفسه ، ويأخذ الحق منها لغيرها ، ويقمعها ويقذعها ويذلها ويقهرها ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل إلى الحق على ما فيه من عذاب ومضض ، فكيف يجد إلى العلم بالحقائق سبيلا ؟ وإنما الطبيعة وحقائقها للخبيث اللئيم الخسيس كتاب مختوم ، وما يعرف مثل هذا من الطبيعة إلا قشوراً وأباطيل وخبائث مما يستخدمه فى أغراض ساعته . وما مثله إلا كمثل الثعلب ، أوَ ما يعرف الثعلب شيئا من الطبيعة ؟ نعم يعرف أين توجد الأوز ! وكذلك الثعلب الآدمى وما أكثره فى كل زمن وبقعة ، أتراه يعرف إلا هذا أو مثل هذا ؟ كلا بل إن اشتمام الثعلب ريح الدجاج واهتداءه إليها ، فضيلة ثعلبية . ولو أنه أضاع أوقاته حزينا آسفا مطرقا يفكر فى نحسه وشقائه وظلم القضاء له ، وجور الدهر واشتغال الحظ عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ، ولو لم يكن عنده جرأة وإقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب الثعلبية ، لما أصاب دهره من الدجاج ولا ريشة .

فإذا قلت إذن إن شاكسبير أكبر الأذهان فقد قلت كل ما يقال عنه . على أن فى ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد هو ما أسميه ذهنا غير متعمد ، وفيه من الفضل أكثر مما يشعر به صاحبه . وقد قال نوفاليس : ما روايات شاكسبير إلا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها . وأرى ذلك صوابا وحقا . فما صناعته بصناعة إنما هى وحى يتدفق به طبعه عفواً ، ويهطل به خاطره سحا دراكا .

ويــدر درك للألى يبغونــه عفــواً بلا مســح ولا إبساس

شيء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهد ولا تعب ، يذوب كدمعة المحزون غير معتصر ، ويفيض لمنحة الجواد غير معتسر ، ويجيء كوداد المحب غير معتنف

ولا مقتسر ، ويسقط مـن تلقـاء نفسـه كـالطل فـى السـحر ، وغنـاء الحمـام فـى الشجر ، أو كشذا المسك يفوح وينتشر ، وسنا البدر يلوح ويشـتهر ، لا تكلـف ولا تعمل ، ولا تصنع ولا تمحل ، وإنما هو نبات ينبت من جوف الطبيعة فيخترق روح ذلك الرجــل ، أو صوت الطبيعة يخرج إلينا مــن فـم ذلـك الرجـل . أو أن شاكسبير ناى تتناولـه الطبيعـة فتـترنم فيـه بأشـجى نغماتهـا ، وتخـرج منـه أشـهى أصواتها . ولعل الأمم التى ستجىء بعد آلاف السنين ستجد فــى شاكسـبير هـذا معانى جديدة وبيانا لألغـاز حيـاتهم . وإنهـا لنعمـة الطبيعـة على الرجـل العظيـم الصـادق أن يجعلـه جزءا منهـا ، فمؤلفـات هـذا الرجـل مهمـا تعمـد أن يجيدهـا ويتقنها ، تخرج من مجاهل أعمـاق نفسـه عفـواً لا أثـر فيهـا للصنعة والتكلـف ـــ كالدوحة نابتة من الثرى ، وكالجبـال والأمـواه إذ تلبـس أشـكالا خاصـة منطبقـة على قوانين الطبيعة ، موافقة لسنة الحق أيا كان . ومع ما أخرج ذلك الرجـل مـن بدائع الآيات ، أرأيتموه يتسخط ويتشـكي ويتلهـف ويتشـهى ؟ أعهدتمـوه يتـألم ويتحسر ، ويتوجع ويتضجر ، أم كان خلواً مـن الألم والـبرح والكمـد والـترح ؟ كلا ولكنه ستار للشجو كتوم للمصيبة ، وكم خفى فى تلك السـريرة مـن الآلام والمحن فلم يظهر إلا ثمارهـا مـن بـارع الكلـم ، وروائـع الحكـم ، كأنهـا الجـذور ، وكأنها الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المسـتورة الأثـر ! عظيـم والله الكلام ولكن الصمت أعظم .

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجذلة الفرحة هى مـن جلائـل الصفـات . ولا أنعى على دانتى كآبته وشقوته فإنها حرب بلا ظفر ، ولكنها حـرب صادقـة وهى أهم المسائل وأخطر الأمور . وأرى شاكسبير يعد أعظم من دانتى من حيث إنه جــاهد فظفـر . ولا يخـالجكم الشـك فـى أنـه قـد كـان لـه حظـه مـن الهمـوم والأحزان ، وقسطه من القروح والأشجان ، وأغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن ، وتجرع من مرارة المحن ، وغامس من حومة الخطب ، وكـافح مـن غمـرة الكرب . يكدح فى بحر الشقاء ويضـرب ، ويطفـو بـه ذلـك العبـاب ويرسـب ، حتى بلغ شاطئ الأمن ونجاه الله من الحين . وقد أفال الـرأى مـن زعـم أن عيش

شاكسبير كان خلواً من الأسى ، صفواً من القذى ، لم يرد منه إلا عذبا زلالا ، وفراتا سلسالا ، وأن شاكسبير لم يك إلا بلبلا بروضة الصفاء أفنى عمره سجعا وتثويبا ، وبلغ أجله شدواً وتطريبا ، سعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادئ البلبال ، شأن البلابل والقمارى اللواتى هن :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دائرات الدهر كيف تدور

كلا وأبيكم ما كان امرؤ قط هكذا ، وأنى لرجل أن ينتقل من سرقة الغزلان إلى كتابة مبكيات كمبكيات شاكسبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن ولبس الشجى ؟ بل كيف يتأتى لرجل أن يصور أمثال هامليت وكريالاناس وماكبيث وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة ، إلا وقد عرف قلبه الكبير الألم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج إن المبالغة عنده مقصورة على فن الفكاهة رهن بباب الضحك . وكثير فى روايات اللفظ الموجع والقول المقذع والكلم النافذ المحرق ، ولكنه عند حد ، وما كان قط ليغلو فى كراهة البشر ولكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر . وإذا نصب من أشخاصه واحداً للفكاهة هال على رأسه ما لا يحصى من فنون المزاح والمجون وألقاب السخرية ، وما زال ينقله من الأشكال المضحكة فيما يستقصى العجب ويستنفد الاستغراب . فكأنما يضحك بملء ضلوعه وقلبه ، ثم هو ضحك صالح لا يقصد به إلا السخرية من المساكين والبؤساء والضعفاء . ولن يكون الضحك من هؤلاء ضحكا وإنما هو سفالة ولؤم ، فإن الضحك الحر الكريم من شىء ما يستلزم حبك لهذا الشىء ، وليس الضحك الكريم بمعمعة النار تحت القدر ـ تقهقه النار والقدر تفور وتلتهب . وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الأغبياء والأدعياء . وهذا الضحك فى نظرى كبساط الشمس على ساحة البحر المحيط .

ولا مجال هنا للاسترسال فى وصف كل من روايات شاكسبير على حدة ، وإن كان لا يزال فى ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام . فلو أن كل قصة من قصصه أتيح لها شارح مثل « جيتا » لكان خيرا ، وسيكون ذلك يوما ما . وقد

سمى الفيلسوف الكبير الألمانى « سكليجل » رواية : هنرى الخامس وما شاكلها تاريخا جليلا وطنيا . وتذكرون ما قاله القائد « مارلبرا » من أنه لم يعرف من تاريخ بريطانيا إلا ما علمه من شاكسبير ، وقل فى كتبنا التاريخية لو تنظرون ما يوازى تلكم الروايات قيمة وفضلا . وما أبدع وصفه لحرب « اجنكورت » ونعته جيش الإنكليز المكدود المنهوك . وساعة التصاف إذ توشك الحرب أن تبتدئ ، تلك الساعة الجليلة التى يكمن فى أثنائها النحس والسعد ، ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر « معشر الرماة الذين صيغت أكفهم فى بريطانيا » ألا تجدون فى ذلك ريح الوطنية ؟ أما فى ذلك مكذبة للرامين شاكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة ؟ أما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض فى كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادئ برىء من كل أثر للجلبة والغلواء ، كأنما صوت نبضه رنين الحديد الصلب . وظنى أن فى صدر شاكسبير هذا جرأة ليث ، وفى يمينه بطشة قسور لو أشهدته صروف الدهر ساعة الوغى .

هذا هو فلاح قرية « ستراتفورد » الذى ارتفع إلى درجة مدير تمثيل ، فكفى بذلك ذل السؤال ، والذى رمقه اللورد سواذمبتون بعين رحمته ، والذى كان السير توماس — حفظه الله — يريد إرساله إلى السجن ! إنا لم نعده إلها كأودين إذ هو عائش وسطنا ، ولكنه رغما من ضعف إيمان الأزمان الحديثة بالأبطال ، فأى إجلال وإكبار لم يصبه شاكسبير هذا من أبناء اللسان الإنكليزى ؟ أى رجل ، بل أى مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فداء شاكسبير الذى هو أكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا ؟ — مفخرة نزهى بها على الأجانب ، وحلية يزدان بها صدر بريطانيا . انظروا ماذا يكون الجواب إذا خيرنا بين أن نترك شاكسبير أو بلاد الهند — أن نكون لم نمتلك قط شاكسبير أو لم نمتلك قط إمبراطورية الهند — أنا أعلم أن رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ، ولكنا نحن لنا الحق أيضاً فى أن نختار ما نراه أفضل ، فنقول سواء حكمنا الهند أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن شاكسبير ! ستذهب الهند يوما ما ولكن شاكسبير لا يذهب .

بل إن لشاكسبير فضلا عن مزية المجد والفخر . وتهذيب النفوس والأخلاق فائدة مادية عملية وهي أنه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطان في أنحاء المعمورة . وسيجيء يوم تظل جزيرتنا هذه لا تعي من أبناء بريطانيا إلا الجزء الأخس ، وسائرهم مبعثر في نواحي الكرة مبدد في جوانبها . وإذا كان ذلك فما الذى يقرب بين هذى النفوس المتدابرة ، ويؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة ، فيخضر بينهم الثرى ويتحلى ، ويشرق الجو بينهم ويتلألأ ، ويصبحون بفضله أمة واحدة ، ما ذاك الذى يكون قطباً تدور حوله مصالحهم وأوطارهم ، وكعبة تشرئب نحوها أعناقهم وأبصارهم ؟ وبماذا يقوم عمود صلاحهم في مستقره ونصابه ، ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ بماذا يكون ذاك ؟ أبالحكومة ولائحتها ، أم بالوزارة واقتراحاتها ، أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟ كلا ثم كلا ! بل بشاكسبير هذا ، فهو الملك الأكبر الحاكم على جميع طوائف الإنكليز في سائر الأنحاء والأرجاء .

المحاضـــرة الرابعـــة

البطـــل فى صـــورة قســـيس

لوثر .. البروتستانية .. نوكس .. البيوريتانية

سيكون كلامنا اليوم عن البطل في صـورة قسيس . والقسـيس فـى مذهبـى نوع من النبى ، إذ لا بد من أن يكون منطويا على نور الوحى . والقسـيس دليـل الناس فى مذاهب الدين وقائدهم فى مناهج العبادة ، والوصـل بينهـم وبـين السـر الخفى ، فهو وزيرهـم الروحـانى ، إذ النبـى أميرهـم الروحـانى ، والقساوسـة وزراؤه . وهـو « القسيس » العـارج بهـم إلى السـماء عـن طريـق الأرض ، الصاعد بهم إلى الجنان على درج الصالحات ومراقـى الطيبـات ومعـارج الخـيرات والحسنات . وهو أيضا فـى اعتقادنـا صـوت مـن العـوالم المسـتورة يـترجم للنـاس أسرارها بعبارة أقرب إلى الأذهان وأشبه بالدتيويات من عبـارة الأنبيـاء والرسـل : يترجم أسرار السموات ـ أو ما سماه جيتـا (السـر الجلـى) الـذى لا يكـاد يـراه إنسان ، فكلنا ـ إلا من اصطفاه الله ـ إزاءه كما قيل :

يا شاهدا يرنـو بعينـى غائب ومشاهـدا للأمر غير مشاهـد

هو نبى عار من روعة جـلال النبـى وهـول مهابتـه ، يشـرق لـه فـى نواحـى المعيشة اليومية سراج أقل وهجا من الشهاب النبوى ، وأسكن لألآء هذا ما يجـب أن يكون صفة القسيس الكامل . وكلنا يعلم أن الكمال نادر ، وأنه ينبغى الكثـير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية إلى الحقائق الواقعية . فأما أن يكـون قسيس مجرد مـن كـل هـذه الشـروط غـير محـاول أن يكـون كـل ما وصفت ، ولا متيمم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك ما نحن منه براء ولا شأن لنا معه .

* * *

كان لوثار ونوكس قسيسين حرفة ، وقد أديا الوظيفة فى أمانة وصدق . وأولى بنا مع ذلك أن نعدهما حسب صورتيهما التاريخية ، أعنى مصلحين . وربما وجد فى أيام السلم من القسوس من يساوون لوثار ونوكس فى حسن القيام بشئون الوظيفة وصدق النهوض بأعبائها – يستنزلون هدى الله على عبيده ، ويحدون بركب الفناء فى سبيل الحياة الهادئة المطمئنة . ولكن إذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبيل وأوعثت ، وقامت فيها القحم والمقات ، والموارط والهلكات ، ودجت الخطوب وأظلمت الفتن ، وأزمت الكروب وتشنعت المحن ، فليس القسيس الذى يسير بنا فى هذه الطريق سيرة النوتى فى البحر ذى الصخور والحجارة :

تجافى بها النوتى حتى كأنما يسير من الإشفاق فى جبل وعر

ليس الذى يساور بنا تلك القحم ويواثب ، ويزاحم بنا هذه العوائق ويغالب ، إلا أكبر من غيره – ولا سيما فى نظرنا نحن – وأخطر . فهو القسيس المجاهد المقاتل لم يكن طريقه بالذلول الركوب ، ولا جرت سفينته على يم ساكت مطمئن تحت ريح رخاء سهوة إلى مرسى الهدوء والسكينة ولكنه نزل بأناسه سوح « ساحات » القتال فى زمن فتوق ثائرة ، وخطوب طائرة ، وحروب دائرة ، وصروف جائرة ، وأمور بائرة ، ونفوس حائرة ، فسنعد هذين الرجلين أكبر قساوستنا من حيث إنهما أكبر مصلحينا . أو ليس كل مصلح صادق قسيسا قبل كل شىء بطبيعته ؟ وكيف وإنه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين ، وجور الجائرين ، ويعلم أن بطش الله فوق كل بطش وأن :

يد الله كانت فوق أيديكم التى أرادت بنا ما فى الظنون الكواذب

أليس هو المؤمن بالأسرار المقدسة – كاهنا يهتك ببصره الشبهات عن حقائقها – أعنى قسيسا . وإذا لم يكن قسيسا قبل كل شىء ، فلن تراه من الإصلاح والمصلحين فى شىء .

وكما رأينا أعاظم الرجال فى مراكزهم المختلفة يبنون الأديان – الأساليب الشريفة للحياة الدنيوية – العقائد الحيوية الجديدة بأن يتغنى بها أمثال دانتى ،

والأفعال الخليقة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير ــ نرى أيضا عكس ذلك : أعنى هدم هاتيك الأديان . وهو أيضا من الضرورات ، وحرى أن يكون من أعمال الأبطال ومفاخرها العظماء . وعجيب أن يكون ذلك ضروريا ولكنه فى الحقيقة ضرورى . حتى ترى نور الشاعر ــ ذلك النور اللين الغض يخلى مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض ، الطائرة الشعاع . ولا بد للكون من المصلح وليس يخلو التاريخ منه قط ، ولولا المصلحان القديس « ومينا كيس » والرجل الشديد الباس ، الصعب المراس « ثيباد أريماتس » ما ترنم دانتى ولولا ما سبق شاكسبير من أعمال الأمم ومساعى العالم من « أودين » إلى معاصره « والتر رالى » ما نطق شاكسبير . بل إن الشاعر الكامل لدليل على أن عصره قد بلغ حد الكمال ، وأنه قد أوشك أن ينتهى ويجيء عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة ، فلا بد إذن من أن يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة .

ولا شك أنه قد كان خيراً لنا وأجمل ، لو أمكننا أن نفلت من تلك الفتن والثورات ، ونتحامى هذه القلاقل والاضطرابات ، ونسير أبدا السير اللين الرفيق على أنغام الشعراء ، يروضنا شجى غنائهم ، وطرب حدائهم ، كما كان يفعل « أورفيس »

أورفيس استدنى القطا الحذرات حيث استفز الراسيات بلحنه
خضع الرقاب نواكس الهامات ودعا الوحوش النافرات فأقبلت

وكان خيراً لنا إذ لم يؤاتنا غناء الشعراء ، لو أنا سرنا فى طريق السكينة والأمن يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم ، يصلحون من أحوالنا يوما فيوما . لقد كان حسبنا والله ذلك ، ولكن أبت سنة الطبيعة إلا أموراً أخرى . إذ ما برحت تقوم العقبات وتعترض العائقات فى طريق الحياة الدينية ، بل يصبح الأمر الصالح الذى كان يعد من أسباب الرقى عقبة وعائقا وقيداً لا مناص من خلعه وإطراحه ، وفى ذلك ما فيه من الجهد الجهيد والمشقة . وعجيب والله كيف ترى الخطة الدينية ، والنظرية الروحانية ، التى كانت بالأمس تشمل العالم طراً ، وتسمع الأمم جميعا ، ويرضى بها تمام الرضى ذهن

ثاقب دقيق كذهن دانتى ، تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر ، وموضع تكذيب وإنكار ، وسخر وإصغار .. شبيهة عندهم بنظرية « أودين » . كان دانتى يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التى صورها فى قصته ، وتلك الأودية والجبال . ولكن لوثر لم ير ذلك ولا صوبه ، فكيف كان ذلك ؟ ولَمَ لم تبق على مدى الأيام كاثوليكية دانتى ، حتى تذهب ويعقبها بروتستانية لوثر ؟ اللهم لا شيء يبقى !

أنا لا أحفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنية كما يتكلم فيها علماء هذا العصر ، فإن كلامهم فى ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخبط مضطرب مشوش ، ولكنى أقول على الرغم من ذلك إن ارتقاء النوع حقيقة لا شك فيها وبرهانها باد فى طبيعة الأشياء ، وذلك أن كل إنسان فضلا عن أنه متعلم ، فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذى وهبه الله ما صنع السلف . وبنفس هذا العقل يكتشف أموراً جديدة ويبدع ويبتكر ، وليس إنسان قط يخلو من ملكة الإبداع والاختراع ، ولا رجل قط يعتقد ما كان يعتقده جده حذوك القذة بالقذة ، بل يفسح بالاكتشاف مجال نظره فى الكون ، ويبعد مدى رأيه فى الخلائق . والكون تعلمون عديم النهاية ، وما كان لرأى قط مهما انفسح أن يستوفيه ويستقصيه ، ويشتمل عليه ويحتويه . أقول كل امرئ يزيد رأيه فى الكون على رأى جده ، إذ يخطئ بعض ما كان يراه ذلك الجد ويراه غير منطبق على حقيقة حديثة الاكتشاف ، هذا تاريخ كل فرد ، وهو يظهر فى مجرى التاريخ العام مضاعفا أعظم تضعيف حتى يبدو فى هيئة الانقلابات الكبيرة ، والثورات الخطيرة . ولقد كان دانتى يحسب أن فى نصف الدنيا الآخر جبلا فى المحيط يطهر الله فيه أرواح المذنبين قبل إدخالها الجنة ، وهو ما وصفه فى قصته وسماه جبل التطهير . هكذا كان دانتى يعتقد . فلما ذهب كرستفور كولمباس إلى ذاك النصف الآخر من الدنيا لم يجد فى بحاره ذاك الجبل الذى كان دانتى يعتقد وجوده هنالك ! أفترى الناس بعد ذلك يصدقون قول دانتى ؟ كلا ، وهذا حال سائر المعتقدات فى هذا العالم ، وحال ما ينشأ عنها من النظامات الدينية والدنيوية .

فإذا أضفنا إلى ذلك الأمر المحزن ، وهو إنه إذا مرضت القلوب ووهنت العقائد ونخر الشك فى عظام اليقين ، فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ، ونجمت هنا وهنالك الأغلاط والمظالم والمصائب ، ومدت الفتنة أسبابها ، وأخذت الثورة أهبتها ، وشمرت جلبابها ، وما زال من البديهى أنه لا يصدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده . فإذا ضعف اعتقاد الإنسان فلم يكن له من عقيدته ما هو باعث على الأعمال ، بل أصبح يجرى فى جميع أمره على مذهب العرب السائد ، وسنة العادة المتبعة ، مخضعا رأيه لرأى الدنيا ، جاعلا إرادته رديفا لإرادة العالم ، وفكره جنيبا لفكر الملأ ، فما هو والله إذ ذاك إلا عبد وأسير وبالخطأ فيما يسند إليه خليق وجدير ، وهو أحد سواق الفتنة ، وحداة الثورة ، يضرب عجزها ويأخذ بناصيتها إلى اليوم الموعود ، والأجل المحدود . وما من عمل يأتيه من غير صدق ولا إخلاص ناظرا إلى ظاهره الكاذب فقط ، إلا وهو إثم جديد يلد لبعض الناس جديد مصاب ومستطرف بلية ، ثم تتراكم الآثام حتى تنفجر عن الثورة انفجار البركان . وهكذا لما أصبح الناس لا يؤمنون بكاثوليكية دانتى من حيث معانيها ، ولا يقدسونها ، لما أفسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من مبانيها ، أتيح لشملها من لوثر ممزق ، ولنظامها مبد ومفرق ، وقضى ربك على العيشة الإقطاعية ، تلك العيشة المونقة البهجة التى أبدع صفتها شاكسبير أن يكون ختامها الثورة الفرنسوية ، وإنما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة كانفجار البركان ، ثم لا تستقر الأمور إلا بعد مدد طويلة من الاضطراب والقلق .

وإنه لمن البلية أن نظرنا من ذلك الأمر على جهة واحدة ، فلا نبصر فى آراء البشر ونظاماتهم إلا أنها مشتبهة ملتبسة ، وقتية رهينة بالفناء والموت ، والحقيقة غير ذلك ، إذ نجد أن الفناء هنا إنما هو فناء الثوب لا الجوهر ، والموت موت الجسم لا الروح ، . وكل إتلاف بسلاح الثورة إنما هو خلق جديد على نظام أبدع ، ونطاق أوسع ، فكانت الوثنية الأودينية شجاعة وبسالة ، وجاءت النصرانية خشوعا وضراعة ، وما الخشوع إلا ضرب من الشجاعة أشرف

وأكرم . وما من رأى جال فى صدر الإنسان جولة جد وإخلاص عن عقيدة صدق وإيمان إلا وكان فى وقته نظرة صادقة من الإنسان فى صميم الحق ، فيها عنصر صدق ما يزال على تجدد الأحوال جديداً ، فهو ذخر لنا باق على كر الجديدين ، وتعاقب الخافقين . ثم أليس من الجور والسخف أن نرى أن جميع من خلق الله من الأمم فى جميع الأزمان والأمكنة ، مخطئ ضال إلا نحن ؟ وأنه ليس فى خلق الله غابراً وحاضراً من بات على هدى من ربه إلا نحن ، وأن جميع الأمم والشعوب ضلوا وخابوا لكى تصيب وتفلح نحن — الفئة الضئيلة القليلة ، وأن جميع تلك الأمم إنما ساروا منذ بدء الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية ، لم يك زحفهم نحو الخندق إلا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسدوه بأجسامهم الميتة ، فيكون لنا ثمة من جثثهم جسر نعبر عليه إلى المدينة المحاصرة فتأخذها ! وهذا وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل .

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون أنهم سائرون على جثث جميع من سلف من القرون إلى أمد النصر والظفر ، ولكن ماذا عسى أن يقال إذا هم وقعوا كذلك فى الخندق وصاروا أجساداً ميتة ؟ وكذلك أرى فى قطرة الإنسان أنه ما برح يحسب فكره إمام الأفكار ، ورأيه خاتمة الآراء ، ويمضى على هذه العقيدة . ولو أنصف لأبصر أن جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن حضر ، إنما هم جنود جيش واحد أدرجوا فى سلك الكتيبة تحت قيادة الله ليقاتلوا عدوا واحدا أعنى به عالم الظلمات والباطل ، ففيم التناكر والتجاهل والاشتغال عن جهاد العدو المشترك بقتالنا بعضنا بعضا لمجرد اختلاف فى اللباس والزى ؟ ألا كل الأزياء حسن ما زرت عراه على ذى مروءة ونجدة ، ومرحبا بالسلاح كله على اختلاف نوعه وشكله ، من العمامة العربية واليمانى المرهف إلى معول « ثور » يضرب به الجان والمردة ، وما زمجرة لوثر فى حومة الحرب ، وألحان دانتى من اليراع والقصب ، إلا عون لنا لا علينا ، وكلنا نحب ذاك القائد وذاك اللواء !

« وبعد » فلنلق نظرة فى جهاد لوثر هذا لنعلم أى ضرب من الجهاد هو ، وكيف كان فيه بلاؤه ؟ ولوثر لا تنسوه كان من أبطالنا الروحانيين ــ نبيا لأمته وزمنه .

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لا تكون إلا فى مستقرها وموضعها . لقد كان من أهم خواص محمد « عليه السلام » ومما امتاز به الأنبياء عامة شدة الإنكار للوثنية ، وهو أكبر مسائل الرسل ، وعبادة الأوثان الميتة كإله هو ما لا يسكتون عنه أبداً ولا يطيقونه ، بل لا يزالون يشددون النكير عليه ويسمونه بألدغ مياسم القذع والقذف ، وهو عندهم أس الذنوب ورأس الكبائر . وهذا جدير بالتأمل ، وكلمة « أيدول » أصلها « أيدولون » ومعناها الشىء المنظور ، أعنى العلامة أى الرمز . فليس معناها إذن إلها بل رمزا للإله ، وجدير بنا أن نشك هل كان قط إنسان ــ مهما بلغ انحطاطه وعماه فى رأى ذلك الصنم ــ أكثر من أنه رمز ؟ أنا لا أظن أن مثل ذاك الإنسان كان يحسب أن الشىء الذى صنعه بيديه هو الإله ، بل كل ما يحسب هو أنه يمثل الإله ، وأن الإله كائن فيه بشكل ما . وإذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نسأل : أليست كل عبادة أيا كانت هى عبادة بالرموز أو بالأشياء المنظورة ؟ وسواء تمثل الإله للعين الخارجية فى صورة متطورة ، أو للعين الداخلية أعنى الذهن أو للخيال ، فإنما هو فرق سطحى لا جوهرى . إذ لا تزال تبقى هذه الحقيقة وهى أن هناك شيئا ينظر ــ بالعين أو بالذهن ــ دليلا على الإله . وليس يخلو أورع الناسكين وأولع المتصوفين من الممثلات الذهنية للمسائل المقدسة وبها يعبد الله . ولولاها ما وجد إلى العبادة سبيلا : وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية على هذا الحد أشياء متطورة ، ولا تسير العبادة قط إلا بالرموز ــ بالأوثان وعلى ذلك نقول إن كل دين وثنية ، وإنما بعضها أشد وثنية والبعض أقل .

أين إذاً شرها ؟ أما إنه لا بد من أن تكون منطوية على شر كبير ، وإلا فما كانت ملاقية من إنكار الأنبياء والرسل أشده وأبلغه . أجل لماذا نرى الوثنية

بغيضة كل ذلك البغض إلى الأنبياء ممقوتة لديهم ؟ ولا أحسب أن أكبر ما أسخط نبيا على الوثنية وملأ صدره غيظا وحنقا ليس هو بالضبط ما كان يخطر بباله فى ذلك الصدد ويصرح به للغير ، فإن أحط وثنى من عباد الكواكب أو الأصنام كان كما رأينا ، خيراً من الحصان الذى لم يعبد شيئا ! بل لقد كان فى عمله الحقير هذا نوع من الفضل الخالد ، شبيه بما يحمد فى الشعراء ، أعنى إيناس الجمال الإلهى والمعنى الكبير فى النجوم وسائر الكائنات الطبيعية على الإطلاق ، فلماذا يا ترى ينقم عليه النبى كل هذه النقمة ؟ إن أحقر وثنى عاكف على صنمه ليس إذا امتلأ صدره إيمانا بهذا الصنم ، إلا جديرا بالرحمة لا بالإبغاض وإن كان بعد أهلا للاحتقار والمقت والاجتناب إن شئت ليمتلئ باعتقادها قلبه وليستنير بها وعاء ذهنه الضيق المظلم ، أو بالاختصار ليؤمن بصنمه الإيمان كله يكن فى ذلك خير له ، أو بعبارة أخرى ما هو حاضر فى ذاك الوقت من الخير وممكن ، ثم دعه وشأنه آمنا فى سربه ماضيا على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بآفتها الكبرى ، وهى أن الإيمان بها يكون قد تطرق إليه الفساد أزمان النبوة ، ويكون الكثير من الناس قد أدركوا بعض ما أدركه النبى من أن هذا الوثن إنما هو قطعة من الخشب . وينكر النبى هذه الوثنية ، والوثنية المنكرة هى الخالية من الإخلاص والصدق لما أكلت الشكوك قلبها ونخبت الشبهات لبها ، فبينا يتشبث بها الوثنى إذ يخيل إليه أنه يتشبث بطيف الخيال وأشباح الظلال . وهذا لعمرى من شر البلية وأسوأ المحنة ، ولقد قال كولريج : « إنكم لا تعتقدون وإنما تعتقدون أنكم تعتقدون » . وذلك هو الفصل الأخير من رواية الأديان والعقائد ، وآية دنو الموت واقتراب الهلاك ، وهو شبيه بما نسميه اليوم اتباع التقاليد وتقديس العادات . وليس فى طاقة الإنسان أن يأتى جناية أفظع ، وموبقة أشنع ، ولا إثما أفجر ـ وجرما أنكر ـ وما هى إلا رقدة العقل وشلل النفس ، وضياع الإخلاص والصدق ، فلا عجب إذن أن ينكر الحر ذلك ويمقته ويبرأ إلى الله منه .

ولا أجد لوثر فى أمر الأصنام وتكسيرها إلا كأى نبى من الأنبياء ، وما كان بغض محمد « عليه السلام » لآلهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع بأكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية . وإنه لشأن البطل أيا كان وفى كل زمان ومكان أن يرجع إلى الحقيقة ويعتمد على الأشياء لا على ظواهر الأشياء . وبقدر حبه لحقائق الأشياء وإجلاله إياها إجلالا ناطقا يصدح به صوت الشعر ويسجح ، أو إجلالا مفعما يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان ، يكون مقته وكرهه لظواهر الأشياء مهما صقل التمويه من أطرافها ، وهدب التزويق من حواشيها ، ومهما أيدتها قريش أو عززتها قساوسة الكاثوليكية . والبروتستانتية عمل جليل جدير بفاعله أن يسمى نبيا ، وهى فى نظرى نبوة القرن السادس عشر ، وأول ضربة فى مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب والوثنية ، وهى تمهيد لجديد صالح مستقبل سيكون حقا ويكون مقدسا !

يظن الذى لا يدقق النظر أن من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الأبطال ، وجعلها أساس الخير الدينى والدنيوى ترك الثقة بزعماء الدين ، وعدم الإيمان بهم . وطالما نسمع أن البروتستانتية أوقدت عصراً جديداً شديد الخلاف لجميع ما سبقه من العصور ، « عصر الرأى الشخصى » كما يسمونه ، وإذ كانت البروتستانتية ثورانا ضد البابا ، أصبح كل فرد بابا لنفسه ، وعلم فيما علم أن من أول واجباته عدم الثقة بأى بابا أو إمام دينى ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون أوَ لم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامه دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ أنا لا أنكر أن البروتستانتية لم تك إلا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطريق وما إليهما ، كما لا أنكر أن البيوريتانية الإنكليزية التى كانت ثورة ضد الملوك والأمراء إنما هى الفصل الثانى من الرواية التى أول فصولها البروتستانتية ، وأن الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسوية الهائلة التى كان من شأنها فيما يرى ويظن أنها نسخت جميع الزعامات الدنيوية والدينية — الأرضية والسماوية — أو جعلت أمر نسخها قضاء لا بد من تنفيذه . والبروتستانتية هى

الجزر الذى عنه تفرع تاريخ أوربا الحديث وتشعب ، لأن الروحانيات ما برحت تتقمص فى العمليات والروحانى مبدأ العملى . وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « يا للمساواة » « يا للإخاء » « يا للحرية والاستقلال » : وأصبحنا ولدينا بدل الملوك أوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب . وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتا طاعة الإنسان للإنسان فى الدنيويات والدينيات . ولو أن الحقيقة كذلك لتناهى يأسى من الدنيا وأريقت صبابة رجائى ، ولكن أرسخ عقائدى أن الأمر ليس كذلك ، ولولا الحكام أخيار الحكام ـ الدنيويون والدينيون لأصبح أمر الناس فوضى ، وشر الأمور الفوضى . ولكنى أرى البروتستانتية رغما مما أحدثت من الديمقراطية الفوضوية منشأ ملوكية حرة صادقة ، ومنشأ نظام وصلاح وإحكام ، وأراها ثورة ضد أشرار الملوك وأكاذيبهم ، وأراها الخطوة الأولى إلى إقامة أحرار الملوك بيننا وصلاحهم ، وهذا يحتاج إلى قليل من الشرح .

ولنذكر أولا أن أمر « الرأى الشخصى » فى العبادة لم يك بالأمر الجديد فى العالم ، ولكنه كان فى تلك المدة جديدا ، نعم ليس فى البروتستانتية شيء جديد فى جنسه ، وإنما هى رجعة إلى الحق والجوهر بعد الإقامة على الباطل والظاهر الكاذب بشأن كل رقى وتعليم صالح . ولا أحسب إلا أن حرية الرأى الشخصى ما برحت فى الناس من قديم الأزل لم يخل منها جيل من الأجيال . وما أظن أن دانتى كان قد عمد إلى عينيه فقلعهما ، ولا إلى حركات ذهنه فغلها وقيدها ، ولقد كان فى كاثوليكيته تلك حراً طليقا ، وإن أصبح قوم فى أغلالها من بعده مكبلين ، وفى أصفادها موثقين ، حرية الرأى ؟ ماذا أسمع ؟ كلا والله ما كان قط فى قدرة السلاسل والأغلال ، ولا أى قوة بشرية ترغم إنسانا على الإيمان بهذا الأمر أو الكفر بذاك . وإنما رأيه فى ذلك سراجه الدائم الاشتعال الذى لا يخبو إلا مع أفول كوكب حياته ، وبه يستنير ويهتدى بفضل الله وحده . إن أشقى الضالين الذى يأمر باعتقاد الأعمى والطاعة المهينة ، لا بد من أن يكون قد أقنع نفسه أولا بأنه لا حق لها فى طلب الإقناع . نعم و« رأيه الشخصى » هو الذى أشار عليه بذلك كأصوب ما يؤتى . فمثل هذا الرجل حر الرأى فى

ضلاله ، ولكنه حر الرأى ، وهو فوق ذلك مخلص ، وما دام فى قلب المرء إخلاص . فالرأى الشخصى جاره فى ذلك القلب وحليفه ، والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع ما هو مطوى عليه من النور والهدى ، بينما ترى الرجل الكاذب الذى يحاول جهده أن « يعتقد أنه يعتقد » يسلك طريقا آخر ، فللأول تقول البروتستانتية « خيرا صنعت ! » وتقول للآخر « ويل لك ! » فما هو كما ترون بالقول الجديد ولا الخطة العذراء ، وإنما كما قلت عودة إلى جميع ما قيل من أقوال القدماء « كن حراً صادقا كن مخلصاً » لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه ، وكذلك كان أودين وكذلك جميع المسلمين والنصارى وصادقى الوثنيين ، لقد رأى كل فريق منهم مذهبه الذى تبعه (برأيه الشخصى) .

وإنى لأقول ولا حرج إن الاستمرار على إعمال الرأى الشخصى لا ينتهى قط بالاستبداد الأنانى والتفرق والتقاطع ، بل ينتهى بعكس ذلك بطبيعة الحال . وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ، ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الإيمان . وما ثورة المرء ضد الباطل إلا ميل منه إلى ناحية الحق وجنوح إلى اللحاق بزمرة أهل الصلاح والتقى ، فأما أهل المظاهر الكاذبة فمحال أن يكون بينهم صلة أو رابطة ، وكيف وفى جوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شىء وإلى آمر بالحقائق لا بالأباطيل ، وإذا أقفر القلب من العاطفة على الأشياء ، أفترجو أن يكون منه على إخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا إنه لا يأتلف بالناس — إنه رجل فوضوى ، والوحدة — أيدكم الله — والجامعة لا تكون إلا بين إخوان الصدق وأولى الإخلاص .

أما من حيث قولهم إن كل إنسان يعبد الله « برأيه الشخصى » فإن معظم الناس ليس لهم آراء شخصية ، وإنما الرأى هبة الله يهبها لأعاظم الرجال . ثم لا بأس على غير العظماء أن يعتقدوا رأى العظيم ويستشعروه حتى لكأنهم مبتكرونه وقانصو شريدته ، ومخترعونه ونابشو دفينته ، وحسب المرء من الابتكار والاختراع ، والاكتشاف والابتداع ، أن يصح إيقانه ويصدق إيمانه . فإذا كان

ذلك ، فما ضره إن لم يكن من الرأى بمنزلة كشف خبيئته وفاض لطيمته ، ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص . بل إن له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ما هو فاهم للرأى الذى يعتقده ويستنبطه . فإن فهمك لرأى عظيم من العظماء ضرب من الشركة مع ذلك العظيم فى إحداثه ، وكذلك لكل امرئ أن يكون متى شاء مخلصاً صادقا ، أعنى مبتكراً بمعنى ما . بل لقد أوجد الله أمما وشعوباً كل أفرادها مؤمن صادق ، تلك أمم الحق وشعوب الإيمان ، وقرون الصدق والصلاح ، وأعصر البر والفلاح ، أعصر مباركة وافرة الثمرات، كثيرة الخيرات ، جمة المبرات ، إذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل . فكل شجرة عمل يانعة الثمر ، وكل لقحة صنع غزيرة الدر ، وحاصل الجميع جم وافر ، بما كان كل فرد يضرب إلى ناحية واحدة ، ويؤم غرضا بذاته وأمداً بعينه ، هذه أعصر الربح لا الخسران ، وأزمن المزيد لا النقصان .

ولد لوثر ببلدة أيزليبن بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا لعشر خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ ، وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى ما لبس النهار حلة الشمس ، وتاج مجد يدوم ما كلل البدر هامة الليل . وكانت أمه وأبوه وهو صانع فقير فى بعض معادن البقعة المسماة « موهيرا » قد ذهبا إلى سوق إيزليبن الشتوى ، فأخذ السيدة المخاض فى حومة السوق وغماره ، فعادت بدار حقيرة وولدت غلاما سمى مارتين لوثر ، عجيب والله ذلك لو تدبرتمونه . لقد ذهبت هذه المرأة « فراو لوثر » وبعلها إلى ذاك السوق لتقضى حاجا من البيع والشراء ــ علة لتبيع ثمة ما كانت نسجت من ثياب الصوف ، ولتشترى ذخيرة الشتاء لدارها الحقيرة ، ولعل فى ذاك اليوم لم يك فى طول الأرض وعرضها اثنان هما أصغر شأنا وأخمل ذكراً وأقل خطراً من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الأرض وسلاطين العالم وباباته وبطارقته فى جانب ذينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل ، وشب لله شهاب وقاد سوف يمتد على مئات القرون المقتبلة شعاعه ، فى ذلك اليوم ولد بطل أبطال سكان الأرض

ارتقابه ، وخوله التاريخ احتفاءه وترحابه . عجيب والله وغريب وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقدم عصراً ، وأسمى منزلة وأرفع قدرا ، وقع منذ ألف وثمانمائة عام ، وهو حادث الصمت إزاءه أولى من الكلام ، وما عساه يقال فى مثل ذلك المقام ؟ ويزعم الناس بعد لوثر ومولده أن الأرض قد صفرت من المعجزات ، وانفضت من الآيات. كلا وأسماء الله إنما العالم غريق فى الإعجاز ، والمعجزة من نبات ذياكم الثرى .

وأرى أنه كان ملائما جدا لوظيفة لوثر فى هذا العالم ، وحكمة من الله بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيرا وربى فقيرا كأفقر عباده ، وكان أيام تلمذته يشحذ القوت متسولا بالغناء من دار إلى دار . وكان البؤس رفيقه ، والكرب شقيقه ، والشقاء أبدا بجاهره وجها لوجه ، والدنيا تكاشفه الكره والعداوة لا تخادعه قط بزخارف الباطل والكذب وبوارق الأمل الخلب ، وهكذا شب لوثر بين حقائق الأشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة ، غلاما خشن الهيئة ضعيف المنة فى جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء ، وشعور شب فى ملتطم أمواج البلاء. ومصطدم أواذى الشقاء . ولكن ذلك خير مدراس له تعلم فيه سنة الحق وألف صحبة الحقائق ، وهذا واجبه فى الحياة أن يعرف الحقيقة ، ثم يرجع إليها العالم الضال بما قد طال فى الباطل لجاجه ، واشتد بالزور والكذب لهاجه ، غلام نشأ فى مهد العواصف ، وربى فى حجر القر والزمهرير، وغذته مرضعات الهم والنكد، وغازلته بنات البأساء والكمد ، فخرج من أحشاء وطنه خروج « ثور »[١] من ضمير إسكانديفيا ، وكيف وإنه ما انفك يضرب فى شياطين الإفك والزور ، وأبالسة المنكر والفجور ، كما كان يفعل « ثور » بالجان والمردة ، حتى هزم كتائب الكذب والمحال ، وكشف جنود البدع والضلال .

ولعل الأمر الذى كان عليه متحول مجرى حياته هو موت صديقه «ألكسيس» بالصاعقة ، لقد كان لوثر أظهر فى زمن طفولته وصباه أشد الميل

---

(١) إله الرعد عند الأمم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره .

للدرس والمذاكرة رغما من كارثات الفقر ، ورجا أبـواه أن يكـون لـه فـى الرقى قسـمة فأركباه طريق الدراسـة القضائيـة ، لأنهـا الطريـق إذ ذاك إلى النهضـة والصعود ، فرضى لوثر بذلك رضى ككره ، واساغه مساغ الشجى وأغضى منه على القذى .

فلما كان فى التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « ألكسيس » ليزورا أبويه فى بلدة « مانسفيلد » ثارت زوبعة ورمت بالصاعقة فأصابت صديقه ، فإذا هو تحت قدميه ميت ، فناجاه مناجى العبرة من أعماق نفسه « تبا لهذه الدنيا وقبحا لهـذى الدار ، ويابؤس للحياة ويا رحمتا للإنسان ! ما هذه الحياة ؟ أتزول فى لفتة الجيد ولمح البصر . وتذهب كالقرطاس طوته ألسنة النيران فتضيع فى مجاهل الأبد ؟ ماذا الدنيا وماذا الدول والممالك والسلاطين والقياصرة ؟ كلهم فى التراب ! بينما هم رافلون ، على الأرائك متكئون . تفغر الأرض فاها فإذا هم فى بطنها ثاوون ، وبالعفر والرغام مكحولون ، والمدر والحجارة موسدون ؟ بلى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، عزم من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طـول عمـره ، وأصبح قسيس كنيسة القديس ، ثـم أن لوثر أوجاستين ببلـدة « أرفورت » برغم أبيه والكثيرين من معارفه .

ولعل هذا أول شعاع برق فى تاريخ الرجل ولكنه شعاع وسط ظلمات ، وقد حدث نفسه أنه كان فى تلك المدة قسيسا صالحا يجد ويجتهد ليؤدى وظيفته ويدرك السعادة . ولكن عبثا حاول فما خف مصابه ولا قلت شقوته ، ولكن تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد ، وما أشقاه لا من كد فى عمله ولا نصب ، ولا من مهانة العمل وذله أتاه البلاء ، وإنما لسقوط نفسه إذ ذاك فى أسحق مهاوى الشك والخوف ـ الشك فى أنه على الهدى والخوف من عذاب الله فى الآخرة ، وقام بخاطره أنه قد دنا أجله ، وشر من ذلك أنه قد دنا عذابه الأبدى . أليس فى ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعته وإخلاصه ؟ لعله جعل يقول فى نفسه «من أنت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذى ما

عرفت إلا الشقـاء والهوان ؟ كلا ذلك مقام دونه الشمس » ولم يكد يفهم كيف أن فى الصوم والتهجد وتكاليف الدين والكنيسة منجاة للمرء من النار ، فمن ثم هوت نفسه فى أعتم ظلمات البؤس ، وجعل كأنما يرنح به على شفا جرف هار .

وكان عثوره على نسخة قديمة من الإنجيل فى مكتبة أرفورت حسنة أكبر من حسنات الزمن ، ولم يك قط قبلها أبصر الإنجيل فلقنه درسا خلاف درس الصيام والتهجد ، وأعانه على ذلك أخ فى الله قسيس ، فعلم لوثر أن المنقذ للإنسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل الآيات ، وإنما هو الله ومرحمته ، وذلك أقرب إلى العقل وأوقع فى الجنان . فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، وأنشب من مغفرة الله فى أرسى طود وهضبة ، ولا بدع أن جعل يقدس الإنجيل الذى أسدى إليه تلك المنة ، فأجله كما يجل مثله كلام الخالق ، وعزم على ألا يحيد عنه أصبعا . وقد كان منه ذلك حتى لقى ربه .

فكان ذلك خلاصه من أسر الشكوك والريب ، ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع ، وانتقاله من الضلال إلى الهدى ، فازدادت نفسه من يوم إلى آخر غبطة وصفاء ، وراحة ورخاء ، وكانت النتيجة الطبيعية أنه أظهر للملأ ما كان مكتتما قبل فى زوايا صدره من المواهب الإلهية ، والصفات العلية ، فأعظمه الرؤساء وبوءوه من الدرج ما هو أهله ، ووكلوا به أمر البعث ، فكلما آب من رحلة كلفوه أخرى ، ثقة منهم فيه بالحزم والصدق ، ثم اختاره أمير المقاطعة « فريدريك الملقب بالعاقل » ، وكان عاقلا عادلا أستاذاً فى جامعة « وتنبرج » فأحسن أداء ذلك العمل كما أحسن البلاء فى جميع ما نيط به من الأمور ، وجعل من يوم إلى آخر يعلو فى أنظار الناس ويتغلغل فى نفوسهم .

وكان فى السابعة والعشرين من عمره أن رأى مدينة روما لأول مرة وكان أتاها برسالة من ديره ، ولا إخال إلا أن لوثر عجب لما أبصر من حال البابا « يولوس الثانى » وسائر أحوال روما إذ ذاك ، وكان ظنه أنه قد أتى المدينة المقدسة عرش ولى الله فى الأرض وإمام الناس وهاديهم سواء السبيل ، فإذا هو

بين فسق وفجور ، وغفلة وغرور ، وويل وثبور ، وبين إثم ووزر ، وبلاء وشر ، وباطل ومنكر ، وما أحسب إلا أن هذه الحالة السيئة قد بعثت خاطره فى أودية الفكر وشعاب الظن ولكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه إلى لسانه ، ولا أسلمها وجدانه إلى بيانه ، لقد علم أنه لا يبصر أمامه هدى ولا حقاً ، ولكن ماله ولذاك ؟ وأنى لرجل ضعيف مثله أن يصلح عالما ويقلب دنيا ، حقا إن لمثل هذا العمل لإنساناً غيره أعظم قدراً . وأكبر خطرا . وحسب لوثر أن يوفقه الله إلى هداه ، ويسدد إلى خطة الحق خطاه . وبحسبه أن يقوم بواجبه فى خفية وغموض ، فأما العالم فعالم الله يفعل به ما يشاء و لله فى خلقه شؤون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضالة وشأنها وعاد إلى بلاده ، نعم تركها وشأنها و لم يتعرض لها إلا بعد أن تعرضت له ، ينقض عليها ويسطو بها حتى هاجته واستثارته ، ومن أكبر فضل الله أنها هاجته واستثارته واستدعته بذلك إلى شن الغارة عليها والإيقاع بها ، إذ ماذا كانت الحال تكون وإلى أى شيء كانت تصير الأمور ، لو لم يثر لوثر ثورة الأسد المخدر فى وجه ذلك المذهب الباطل فيرد عرامه ، ويفل غربه ، ويكف منه عن العالم شراً مستطيراً كان يؤذن بالويل العظيم ، والخطب الجسيم ، والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الأمر لو قد استمرت تلك البابوية تضرب فى سنن غوايتها ، وتمعن فى طريق عمايتها ، من غير أن تعترض لوثر فى سبيله ، وتصادفه فى منهاجه فتضطره إلى الحملة عليها ؟ إنما الواضح لى أنه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه ببنت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها ، وإنما يجعل الأمر فى ذلك لله شيمة الرجل المتخشع المتواضع الذى لا يرى من شأنه أن يستطيل بالتسفيه على ذوى الأمر من غير أن يكون ثمة موجب أو علة ، بل يرى كما قلت أن حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير أن ينصح لنفسه ويبغى بها جادة الحق ومنهج السداد ، ولكن البابوية لم يكفها ما أتت فى سائر الجهات والأمصار من التضليل والتغرير ، حتى هجمت على لوثر فى قريته الحقيرة فسامته خطة الخسف والضيم فأبى ، وآية الرجل الشريف أنه إذا سيم الخسف قال لا بملء فيه . وبيان ذلك أن البابا « ليو » العاشر احتاج إلى المال

وكان مبذراً متلافا ، فابتغاه من وجه حرام وطريق ممقوت ، إذ جعل يبيع الناس عفو الله ، وعفو الله لا يحتاج إلى شفاعة بابا ولا بطريق ، وما هو بالسلعة تباع فى السوق بالذهب والورق ، وإنما هى بضاعة لا ثمن لها إلا الإخلاص الصريح ، والتوبة النصوح ، ودمع المذنب يقرع وجنتيه ، وسنه يضرس سبابتيه . فإن كان لا بد من شفيع فالسيد المسيح ومحكم التنزيل ، وآيات التوراة والإنجيل ، ولكن البابا رأى الجهل فاشيا فى الناس فأرسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك الأوراق المدلسة المرزولة ، وكان يسميها أوراق الغفران . ومع كل راهب صندوق فيقول للناس « من كان له فى الجحيم صاحب أو قريب فأحب أن يغفر الله له وينقله إلى الجنة ، فلينبذ فى هذا الصندوق قرشا ، فإنه لا يكاد يصل حتى يطير الروح المعذب من مثواه فى النار إلى أنضر مقامات الجنة » .

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه «تنزل» على بضعة فراسخ من بلدة «وتنبرج» حيث كان لوثر ، فأصغى إليه كثير من العامة لسذاجتهم ، وبلغ من شره أن بعض القوم نبذ طاعة لوثر فى كثير من أوامره اتكالا منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود ، فقدح ذلك فى أحشاء لوثر ، ورأى أنه قد آن له أن يثور فى وجه البابوية الكاذبة ، ولم يخش الراهب « تنزل » بل قال « إن يشأ ربى وربكم فلأصدعن مروته ، ولأنحتن أثلته » .

ثم كتب رسالة أبطل فيها عمل البابا وطعن فى خطته ، وأرسل صورة منها إلى بطريق مدينة « ماجدبرج » شيخ النصرانية بألمانيا ، وعلق صورة ممضاة باسمه بباب كنيسة « وتنبرج » فهب هذا النبأ مهب الريح فى كل وجهة ، وطار فى أنحاء العالم الأوربى مطير البرق .

وأدبر الراهب « تنزل » فنزل بلدة فرانكفوت الواقعة على ضفة نهر «أودار». فكتب ردوداً على أقوال لوثر ونشرها ، فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فأحرقوها ببلدة « وتنبرج »،. وسمع البابا بذلك فقال متهكما : « لا إخال أن لوثر هذا من نوابغ العالم » واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها زعماء البابوية وأنصارها ، وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ، ويحمى به وبهم وطيس

الجدال فيدمغ بالحق باطلهم ، ويدفع باليقين شبهاتهم . وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفد صبر البابا ، وذهب عنه ما أبقاه التجلد من رمق الاحتمال والمطاولة ، فنشر لائحة كفر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقة ، وأمر بكتاباته أن تحرق ، وبه أن يرسل مكبلا فى الأغلال إلى روما لعله ليحرق أيضا فيلقى من الجزاء ما لقى القسيس « هاس » من قبله ، ونعم المناظرة النار ما أخصر وما أسرع ، وما أقرب إلى الغاية وحسم النزاع ، يا للظلم ويا للفجور ! يستدعى البابا القسيس « هاس » ويعطيه عهد الله وميثاقه ألا يمسه بسوء ولا يناله بأذى ، ويحضر « هاس » رجلا لا مشاغباً شديد الخصومة ، ولا مشاكسا ألد الجدال . وإنما رجلا سهل الشكيمة لين العطف سلس العنان ، فيودعونه سجنا أضيق من بياض الميم ثلاث أذرع فى مثلها ، ثم يضرمون عليه ناراً فيقطعون بصوارم اللهب صوتا ما رفع إلا فى طاعة الله . لبئس والله ما يصنعون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

أنا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر فى قيامه الآن ضد البابا ، فإن ذلك البابا المترف الكافر والوثنى الأنيق الثوب السائغ الطعمة ، لما أوقد ناره لحريق مكتوبات لوثر أجج بها حنقا وسعر بها غيظا وحرداً فى أشجع فؤاد كان إذ ذاك فى العالم ـ أشجع فؤاد وأضرعه لله وأشده تواضعا . بلى لقد استعر ذلك الفؤاد وتأجج ولات حين إطفاء . وكأنى بلوثر يقول فى نفسه حينذاك « أتحرق يا هذا الرجل كتاباتى هذه وما أريد بها إلا الحق والهدى ، ولم يعمد بها إلى غير الله ، وتسمى نفسك بعد ذلك إمام الناس وخليفة المسيح فى الأرض ؟ أتجعل الجواب على هذه الأوراق إحراقها وما فيها إلا عظة لك وحكمة ، وتريد أن تحرق كاتبها ؟ أأنت خليفة الله فى أرضه ؟ كلا : أنت خليفة الشيطان ومثواك مثواه ، ودارك مغنى لإبليس وجنوده ، وعش لخفافيش العمى والجهالة ، وجحر لهوام السفه والضلالة ، وإنى لأشهد على لائحتك تلك التى أصدرتها نقمه على بالكذب والجور ، وليس لها لدى إلا النار ، ولنفعل بعد ذلك ما تشاء . « ثم إن لوثر جمع من شيعته وأنصاره مجمعاً ورفعوا ناراً فأحرقوا فيها لائحة البابا وأكثروا

عليها الهتاف والصياح بمرأى من مدينة « وتنبرج » ، بل بمرأى من العالم أجمع . لك الله أيها البابا : لبئسما صنعت إذ استثرت من صدور الناس تلك الصيحة . فإنها صيحة استيقاظ الأمم وانتباه العالم . لقد طالما أوغرت صدر ألمانيا حتى ضاق ذلك الصدر بما كظم ، وحتى طفح ذاك الإناء ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، ولقد طال بالناس حكم الضلال ، وتراخت مدة الباطل وشاخت فيهم دولة الزور والبهتان ، وقد آن للحق أن يميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر إلا من قبيل الأنبياء حاطمى الأصنام ، ومرجعى الناس إلى الحقيقة بعد طول الإقامة على الضلال . وتلك وظيفة العظماء عامة ؟ أو لم يقل محمد (عليه السلام) للناس إنما أصنامكم هذه خشب لا تضر ولا تنفع ؟ وهل كانت مقالة لوثر للبابا إذ يقول له (ما هذه الأوراق التى تسميها أوراق العفو إلا أكذوبة وأضلولة ، وما أنت والعفو عن الناس ؟ إنما ذلك بيد الله) إلا كمقالة محمد ؟ لله أنت يا لوثر أى كاشف غمة ، ومنقذ أمة ، وأى مرجم شياطين ، وسيف على رقاب الظالمين أنت ! وبأبى أنت إذ تقول ولا تبالى نيران البابا ولا جيوش السلطان : « إنما العفو بيد الله والأمر لله وحده ، وإنما البابوية وما يدعونه من تلك الرعاية الروحانية إفك وزور . وكيف وما أراها إلا أثوابا مرقوشة ، وأوراقا منقوشة، وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكون زعامة دينية ، ورعاية روحانية ، إنما هى حقيقة رائعة، وما دين الله وفردوسه وجحيمه بأباطيل كتلك ولا أكاذيب ، فبهذا وحده ، أومن وبه أعتصم ، وعليه أقوم ، وفيه أضرب أوتادى، وأرسى أطوادى ، وإنى إذ أفعل ذلك لأقوى منكم جميعا ، وعصمة الله أمنع للمؤمن من جميع ما تشيدونه من القلاع والمعاقل ، وبأس الله من بأسكم أشد ، وكيده من كيدكم أقوى ، وأنا وأنتم بنصر الله كما قيل :

كادوا وكدت فأزهقت ما دبروا   إحدى هناتك أيما إزهاق

أنا فى وحدتى بهدى الله قوى ، وأنتم فى جموعكم بالضلال والكذب ضعاف، أنا من طاعة الله مدجج فى أكمل سلاح وأحصن جنة ، وأنتم من معصية الله فى أسمال رثاث وأطمار رعابيل ، منكشفو العورات حاسرو المقاتل ،

وأنا من تقوى الله على صخرة أصلها تحت الثرى وفرعها فى السماء ، وأنتم فى باطلكم كالمتكئ على الهواء ، والمعتمد على الماء .

ثم جاء بعد ذلك حفلة « ورمز » وظهور لوثر هنالك . ولعل هذا كان أجل مشهد فى تاريخ أوربا ، والمنبع الذى منه فاض تاريخ المدنية الحديثة ، والذى كان من أمر هذه الحفلة أن إمبراطور ألمانيا شارل الخامس لما أعيته الحيل فى لوثر و لم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات ، وكان قد عقد الحفلة للنظر فى شئون الولايات ، استدعى لوثر ليعرف ما عنده ولينتهى معه عند حال ، وكان المجلس حافلا بجميع الوجوه والأشراف وأمراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك ، وإلى هذا الجمع الحاشد استدعى لوثر من قريته ليسأل ألا يزال مصراً على رأيه ؟ فيجيب نعم أو لا ، خصمان متواجهان ، وقرنان متبارزان ، أحدهما : قوة العالم وزهرة الدنيا وجيوش الأرض ، وثانيهما : رجل فرد نجل الصانع المسكين « هانز لوثر » قائماً فى نصرة الحق . وقد نصح إليه الإخوان ألا يذهب ، وذكروه بنبأ القسيس « هاس » ليكون فيه عبرة ومزدجر ، فأغلق دون كلامهم أذنيه ومضى على عزيمته فى الذهاب وصمم ، وقال (تا لله لأذهبن ولو أن بمدينة « ورمز » من الشياطين بقدر ما بها من الحصى) ، وجعل الناس يصيحون به من نوافذ الدور وشرفاتها وهو سائر الغداة إلى الحفلة ، أن أقم على مبدئك وتشبث برأيك ومذهبك ، وإياك والانخذال والهزيمة. وجعلوا يتمثلون له آية من الإنجيل فى ذلك المعنى ، ذلك ما طلبه إليه أهل وطنه ، وهل هو فى الحقيقة إلا طلب العالم أجمع ـ طلب العالم الذى جهدته أغلال الباطل ، وشفته ظلمات الضلال ، وأخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقى ـ طلب العالم يصيح بلوثر : أغثنا أدركنا يا بطل الأبطال ، فإن مدار أمرنا عليك ، وأرواحنا فى يديك .

و لم يخذلهم لوثر ولا خيب فيه آمالهم ، وقام فى المجلس خطيبا فتكلم ساعتين كلاما سداه الحكمة ولحمته الإخلاص والصدق ، أبان فيه أنه يذعن للحق وليس لغيره يذعن ، وأن كتاباته بعضها من إملاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله ، فأما ما كان من بنات خاطره فذلك ملىء بالعيب والخطأ بما أنه كلام بشر ،

وأما ما كان مأخوذاً من قول ا لله فأساسه الحق وليس يبرأ منه أبد الدهر . ثم سألهم أن يناضلوه بالحجة والدليل فإذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار إلى ما يحبون . إلى أن قال : « أنا لا أخالف ما يأمرني به العقل والنهى ، ويوحى إلى به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس . ذلك ما فى وسعى وطاقتى وليس لى عنه محيد ولا دونه مذهب ، وعلى ا لله أتوكل وهو حسبى ونعم الوكيل . ألا ترون أيها الإخوان أن هذه كانت أخطر ساعة فى التاريخ الحديث ، وأن عليها قامت دعائم الدستور الإنكليزى وبرلماناته ، والحرية الأمريكية واستقلالها ، والثورة الفرنسوية ونتائجها فى أنحاء الأرض ؟ نعم فى هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ، ولو سلك لوثر فى تلك الساعة خطة أخرى لكان لها عواقب أخرى ، وكأنما العالم الأوربى كان ساعتئذ ماثلا أمام لوثر يسأله هذا السؤال : أترى لا أزال فى محنة وبلاء يهوى بى النحس إلى مساقط الجهل والشقاء ؟ أم يرزقنى ا لله من ذلك الداء الشفاء ، ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء ، فأغتبط بمناعم الراحة والصفاء بعد مخابث العيشة الكدراء ؟

ومما يمدح به لوثر أنه أثار فى وجه الدين ثورته ، وأحدث ذلك الانقلاب العظيم من غير أن يهيج زوابع الفتنة أو يسعر نيران الهيجاء : بل حقن الدماء فى الأبدان ، والسيوف فى الأجفان ، ولم يحول اليراع حساما ، والقراطيس أعلاما ، ولا استبدل من صرير القلم فى الطروس ، سليل السيف فى الرءوس ، ولا من التناضل بالأقوال ، التناضل بالنبال ، ولا جعل الكلوم[1] موضع الكلام ، والجلاد بدل الجدال والخصام . وقلما نجد رجلا أحدث أمراً جللا وهاج حركة هائلة إلا غاله مما أحدث غائلات . والتهمة مما أثار محن جائحات ، وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق ، ومستدعيات كل خروج عن الأوضاع المألوفة ومروق . وإنما وفق لوثر إلى ذلك بفضل ما أوتيه من الحزم والبصيرة ، والحزم رأس بوارع الخصال ، وكرائم الخلال ، وداعية الصلاح ، وسائقة الفلاح .

---

(١) الكلوم جمع كلم وهو الجرح .

ومن أكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح ، وبها كان يميز الأمر الأساسى الجوهرى من غيره . فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب الجديد أنه يعظ الناس فى قلنسوته (وكانت هذه سنة المذهب الكاثوليكى ومخالفة لمبادئ الملة الجديدة) فلم يعبأ لوثر بتلك الشكوى بل قال : « وأى ضرر فى القلنسوة ؟ دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثاً إذا شاء » .

وقد ذكر « ريشتار » لوثر فقال : لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حربية ، وما أخطأ فى قوله ، ولعل أهم صفات لوثر هو أنه كان يستطيع أن يحارب فيقهر ، ويقاتل فينتصر ، وإنه كان قطعة من الشجاعة ، وفلذة من المروءة ، ولا نعلم قط فى التاريخ الحديث والغابر إنساناً أشجع قلباً من لوثر ، ولما قال فى مدينة « ورمز » كلمته المأثورة وهى : « ولو أن فى « ورمز » من الشياطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها » لم تك لمجرد الافتخار والتيه كما يكون فى مثل تلك المواطن ، ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين يعترضون عباد الله فى مسالكهم بالشر والأذى ، ومن يذهب إلى الغرفة التى كان يكتب فيها لوثر ترجمته للإنجيل ير على أحد حيطانها بقعة سوداء — إثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن ، وأصل ذلك أن لوثر كان جالساً فى تلك الغرفة يكتب ترجمة الإنجيل وكان قد نهكه الكد ، وأعياه الجهد ، وبلغ منه المرض والصوم ، وكان من أثر ذلك أن تراءى له شبح مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه إبليس أتاه ليقعده عن عمله ، فثار لوثر ثورة جبار ، وأخذ الدواة فرمى بها الخيال فإذا هو قد املس . وأثر الدواة فى الحائط باق إلى الآن آية دليلا على أمور شتى ، وأن فى قدرة أى تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ، ويحل لنا مشكلها ، ولكن اعتقاد لوثر أن الشبح القائم أمامه هو إبليس ، ثم نهضته فى وجه إبليس وقذفه إياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعة وأقصى غايات البأس والنجدة . ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم ، فهو أحرى ألا يهاب ملوك الأرض وجبابرتها ، وقد كتب مرة العبارة الآتية : « الشيطان يعلم أن عملى هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة ، فلقد طالما رأيت

الشياطين ونابذتها . والدوق جورج لا يعادل شيطاناً واحداً ، وأين هو من سطوة الشياطين ؟ فليعلم هذا الدوق أني لو شئت أن أدخل بلدة « ليبزيج » لدخلتها قسراً وعنوة وجست خلالها ، ولو أن سماءها تمطر أمثاله من الدوقات تسعة أيام ولاء) ، لك الله يا لوثر ! أى طوفان وسيل من الدوقات تريد أن تقتحم !.

وشد ما يخطئ الذين يحسبون أن شجاعة هذا الرجل كانت ضرباً من البطش والفتك ، وصنفا من العناء والعصيان والخشونة والعجرفية ، وما أبعدها عن ذلك . وأنا لا أنكر أن هناك ضربا من قلة الخوف مصدره قلة العطف أو قلة التفكير ، وربما كان منشؤه وجود البغضاء والحنق الأعمى ، كشجاعة النمر . وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ أما لوثر فكان غير ذلك بتة ، ولم أر تهمة أكذب من نسبة الفتك والقسوة إليه وكيف ؟ وما كان قلبه قط مجالا لغير الحب والرحمة شأن كل فؤاد ذى مروءة وبر ، والنمر إن صادف قرنا أشد منه بطشا فر هاربا ، فما هذه بشجاعة وإنما فتك وقسوة . ولست أعلم شيئا أرق وألطف مما كان يصدر عن فؤاد لوثر من أنفاس المودة والعطف . تلك التى كانت أرق من أنفاس العاشق فى الهجر ، وأنفاس النسيم فى السحر ، لله ما كان أرق هاتيك الأنفاس ، وأعنى بها كلمات الرجل ، وما كان أصفاها وأخلصها من شوائب الرياء والكلفة ، وأشبهها بالعذب الزلال تتفجر به الصخرة الملساء . وهل كانت كآبته وإطراقه ويأسه مدة صباه إلا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة مما يكون عادة فى القلوب الرقيقة ، والنفوس الجديدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهى حالة يصاب بها ذوو الرقة من الشعراء ، وقد أصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر ، بل لقد بلغ من رقة لوثر وتواضعه أنه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلا ضعيفا هيابة ، وعندى أن أكرم الشجاعة وأسماها ، بل أشدها وأقواها ، هى المنبعثة من فؤاد كله لين ورأفة .

وكم لنا فى كتاب لوثر المسمى « حديث المائدة » ذلك الذى جمعه أصحابه بعد وفاته من أقواله وكلماته من الآيات البينات الدالة على عظمة الرجل وفضله .

فمن ذلك ما أبداه عند وفاة حفيدة له من جلد فى رقة ، وصبر فى حرقة ، وقوله أنه استودع الصبية عند الله ، ولكنه لا يملك مع ذلك وجداً عليها قد أوقد لوعته ، وهاج غلته ، وكمداً والتياعا ، وحنينا ونزاعا . ثم جعل وهو مشدوه (مدهوش) حائر ، ينظر فى أعقاب روحها الصاعدة إلى الله قد غابت فى أثناء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت ، - ينظر دهشا حائراً وحسبكم ذلك دليلا على صدق الرجل وإخلاصه وعلمه . إنه رغما من اختلاف الملل وافتراق النحل فإنا معشر الآدميين لا نعلم شيئا ولن نعلم ، وكل ما يدرك إزاء حادث الموت الذى اخترم حفيدته هو أنها ستصبح عند الله ، وأن الله أرأف بها وأرحم ، وأن خير الأمور أن يسلم الأمر لله ، فالإسلام دينه ومذهبه .

ومن آيات عظمته أنه أطل من من نافذته مرة فى جوف الليل فقال فى نفسه : « عجبا لهذه القبة الزرقاء ، وهذا الفلك الدوار ، وهذا السحاب الركام ، يا لله ما أروع وما أجل ! على أى دعامة تقوم هذه السماء ؟ لا دعامة إلا قوة الله سبحانه رفع السموات بغير عمد ، وأمطر من السماء ماء فأخرج به نباتاً ، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » . ولما كان عائداً ذات يوم إلى داره أعجبه رواء مغارس القمح فقال : ما أبهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء كأنها حقاق الذهب على قضبان الزبرجد ، بركة تفطرت عنها أحشاء الأرض ونعمة سلتها يد الله من أغماد الثرى .

ومن آياته أيضاً : أبصر ذات مساء عصفوراً قد خيم فى وكره على شجرة بأحد البساتين ، فقال : عجبا لهذا العصفور ما راعه هول ما فوقه من هذى السموات أن يطمئن فى عشه آمن السرب ، ساكن القلب ، مفوضاً أمره للخالق الذى مهد له فى جنابه ووطأ له فى كنفه . هذا وما زالت شذور المزاح تفصل نظام حكمه ، وما برحت نكت الفكاهة تزين ديباجة كلمه ، وكذلك من كان قلبه أمين النواحى رقيق الحواشى ، غزير مادة الحنان والحب ، وقدما كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير ، وأمارة المروءة والبر . ثم أما ترون فى حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل هذه الأميال الكريمة ، ومجمع تفاريق هذه

النزعات العالية ؟ وكم من معنى لطيف يعبأ به البيان ، ووجدان شريف يعجز عن تأديته اللسان ، أداه إلينا لسان مزماره ، وباحت به مناطق أوتاره . وكان يقول إن الشياطين لتفر من نغماته ، وتفقد عند وجود ألحانه ونبراته . فلله أنت أيها البطل من جامع الضدين ، ومؤلف النقيضين ، بأس تسطو به على الجن وأبالستها ، ورقة جذبت بلبك نحو الأنغام ومطرباتها ، والألحان ومرقصاتها . إنهما والله قطبان لروحك العظيمة ، وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال ، ومضطرب لكل شريفة من الخلال .

وأرى فى وجه لوثر عنواناً على خلقه ، فهو وجه خشن الملامح تعرف فى نتوء عظامه ووعورة أركانه معانى البأس والقوة ، والنشاط والهمة ، وفى العينين حزن فى صبر ، ووجد فى سكينة ، وكآبة لا تكيف ، ورنة لا توصف ، وتلك أصل كل عاطفة رقيقة ، ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء الشرف والنبل ، وقد قلنا إن الضحك كان مغروسا فى طينة الرجل ، ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلا ، وكأن فيها ينابيع الدمع وبحاره ، وخلجه وأنهاره ، وكان أساس حياته الحزن والجهد والإخلاص والجد . ولقد قال فى أخريات عمره بعد مظافره وانتصاراته إنه قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة ، وأن له عند الله أمنية هى أن يريحه من متاعب الوجود ويقبضه إليه . ومن عابه بكلمته هذه وأعدها عليه فقد أخطأ ! وما أحسب إلا أن لوثر كان رجلا كبيراً — كبير القلب كبير العقل كبير النفس — رجل من خيرة رجالنا وصفوتهم ، ولا أراه إلا كالجبل الأشم ، أصم الصخور صلد الصفا ، وفى نقره وثغبانه الزلال العذب السلسال ، وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة ، وترف بهجة وغضارة ، إلى زهر وريحان ، وفاكهة ألوان . وقصارى القول إنه بطل ونبى ، ونتيج الطبيعة وسليل الحقيقة ، والجدير أن يحمد الله عليه هذه الأجيال ، ومن سوف يدرج على هذه الأرض من غابر الناس ويدب .

ثم إن مذهب لوثر تفرق شعبا فأكرم شعبه وأطيب فروعه ، ذلك الذى نبت فى إنكلترا أعنى الملة البيوريتانية . فأما فى جرمانيا ذاتها فإن البروتستانتية ،

أخذت تضمحل حتى تحولت عن منزلة الأديان إلى مواطن الجدل والمخاصمة ، وزالت عن القلب إلى اللسان ، وعن العقيدة إلى الحجة والبرهان ، بل ما زال بها الاضمحلال حتى صارت فولتيرية ، وانتهت إلى تلك المباحثات الجلية التى كانت أيام الثورة الفرنسوية ، أما فى بلادنا « بريطانيا » فقد أخذت البروتستانتية صورة أخرى هى البيوريتانية ، ثم غولى بالبيوريتانية حتى صارت الملة المسماة (البريزباتيريانية) وهى الكنيسة القومية لأهالى اسكوتلاندة ، وهى ملة حق صريحة ، وعقيدة محضة صادقة مغرسها القلب ، وثمارها جمة فى أنحاء العالم البريطانى ، وحقيق بنا أن نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الإمام « نوكس » ذلك الشجاع النبيل ، وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها البروتستانتية فى إنكلترا ، ومنها نشأت البريزباتيريانية ـ مذهب القسيس نوكس .

فى عام ١٩٢٥ رحل القسيس الإنكليزى وليم تيندال إلى بلدة لوثر « وتنبرج » منجذبا إليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه . وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقى ناقما على الكاثوليكية ، فرحب بمذهب لوثر أى ترحيب . وكان قبل رحلته إلى جرمانيا بطويل قال لأحد القسوس الجدليين : (إن يطل الله مدتى لأتركن راعى الغنم وهو أعلم بكتاب الله منك) ، ولما ذهب إلى بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى الرجال ، قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحدب وجلهم من الطلبة ، فقد أخلصوا لله وتفانوا فى حبه فلم يكن لحالهم تلك مثيل إلا حالة الصليبيين ، ولا لبلدة لوثر شبيها إلا مدينة بيت المقدس ، وكانوا إذا دنوا من البلدة هتفوا بحمد الله وصاحوا غبطة وسروراً ، وهنالك ترجم تيندال الإنجيل وأرسل ستة آلاف نسخة منه إلى إنكلترا . ولم يك هذا الكتاب قاصراً على ترجمة الإنجيل بل كان بما ضمن من أقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية ، فقابلته الكنيسة الإنكليزية بأشد المقت والإنكار ، وأمرت بعدد كبير من نسخه أن تحرق فأحرقت فى مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزى . ولكن ذلك لم يمنع أرباب المذهب الجديد من تهريب العدد الوفير من تلك النسخ ، ومن الرسائل المهيجة التى كان يكتبها لوثر وأنصاره إلى الأقطار

الإنكليزية ونشرها بين طبقات الفقراء من العمال والصناع والباعة ، وكان المتولى لذلك جمعية اسمها « الإخوان النصارى » مؤلفة من بعض تجار لندن وأهلها مركزها لندن ، ولكن رسلها تنتشر فى سائر البقاع البريطانية ، فوجدت هذه النسخ سبيلها إلى الجامعتين « كامبرج وأكسفورد » حيث كانت النهضة العلمية قد فتحت عيون القرائح إلى المسائل الدينية ، وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمناظرات الفقهية والإلهية ، وكانت كامبريج قد رميت بالزندقة وسرت منها العدوى إلى أختها أكسفورد ، وكان من أمر ذلك الهياج الذى أعقب انتشار النسخ المذكورة ما ألجأ الوزير ولزى إلى مؤاخذة الهائجين ، فزج قسوس أكسفورد فى السجن وأحرقت كتبهم . ولكن ولزى لم يتجاوز فى عقابهم ذلك الحد رغماً مما ملكهم من الذعر والفرق ، وإنما صرفته شئون السياسة عن مسائل الدين .

وكان لانتشار الإنجيل بين سكان بريطانيا من التغير الأخلاقى ما لم يسبق له مثال فى تاريخ البشر ، إذ أصبحت إنكلترا أمة كتاب — وهذا الكتاب هو الإنجيل ، نعم أصبح الإنجيل كتاب كل إنكليزى يتلى فى الكنائس وفى المساكن ، وحيثما وقعت كلماته قرعت آذانا لم تخلقها كثرة الإعادة ، ولا بلدها طول التكرار ، فحركت من النفوس ما حركت وهزت من كل جنان أريحيته ، وهاجت من كل قلب غيرته فى الله وصبوته ، وحب الأمة للإنجيل راجع إلى علة خلاف السبب الدينى ، وذلك أنه كاد يكون أول كتاب أدبى نظر فيه الشعب الإنكليزى وتنزه فى رياضه وجنانه ، وجنى أزهاره وثمراته ، ولم يك قبل ترجمة الإنجيل لدى الإنكليز من أسفار الأدب إلا ما كان كتبه « ويكليف » وكاد أن ينسى ، وإلا ما نظمه الشاعر « تشوسار » وكان لا يعرفه إلا الأقلون ، نعم لم يوجد قبل ترجمة الإنجيل فى اللسان الإنكليزى تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر إلا منظومات تشوسار ، فلا غرو أن أصبح الشعب الإنكليزى يرهف الآذان لاستماع عبارات الإنجيل فيجد أبهج مستمتع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص ، وأغانى الحرب وأناشيد الدعاء ، والتراجم

والسير ، ومواعظ الرسل ومزاجر الأنبياء ، وحكايات الأسفار البرية والأخطار البحرية ، وجولات القسوس فى بلاد الوثنية ، وفى المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة ، فقد كان إذ ذاك نهضتان ــ علمية أحدثها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية ــ ودينية أحدثها كشف خبايا الآيات العبرانية ، والثانية أبعد أشواطا وأمد أنفاسا ، وأعمق جذوراً وأطول أغراسا ، من حيث إنها نهضة شملت الخاص والعام ، فى حين انحصار الأولى فى دوائر العلية المتأدبين . وذلك أنه لما لم يك فى طاقة الترجمة أن تنقل إلى الإنكليزية براعات اللسان اليونانى ، تركت عرائس ذلك اللسان مخبوءة فى خدورها فلم يستطع استجلاءها إلا الواقفون على أسرار اليونانية وهم قليل . ولكن الآيات العبرانية كانت أسمح ما يكون قيادا فى عنان الترجمة ، حتى أصبحت فى ثوب الإنكليزية مثلها فى حلتها العبرانية حسنا وبهاء ، وبهجة ورواء ، بل أصبحت أشرف ما لدينا من تحف اليراع الإنكليزى وأكرم نفائسه ، وأسلوبها ميزان الأساليب فى الإنشاء ، ونظامها معيار النظم فى الكتابة ، بل إن أثره أبقى فى نفوسهم ككتاب أدبى ، وإذا تذكرنا ما هو مبثوث فى عرض كلامنا العادى من كلمات كبار مؤلفينا ــ أعنى تلك الشذور التى تسربت إلى أحاديثنا من دواوين شاكسبير وملتون وصحائف دكنز وثكرى ، أدركنا كيف كان اللسان الإنكليزى فى تلك الأوقات يأخذ من ترجمة الإنجيل زخارفه وحليه .

وأعظم من أثر الإنجيل فى الأدب ولغة المحاررة ، أثره فى أخلاق القوم ، لقد كان الإنجيل يفعل بالألباب إذ ذاك ما تفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات والرسائل والمحاضرات والخطب والمواعظ ، وكان من أثره أنه بدل آراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحياة وأحوال الإنسان ، وبعث فى جسم كل طبقة من طبقات الأمة روحا جديدة أخلاقية وأخرى دينية ، ونفض الدين صبغته على الكتابة ، فما من رسالة تصدر إلا وبها عرق زاخر بالورع والتقى . وهكذا خلفت الكتابات الدينية فى ذاك الوقت ما كان يشغل العصر السابق من مترجمات الآداب الطليانية واللاتينية ، وقد قال جروشاس وذكر إنكلترا : « وأصبحت

السيادة فيها للدين » ، وقصارى القول إن البلاد أمست وهى كنيسة كبيرة ، ومسألة الموت وما وراء الموت تلك المعضلة التى اعتاضت على ذوى الألباب وأولى النهى فى عصر شاكسبير ، فما عرفوا لها حلا ، عادت الآن نصب عين الفلاح والتاجر يطالب نفسه بحلها ، و لم تك البيوريتانية فى أول أمرها تقشفاً وتعصبا ، و لم تتعد إلى ملاهى أربابها وملاذهم فتلغيها وتبطلها ، وإنما كان البيوريتانى فى أول الأمر كما قيل :

فلله منى جانب لا أضيعه   وللهو منى والخلاعة جانب

فمن أدلة ذلك أن إحدى السيدات لما صورت زوجها القائد هاتشنسون وكان بيوريتانيا ، وجهت جل عنايتها إلى إبراز جماله كما كان أيام صباه . ولو كان أمر التقشف والورع أمكن فى نفوسهم إذ ذاك من أمر الزخرف والزينة ، لكان لها مندوحة عن فعلها ذاك ، ولكن السيدة مالت إلى إبداء ثغره الوضاح ، كاللآلئ النسق والأقاح ، وجبين كأنه المصباح ، أو فلق الإصباح ، ولمة حالكة مدلهمة ، فهى كما قيل :

وجاء بها ثور ترف كأنها   سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعا بالصيد والقنص ، مغرما بالمسابقة والرقص ، كلفا بالفنون الجميلة ، ما تزال تستخفه قصيدة وتستفزه صورة ، وتستبيه نغمة وتطبيه دمية ، وكان ربما نزل بستانه فسقى وعل ، وغرس واستأصل ، وأصلح وشذب ، ونقح وهذب .

وكان البيوريتانى بعد عزوفا عن الفحشاء والمنكر ، قد صرف صبواته عن الحرام ، وعدل بصباباته عن مراتع الوخامة والوبال ، إلى مقامات الشرف والكمال ، فكان أبا رحيما ، وخلا حميما ، وزوجا شفيقا ، وأخا رقيقا ، و لم يك قط فى فتنة النساء ما يحرك شهوته ، بل كان غضيض الجفن عن كل ما يريب ، شامس العطف عن المغريات ، تجده الفتنة بأصعب مرام وأوعر ملتمس ، عفيف النفس عفيف الطرف طيب معقد الإزار ، يقف من النساء عند محاسن الحديث والسمر ، ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

وكان البيوريتانى حسن القصد فى أموره ، قليل السرف يباكر شؤونه ، والبركة فى البكور ، لا ونية عنده ولا فتور ، مشمراً من ذيله ، منكمشا فى عمله ، وكان أحسن ما وفق إليه من المحامد فضيلة المساواة . وذلك أن إخاءهم فى الله أنساهم ما كان قبل راسخا فى نفوسهم من تفاوت الدرجات وتفاضل المقامات ، حتى كان أحقر فلاح يعتقد أن الله قد شرفه وقدسه ، وحتى صار أكبر الوجوه والأعيان يوقر مساكين الأبرار ، وصعاليك الأتقياء الأخيار ، ولكن إفراطهم ذلك فى حب الفضيلة والتقى وإن عاد بالقوة على أخلاقهم ، فإنه ضيق دائرة رحمتهم وفهمهم ، وقد ظهر أثر ذلك فى الشاعر الكبير البيوريتانى ملتون — فى احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء « كما كان يسميهم » وعزوفه عما يحيط به من أساليب الحياة الغليظة الخشنة ، بل لقد كان على فرط حبه شاكسبير لا يظهر ارتياحا إلى مجون ذلك الشاعر الأكبر ومزاحه ، وإذا كانت هذه حال ملتون وهو يعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه ، فكيف كانت الحال مع من هم أقل أدبا وعلما ، وأجمد قريحة وأكثف فهما ؟ نعم لقد آل ذلك التشدد فى التدين والإفراط فى التورع بهؤلاء القوم إلى أجمد أساليب الحياة ، وأمرها وأكرهها وأبعدها من الألفة وحسن العشرة ، وأصبح البيوريتانى وليست الرابطة بينه وبين الغير هى رابطة الإنسانية ، ولكن نسب التورع والتدين بين طائفة المتدينين المتورعين أصفياء الله وأوليائه . وكل من خرج عن دائرة هؤلاء الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه ، وإنما هم منه أبرياء . وإن نفور البيوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين رقة قلوبهم وبين غلظة ما قد يأتون من وحشى الفعال . وهذا كروميل نراه بينما قد أدمى حشاه موت ابنه حتى حرمه الغبطة والسرور بانتصاره الباهر فى واقعة « بطحاء مارستون » فعاد من المعترك فائزاً كخائب وظافراً كمنهزم — تراه مع ذلك يهش ويبش لدن يوقع إمضاءه على الأمر الصادر بإعدام الملك « شارل الأول » وما ذلك إلا لاعتقاده أن ذلك الأمير المنكود الحظ من المعشر الضالين ، وليس هو لغلظ فى كبده أو فظاظة فى طبعه ، وكان من تفانيهم فى الله أن

ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى فى أصغر الأشياء . وهكذا تحولت حقائر الأمور فى حرارة التدين ووهج الغيرة جسائم وعظائم ، وأصبح أحدهم يؤلمه من رؤية فطيرة العيد أو كعكته ما يؤلمه من رؤية الخبائث والمفاسق ، وباتت الحياة وهى عبء من الأعباء ، وسخرة خالية من اللذة ، وكلفة قفر من البهجة ، وقام بدل مباهج العهد الإليصاباتى ومفارحه ، ومآنسه وممارحه ، مرارة البيوريتانية وجدها ، وعبوسها واربدادها .

ولقد كان البيوريتانى مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول القيامة ، ويقضى الكثير من وقته نهب هاتيك الوساوس ، وتلك الهواجس . وكان فى شدة حرصهم على الورع والتقى ما يخيل إليهم أن حياة الناس العادية نوع من الإثم والخطيئة . ولقد قال أحد كبار البيوريتانية أوليفار كرومويل : « لشد ما غويت وضللت أيام الشباب » وما أدراك ما هذا الضلال وما تلك الغواية ؟ هى أنه كان يباشر الطيب الحلال من ملاهى الشباب ولذاته . ويعوز ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ ، ولا بأس على الشاب فى ألا يكون كذلك .. ثم انظر إلى جون بانيان صاحب الكتاب الجليل « سيرة الحاج » كيف حدث عن نفسه فقال : « لما كنت صبيا فى التاسعة من عمرى كانت تحضرنى خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة وما أشبه ذلك ، فكانت مبعث رعب لى ومثار قلق وكرب ، تعترينى أثناء لعبى مع الصبية عظة من الله وزجرة ، ولكنى كنت أهملها وآبى إلا إقامة على ذنوبى ومآثمى » . أفتدرى ما هى تلك الذنوب التى أبى إلا الإقامة عليها ؟ هى نوع من لعب الأطفال وصنف من الرقص ، فأما عيبه الحقيقى وهو الإكثار من الحلف ، فقد كان أقلع عنه عملا بنصيحة عجوز رأت منه ذلك فأنكرته . وكان له ولوع شديد بسماع الأجراس تقرع ، وكان يحسب ذلك مآثما فكان لا يزال يذهب إلى موضع تلك الأجراس من الكنيسة فيقف تحتها وهى تقرع ، حتى يخيل إليه أن الله سيرميه بأحدها فيفر هاربا ، وانصرف حينا عن الرقص والألعاب ثم عاد إليها ، وفى ذلك يقول : « لقد صرفتنى عظة رجل من القسوس عن الألعاب ،

ثم ما لبثت أن استهوتنى بلذاتها ، فإنى ذات يوم لألاعب قطتى وقد لطمتها لطمة وهممت أن ألطمها الثانية ، وإذا بصوت من السماء قد نفذ إلى صميم قلبى وكأنما يقول : أيهما تفضل ، وتختار : ترك الذنوب ونعيم الجنة ؟ أم الإقامة عليها وعذاب النار ؟ فأصابتنى لذلك دهشة ، وأطلقت القطة ورفعت طرفى إلى السماء ، وكأنما رأيت بعين ذهنى السيد المسيح ينظر إلىّ كالغاضب علىّ ، وكأنه يتهددنى بعقوبة صارمة إن أنا لم أقلع عن تلك الذنوب والآثام » .

وكذلك كانت البيوريتانية مزيجاً من النقص والفضل ، وخليطاً من السخف والنبل ، ولنا أن نذم من تلك الملة عيوبها ما شئنا ، ولكنه لا يسعنا مع ذلك إلا الاعتراف بأنه لا يزال فيها ولن يزال جوهر من الحق . وهى بعد غرس غرسته الطبيعة ، وما إن تزال تتفقده فهو ينمو ثم ينمو . وطالما قلت إن الحياة معترك فما فاز فيها وظفر فهو حق ، وما خاب وانهزم فهو باطل ، فالقوة مقياس الفضل . خذ مثلا عظمة أمريكا الحالية ، وانظر ماذا كان أصلها ومنشؤها ؟ الله يعلم أن منشأها لم يك إلا فئة ضعيفة بيوريتانية من أهالى هولاندة أضر بهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة ، فخرجوا من ديارهم وهاجروا منذ قرنين إلى أمريكا فى تلك السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع ! ولو كان لنا خيال اليونان وشاعربتهم لقلنا فى ذلك الحادث المذكور القصيد المحبر ، ولكن حسبنا أن الطبيعة كتبت فى هذا الحادث المذكور قصيدتها الغراء بحروف الحقائق الناصعة على صفحة العالم ، ولقد كان بأمريكا قبل تلك الفئة البيوريتانية جماعة من النزلاء مبعثرون هنا وهنالك ، ولكنهم لم يكونوا إلا كجسم ميت . فلما نزلت تلك الفئة فيهم كانت كأنها الروح دبت فى الجثة الهامدة فأحيتها ، نعم لقد ضاقت بهؤلاء القوم بلادهم فعزموا على انتجاع أمريكا ، وما أدراك ماذا كانت أمريكا إذ ذاك ؟ غابات خضر وآجام سود مسدودة عذراء لم تفترعها قدم ولا فتحت أغلاقها يدان ، مستبهمة المعالم طامسة الأعلام ، وأمم همج وحشية . ولكن هذا كله أخف وطأة من الحكومات الظالمة والملوك الغاشمة ، وقد علموا أنه مهما يكن من صعوبة جانب الطبيعة هنالك ، فإن فى الرياضة ما يذلل أنفها ، ويلين عطفها ،

ويستغزر درها ، ويستدر خيرها . وأنهم سيجدون من الأرض وطاء ، ومن السماء غطاء ، ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون في حيث تنام عنهم الحادثات وتلهو صروف الدهر ، فيقضون أعمارهم بالعبادة والتقى ، ويتزودون من دنياهم لآخرتهم . ولما صحت منهم النيات على ذلك وصدقت العزائم ، أخذوا عددهم وشحنوا أمتعتهم واستأجروا مركباً .. السفينة المسماة زهرة الربيع ـ واستقبلوا بها عباب اليم .

ولما نزلوا السفينة أقاموا بها شعائر الوداع والتشييع على صورة دينية ، ولا غرو فقد كان عملهم هذا دينياً ـ وإن تشأ فقل ضرباً من الصلاة والعبادة ، فصحبهم قسيسهم إلى جوف السفينة ، وشيعهم كذلك إخوانهم الباقون بعدهم ، وابتهلوا جميعا إلى رازق النسر في السماء والحوت في بطن الماء ، أن ينظر إليهم بعين عنايته ، ويسقيهم من صوب نعمته ، ويظلهم بجناح رعايته ، ويكون لهم في بلاد الغربة وديار الوحشة حرزاً منيعاً ، وروضاً مريعاً ، وكنا دفيئاً ، ووثاراً وطيئاً . نعم لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير ، وقد جعل الله على أيديهم نفاذ أمر من أجل أموره ، وإن كان قدرهم إذ ذاك لم يك إلا صغيراً فأول النار شرر ، وأول الغيث قطر ، وكل شيء حق ، فمهما ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوماً ما ضخما جسيما .

مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالي فيه حتى أقمرا

والبيوريتانية وإن سخر منها الناس سلفاً فلا يستطيعون أن يسخروا منها الآن ! وكيف وقد أخذت عددها ولبست سلاحها ، وحملت الحذق واللباقة في أصابعها العشر ، والبطش والقوة في قوائمها الأربع ، وأصبح في وسعها نزف البحار ، ونسف الجبال ، وتسخير البخار ، وتسيير الجوار المنشآت كالأعلام ، فهي الآن من أشد قوى العالم .

ولست أرى في تاريخ اسكوتلاندة عصراً جديراً بالذكر إلا ذلك الذي حدثت فيه بيوريتانية « نوكس » وما ظنك ببلاد قفر لا تغبها المشاحنات من أهلها والمشاغبات والفتن والمذابح ـ ناس في أدنى حضيض الغلظة والسقوط

أحسن بقليل من أهالى أيرلندة الحاليين ـ طوائف من جياع الأمراء والسادة أبى عليهم جهلهم وحماقتهم أن يعرفوا كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التى سلبوها جماعة فقرائهم وعمالهم ، ولكنهم كالجمهوريات الكولومبية الحالية لا يستطيعون أن يحدثوا تغييراً حتى يحدثوا معه ثورة عامة ، ولا يجدون إلى تبديل وزارة سبيلا إلا شنق أفراد تلك الوزارة ، أشجاعة هذه ؟ نعم ولكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الأول الوثنيين من سكان الشمال ، أولئك الذين لا نجد فى مآثرهم الوحشية ومساعيهم الدموية شيئا يذكر . أجل لقد استمرت اسكوتلاندة جسما بلا روح حتى نفخ اللّه فيها من نهضة « نوكس » روحا ، فأصبح كل فرد بها برا صالحا تقيا . وإن تشأ فقل بطلا ورسولا نبيا .

ومما يقال فى مدح هذا الرجل أنه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة ، ولا بلغها بوسيلة ، وإنما أتته من تلقاء نفسها ، وذلك بعد أن أوفى عقد الأربعين . وكان من أمره أنه عاش طول تلك المدة غامض الشأن ، قضى أيام صباه فى المدارس ، ثم تخرج منها قسيسا واعتنق المذهب الجديد ـ مذهب لوثر ، وقد قنع من التداخل فى شئون الغير بالإقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم ، وكان يكتسب بإلقاء الدروس فى الأسرات الكريمة ، يشرح مبادئ مذهبه إذا سئل ، ثابتا على الحق يصدع به متى دعت الحال ، غير حاسب أنه يستطيع أكثر من ذلك ، وعلى هذه الصورة قضى أربعين من عمره ، فلما كان ذات يوم وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج المصلحين وكان « نوكس » بينهم ، وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جأشهم ، ويفتل مرر عزائمهم ، ويستنهض عاثر هممهم ، قال فيما قال : إنه لا بأس أن يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب ، وإنه جدير بكل من وهبه اللّه قلبا حافظا ولسانا ناطقا أن يكد فى نشر الحق لسانه ، ويبح فى الإرشاد إلى الصواب ، وإن جون نوكس هو ذلكم الرجل . ثم التفت إلى القوم فقال : « أوليس هو كما وصفت ؟ إذن فما قعوده عن الإرشاد والنصيحة ؟ » فوافقه الجمع على مقالته وقالوا : إنه عمل غير صالح ، فاضطر نوكس إلى الوقوف ، ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتا حائرا ، ثم أجهش بالبكاء وخرج من المجلس يعدو ودموعه على وجنتيه أشد عدوا .

ومن ذلك الوقت فصاعدا ثار ثورته وأشعل المذهب البيوريتانى فى قلوب الناس إشعالا ، حتى عادت الأمة الاسكوتلاندية أمة قسوس ، وعادت البلاد وكأنها كنسية ، وبدأ الناس يحيون . واعتقادى أن كل ما جاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندة وأفكارها وصناعاتها أثر من آثار تلك النهضة ، بل إن من آثارها أيضا ونتائجها أولئك الرجال الذين هم فخر الأمة الاسكوتلاندية ! جيمس وات ، ودافيد « داود » هيوم ، و والتر سكوت ، وروبرت بارنز . وإنى لأجد نوكس ومذهبه ينفثان قوتهما وسرهما فى قلب كل واحد من أولئك الأبطال وهاتيك العوارض ، وأرى أنها ما كانت تكون قط لولا البيوريتانية ، نعم لقد فاضت تلك الثورة الدينية الاسكوتلاندية بالخير العميم على جميع أنحاء الدول البريطانية ، وذلك أنها شبت جمرة فى كنيسة إدنبرج (عاصمة اسكوتلاندة) فإذا هى قد صارت حريقا أسرع فى كل جانب من جوانب بريطانيا ، وبعد أن دارت رحى الجهاد خمسين عاما زف اللّه إلى البلاد عروس الحرية متعة هنية ، وهبة سنية ، والفضل فى ذلك للذين جاهدوا لنا وكافحوا . ولم ينعموا بثمرة كدهم ، ونعمنا بها دونهم ، وما تلك بالقسمة العدل أن يصطلوا نار الجحيم ونستصبح نحن بنورها ، ونأكل جنى النحل وهم يكابدون لذع إبرها ، وتلك حال هى كما قلت أشبه بحال الجيش الزاحف على قلعة محصورة ، تبادر مقدمته الخندق المحفور فتسدها بجثثها ، لكى يفوز الباقون على تلك الأجسام كأنها قنطرة فيفتحوا القلعة ويملكوها . فسبحان قاسم الحظوظ لهؤلاء النصر والظفر ، ولأولئك الموت الأحمر . وكم من رجل كنوكس وكروموبل كافحوا وجاهدوا ، وقاسوا وكابدوا ، ولاقوا الشدة والبرحاء ، والكرب والبلاء ، بل اللوم والتفنيد ، والهجوم والتنديد ؛ قبل أن يسوق اللّه للبلاد الحرية ، ترفل فى الأوراق الرسمية ، والمواد البرلمانية .

وإنه لمن أفحش الجور أن تتناول الذرية عرض نوكس بالقدح والذم فيكون وهم كما قيل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر　　وحسن فعل كما يجزى سنمار

وعيب وعار ألا تزال الأجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده ، ثم تنصبه للمحاكمة كأنه بعض الجناة المجرمين ، ولا جرم له إلا اليد البيضاء ، والهمة القعساء ، والصدق الصميم ، والحسب الجسيم ، وإلا أنه كان يحمل تحت ضلوعه أشجع فؤاد

فى الأقطار البريطانية ، وإنه كان ولا مشاحة أنبل أبنـاء جلدتـه وأنجـدهم . ولـو كـان متقاعس الهم متقاعد العزم للزم زاوية بيته كما فعل غيره ، فلم تنتشل اسكـوتلاندة مـن قبضـة البلاء ، وراح هو بعرض برىء الساحة أملس الجانب ، ولكنه آثر المروءة مع لوم الناس على الدنيئة مع قلة اللوم . فأصبح وحده ذا الفضـل العظيـم علـى بـلاده ، والنعـم الجليلة على العالم أجمع . فواعجبا أن يحمل ذلك البطل على أن يستغفر لنفسه من ذنب المروءة وإثم المجد ، وأن يسأل اسكوتلاندة العفو لأنه كان أنفع لَهَا من الآلاف المؤلفـة ممن لم يذنبوا بذنبه . فهم فى مأمن من مثل ما يصاب به من اللوم ، وفى غير حاجة إلى مثل ما يقدمه من الأعذار ! وهل فى العدل أن يحل ذلـك برجـل بـاع اللـذة فـى سـوق الحق بالألم ، والراحة بالنصب ، والرفاهة بالشظف والقشف ، ونزل المعـترك بـلا درع ولا جنة ، وأهدف للسهام صدره ، واحتمل فى اللّه النفى والأسر يسام العذاب ألوانا ، ويعرض للرعود والقواصف ، والرياح العواصـف ، إلى غـير ذلـك مـن ضـروب المحن وصنوف البلاء . ولكن ليقل الناس فيه ما يقولون ، فليس واللّه يعنيه قولهـم وهـو يعلـم من نفسه ما لا يعلمون ، وإن كان يعنينا نحن أن ندفع الظلم عن رجل لا نزال نرتع فـى غرس يديه ، وأن نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته .

وأرى أن أول شـروطنـا فى البطـولة ــ أعنى الإخلاص ــ ينطبق تماما على نوكس ، وليس أحد ينكر أنه مهما تكن عيوبه وعوراته ، فلقد كان مـن أشـد النـاس إخلاصـا ، وكيف وإنما كان بالحق لا غيره يتشبث وذلك بفطرة فيه وغريزة ، ثم يرى كل ما عدا الحق شبحا باطلا فيدعه . ولما نفى أسيرا مع أصحابه إلى سجون نهر اللوار بفرنسا بعـد سقوط حصنهم إثر حصار طويل ، جاءهـم أحد السجانين يوما بصـورة مريـم وسـألهم أن يركعوا لها . فقال نوكس « أتزعم هذه أم المسيح ؟ كلا ما هـذه إلا قطعـة خشـب عليها ألوان وصبغ ! وأولى بها أن تطفو على مياه هذا النهر : ثم تناولها فألقى بهـا فـى اليم . ولم يكن مثل هذا المرح بالشىء الرخيـص إذ ذاك . ولكـن نوكـس لا يبـالى فـى سبيل الحق ماذا يبذل .

وكان يسلى صحبـه فـى النكـراء ، ويعزيهـم فـى المحنـة السوداء ، ويقـول لهـم : سيظهر اللّه الحق مهما لج به الخفاء . والحق أبلج ، والباطل لجلج ، وآخو البـاطل علـى الأيام مقهور ، وصاحب الحق على كر العصور منصور ، والحق سنة الديان ، والبـاطل

مسلك الشيطان ، ولا بد من يوم يقذف اللّه بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، فمثل هذا البطل ممن لا حياة له إلا فى عنصر الحقيقة ، فهو يتشبث بأعطافها كما يتشبث الغريق فى أطراف الصخرة الركود . وما أحسب إلا أن اللّه قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار أفئدة الأنبياء ، فهو نبى القلب وإن لم يكن نبى اللسان . وما أصدق ما كتب « مورتون » على قبره حيث كتب : « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه إنسان » . وهو أشبه المحدثين بالأنبياء الأولين من رسل بنى إسرائيل ، له ما لهم من شدة التمسك بطريقته ، والتفانى فى اللّه وتضحية كل شىء فى تلك السبيل ، وشدة الإنحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوى والخطة المثلى ، فيا له من نبى عتيق فى ثياب قسيس محدث ، وما ينبغى لنا إلا أن نعده كذلك ولا نأسف أنه كان كذلك .

وقد أنكر الناس سيرته مع الملكة مارى وغلظة خطابه لها وخشونة نصحه ، هكذا يزعم الناس ولكن من قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الأمر على خلاف ما يزعمون ، ولم يرَ لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة ما ينسب إليها . بل إنى لأراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال إذ ذاك ! ولم يمثل نوكس أمام الملكة ليعطيها ملق الحاشية ، وإنما لأمر غير ذلك كان مثوله هنالك . ومن قرأ محاوراته معها فلم يرَ فيها إلا قحة سوقى لأميرة أخطأ وجه الحقيقة ، وأشوى مقتل الصواب ، لأنه كان من المستحيل إذ ذاك أن يجمع جامع بين التأدب فى حضرة الأميرة ، وبين مصلحة الأمة الاسكوتلاندية وشرفها . ومن كان همه حينئذ أن يحمى البلاد من أيدى الأجانب من أمراء فرنسا ، ويربأ بها عن أن تكون مدبا لمكايد أمثال « دى جيز » ومسرحا لمطامعهم ، ويعزف بدين اللّه عن مساقط الذلة ومواطئ الأقدام ومواطن الكذب والضلال ، فغير ملىء أن يتذرع بحلاوة الملق وعذوبة الإطراء إلى الحظوة لدى الأميرة والحال عندها . وما أصدق قول « مورتون » حيث يقول : « لأن تبكى النساء خير من أن تخضل اللحى بدموع الرجال » ، وماذا كان نوكس يفعل وقد رأى الأوطان قد خانها الأعوان ، ونام عنها الأنصار ، وتواكل من أشرافها وتخاذل من عيونها وأعلامها من كان يرجى للكريهة ، ويدخر للجلى ؟ أكان يقعد عنها فيمن تقاعد ، ويخنس فيمن تقاعس ، ويتركها نهبا لأيدى الحوادث وغرضا لسهام

الخطوب ؟ كلا ما هذه شيمة الرجال ، ولا تلك سجية الأبطال ، وهذا أمر دونه خرط القتاد ، وضرب الأجياد . وقالت له الأميرة مارى حين جاء ينصحها : « من هذا الذى قد بلغ من جرأته أنه تكلف نصيحة وجوه هذه المملكة وأميرتها ؟ » فأجاب : « سيدتى ! رجل من رعايا هذه المملكة وأبنائها » جواب أصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسامحه ، ولا أنكر أن التسامح محمود بشرط ألا يتجاوز الصغائر إلى الكبائر والقشور إلى الجواهر ، وإنما التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب ، وألا يكون المرء لئيم القدرة . فأما التسامح مطلقا بلا حد فهذا من المنكر الذى من حق النبلاء أن يترفعوا عنه ، وما أرسل اللّه المرشدين والهداة ليتسامحوا ، ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ويهزموا ويقهروا . نحن لا نتسامح فى جرائم الكذب والسرقة والظلم إذا أصابتنا ، وإنما نخاطبها بقولنا : « أنت أكذوبة وأنت سرقة وأنت ظلامة ، لا يتسامح فيك ولا يتجاوز عنك » ! وإنما نحن فى هذا العالم لنخمد الأكاذيب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ! ولست مشددا النكير على طريقة استئصال الباطل وإن شابها العيب ، فحسبها أن بلغنا الغرض من إزالة الشر ومحو الباطل ، ومن هذه الوجهة أعنى من وجهة الضلال ولو بواسطة معيبة ـ بالواسطة التى لم يمكن غيرها ـ كان نوكس عديم التسامح » .

وما كان رجل اضطهد ونفى إلى بلاد الغربة أسيرا سجينا ليكون فى معظم أوقاته إلا مر الطباع وعر الناحية ! ولست بقائل قط إن نوكس كان فى طبعه عذوبة وفى جانبه لين ودماثة ، ولا أنه كان سيئ الخلق شرس الشيمة ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة . هذا ولقد كان فى جرأته على الملكة باللوم ، وفى رجاحة وزنه عند أشراف اسكوتلاندا ـ أولئك الذين كان لهم من الكبرياء والتيه الميزان الراجح ـ واستطاعته أن يقبض على زمام النفوذ فى تلك البلاد الوحشية العاتية زمنا طويلا ـ لقد كان فى كل ذلك دليل على أن الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن ، وإنما كان رجلا حمالا للعبء نهاضا بالفادح من الأمر ، مضطلعا بالباهظ من الخطب . ولا يكون ذلك إلا لمن أوتى بسطة فى الحلم ، وفضلا فى الذكاء والعقل ، وقد ينعون عليه تهديمه للكنائس كما لو كان ثوريا مخربا ، وإنما أمره عكس ذلك لو أنعمنا النظر ! وما

هدم الزور والفساد ، وغسل القلوب من كل دنس ورجس ؟ نعم ولا كان ديدنة الثورة بل النظام التام ، وإنما كان من سوء حظه أن ألجئ إلى الثورة في سبيل إمضاء عزمه ، وما كان مثل هذا الرجل ليكون إلا عدوا للثورة والفوضى ، ولكن ماذا يصنع إذا لم يجد بدا من ركوب الفتنة لبلوغ غرضه ؟ يركبها الرجل المضطر ، يركب الصعب وهو عالم بركوبه ، هذا وإنه كان على الحق ، والحق هو النظام .

ومن العجيب غير المنتظر أن نوكس هذا كان فيه مرح وفكاهة ، وكان بصيرا بمواضع الضحك فى كل شىء ، وصفحة تاريخه مخللة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ، ويحلى من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسوس بباب كنيسة « جلاسجو » على الأولوية فى الدخول من ذا يتقدم صاحبه ، واشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج وتخابطا بعصويهما ، كان لنوكس فى هذا المنظر مضحك أى مضحك ! ضحك فيه مع التهكم والازدراء والمرارة شىء من الرحمة والرثاء والعطف — لا قهقهة وإنما ابتسامة تملأ العينين إشراقا ، ورجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب لبنى آدم ، أخ للقوى وأخ للضعيف ، صاحب للوضيع صاحب للشريف . وكان يتناول الكأس فى حان الخمار بمدينة إدنبرج — دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله ، وأنه لم يك كما يزعم الناس بالشرس النكد ، الجعد الأخلاق الجهم الطلعة ، المكفهر الجبين المتعصب الصخاب ، كلا إنه كان من أثبت الناس أمرا وأرسخهم حالا .. حازم بصير جلد صبور ، طويل الإغضاء عن الأمر الذى لا يفسد عليه أمره ، فإن عرضت مفسدات الشرف ، والدين قام لها على قدم ، فهو كما قيل :

صفوح إذا ما الذنب لم يعد حده ... إلى الوتر تباع قفا الوتر أرقم

وكما قيل :

له سورة مكتنة فى سكينة ... كما اكتن فى الغمد الجراز المهند

لقد جاهد هذا البطل فى الله حق جهاده ، وركب من عيشته متن صعبة عوصاء ينافح الأمراء ، ويكافح الزعماء ، بعزم لا تفل من حده الخطوب النوازل ، وجنان ثابت على الهزاهز والزلازل .

ترى ساكن الأوصال باسط وجهه ... يريك الهوينا والأمور تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضرس ، ووقائع حمس ، ولكنه خرج منها كالصارم العضب يجول فى صفحتيه رونق الظفر ، وفرند الفوز والنصر ، وإن كان بمضربيه فلول وثلم ، وما زال الأمل حليفه حتى دخل معه قبره ، فلما جاءته سكرة الموت واعتقل لسانه ، سألوه « هل عندك أمل ؟ » فرفع أصبعه يشير نحو السماء ثم فاض ، له المجد والشرف وسقى عهده الغمام .

كلمة فى الختام عن مذهب نوكس ــ كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ، ورئاسة القسس على الملوك ، أو بعبارة أخرى حاول أن يجعل على اسكوتلاندة حكومة دينية ، وهذه فى نظر الناس جريمته ، وحقا لقد حاول أن يسير الناس جميعا على كتاب الله ملوكا وسوقا ، وأن يعلموا أن هذا قانونهم الذى ليس فوقه قانون ، وشد ما ساءه اغتصاب جياع الأعيان أمتعة الكنيسة ، وقد جعل يقول : « إن هذه ليست ملكا مدنيا وإنما ملك دينى ، وحقها أن توقف على منفعة الكنيسة ــ على التعليم والمدارس والعبادة . فأجابه الوصى « موران » مستهزئا : « هذه أحلام تقية » ذلك مذهب « نوكس » الذى سعى فى تحقيقه ، وإنه وإن يك أخفق فى بلوغ ذلك ولكنه لم يخفق فى إحياء الدين وبعث الأمة من طول رقادها مبعثا كان أصل رقيها ونهضتها ، ومجدها وعظمتها ، وكيف ينعى الناس عليه مذهبه ــ كيف ينكرون منه محاولته أن يجعل الحكومة لله وتلك ما لا نزال نحاول ونرجو . وما جاءت الرسل والقسوس إلا لذلك ، وقد أرادها « هلد براند » وحاولها « كرومويل » وبلغها « محمد » . أو لم تزل أمنية كل غيور مخلص ، وكل ولى تقى ، وكل رسول نبى ؟ ولا يسعنا إلا شكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده تحقيق هذه الأمنية : وأفنى فى طلبها أيامه بين الكدح والجد ، والمعارضة والرد ، والنصب والسهر ، والحبس والأسر .

المحاضرة الخامسة

البطــل فــى صـــورة كــاتــب

جونسون ـ روسو ـ بارنز

الآلهة والأنبياء والشـعراء والقسـوس ، هـى صـور بطليـة تتعلـق بالأزمـان الماضيـة ، وتظهر فى العصور الخالية . وقد أصبح ظهور بعضها فى العالم ضربـا مـن المحـال.فأمـا البطل الكاتب الذى سنتكلم عنه الآن فإنه من نتائج هذه الأعصر الحديثة ، وسيدوم مـا دامت تلك الصناعة العجيبة ـ الكتابة ـــ وهـاتيك الحرفـة الحديثـة ـــ الطباعـة ـــ وهـذا الصنف من الأبطال يعد إحدى نوادر الدهر .

أقول إنه صنف جديد من البطولة لم يكد يتم له فى الوجـود مائـة عـام ، ولـم يـك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتـزق بهـذا الأسـلوب العجيـب ، ينفـث وحـى ضميـره فـى صفحات الكتب ويطيرها فى أنحاء الأرض بأجنحة الأوراق ، فينـال معاشـا ومنزلـة بمـا يسخو له به أهل هذا العالم جزاء عملـه ذاك ، ومـا زالـت السـلع والبضـائع تبـاع ولـن تزال ، ولكن سلعة الحكمة والفلسفة ووحى ضمائر العظماء لم تعـرض قبـل ذلـك فـى الأسواق هذا العرض المبين ، ويا له من منظر عجب ـ منظر الكاتـب فى أسماله البالية ، وحجرته الخاوية ، يسوس من وراء قبره بعد مماته مـن أمـم العـالـم وأجيـال الأرض مـن ضنوا عليه أثناء حياته بالقوت الضرورى ، بل عجب وربكم وأى عجب ! ولم أر فـى ضروب البطولة وصنوف العظمة ما هو أدهش من ذلك .

ووا أسـفاه أن البطـل مـا بـرح مـن قديـم الأزل يلبـس للنـاس أزيـاء شـتى وأشـكالا مستغربة ، وما برحت الدنيا تحار فى كنهه لغرابـة منظـره فـلا تـدرى مـاذا تصنـع بـه ! ونحن ننكـر من القدماء أن يحملهم فرط الإعجاب بالبطل على أن يعدوه إلـها أو نبيـا ، وأولى بالإنكار أن يرسل الله لخلقه بطلا مثل جونسون أو روسو أو بارنز ، فتقتحمهـم عيون الناس ولا يروا بهم إلا عجزة ومكاسيل لا فضل لهم إلا بضـع كلمـات أكثـر مـا

فيها أنه ملهاة القوم ، ومدفعة لآناء السأم والملل ، ينبذ إليه فى ثمنها من الدراهم مقدار مسكة الرمق ، أليس هذا أولى بالإنكار والنقمة ؟ ومنذ كان الفكر هو سائس المادة ، وجب علينا أن نجعل البطل الكاتب إمامنا وقائدنا ، وألا نقدم عليه مخلوقا مهما عظم ، فهو روح العالم فى أى صورة برز وأى زى لبس ، وما يقوله كان حتما على العالم تعلمه واعتقاده والسير على موجبه ، وهيئة استقبال الدنيا إياه ومعاملتها له هى عنوان رفعتها أو ضعتها — دليل سموها أو انحطاطها — مقياس قيمتها وفضلها ، ونظرتنا فى سيرته نظرة فى لباب حياة تلك العصور التى هو ثمرتها ، والتى نعيش فيها نحن .

والكاتب صنفان جيد ورديء شأن كل شيء فى هذا الوجود ، فإذا دل بلفظة بطل على الجودة ، فوظيفة الكاتب البطل بيننا وظيفة كأشرف ما يكون وأعلى ، فهو ينفث لنا ما أودع الله جوفه من وحيه — وهذا أكثر ما يستطيع امرؤ أن يفعله ، وهو قبضة من طينة الحق ، وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الأبدى ، وكذلك حياة كل امرئ . ولكن الضعاف الأكثرين لا يعلم عن أنفسهم ذلك ولا يخلصون لتلك الحقيقة . والأقوياء الأقلون أقوياء أبطال مستمرون لأن هذه الحقيقة لا تبرح نصب أعينهم ، والكاتب البطل مرسل إلى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع ، وهى عين الوظيفة التى كان القدماء يسمون صاحبها إلها أو نبيا أو قسيسا ، وهى التى ما أرسل بطل إلى العالم إلا لكى يؤديها .

وقد ألقى الفيلسوف الألمانى « فيشتى » منذ أربعين عاما سلسلة خطب فى موضوع « طبيعة الرجل الكاتب » ، فقال مطابقة لمذهب الفلسفة الروحانية التى كان هو أحد أساتذتها : إن جميع ما نبصر من الأشياء ، ولا سيما نحن وسائر الآدميين إنما هى أثواب أو ظواهر حسية يكمن وراءها ويستتر تحتها « معنى الدنيا المقدس » ، وتلك هى الحقيقة المتوارية بحجب المظاهر ، وأغلب الناس فى عمى عن هذا المعنى ، وإنما يعيشون بين الظواهر والقشور والماديات غير خاطر ببالهم أن تحت ذلك شيئا مقدسا ، ولكن الكاتب مبعوث من قبل الله ليرى ذلك لنفسه ثم يريناه . هذا كلام « فيشتى » ولا حاجة بنا إلى معارضته ، وإنما هو أسلوبه فى بيان ما أنا باذل الجهد عبثا فى بيانه ، وتسمية ما لا أستطيع أن أسميه ، وليس له حتى اللحظة اسم — أعنى الحقيقة الإلهية التى كلها رونق وعجب وروعة ، والكامنة فى كيان كل امرئ وكل شيء —

وجود الإله الذى خلق كل امرئ وكل شىء ، وقد علم محمد هذا الدرس بأسلوبه ، ولقاه أودين بأسلوبه ، وهو الدرس الذى ما زال كل ذى قلب حى يلقن الناس بهذه الطريقة أو تلك .

ولذلك يسمى « فيشتى » الكاتب نبيا أو قسيسا لا يزال يجلو لأبصار العالم المعانى المقدسة ، والكتاب كنيسة مستمرة تعلم الناس أن اللّه موجود ، وأن جميع الظواهر وكل ما نراه فى الكون إنما هى ثوب « لمعنى الدنيا المقدس » ـــ ثوب « للسر الكامن تحت الظواهر » . فما من كاتب صادق إلا وفيه سر إلهى سواء اعترف بذلك الناس أم لم يعترفوا ، فهو سراج يستضاء به وقسيس ينصح ويعظ ، ويرشد الخلق ويهديهم على طريقهم المظلم ، ومسلكهم المبهم ، فى معامى الوقت وقفار الدهر كأنه عمود من النور . ويشدد فيشتى جدا فى التمييز بين الكاتب الصادق الذى نسميه هنا الكاتب البطل ، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الأبطال ، فمن كان من الكتاب قد اشتمل ذلك « المعنى المقدس » على جميع نفسه ، أو اشتمل على ناحية منها ثم لم يحاول أن يدخل البقية فى طى ذلك المعنى فهو دعى وأفاك ومزور ، بل هو لا شىء مهما اكتسى من رونق الأبهة وفخامة الجاه والمنزل . ومثل هذا غير حقيق أن ينعم بين الناس بالسعادة ويفوز بالهناء ! هذا رأى فيشتى فى الكاتب وهو فى أسلوبه عين ما نرمى إليه نحن فى أسلوبنا .

ومن هذه الوجهة أرى أن أكبر الكتاب أثناء القرن السالف هو الألمانى الكبير « جيتا » ، فقد قدر اللّه لذلك الرجل أن يشتمل عليه « المعنى المقدس » ويوهب البصر النافذ إلى أعماق السر المقدّس . ولقد تبدو لنا الدنيا من خلال اللّه ورونق القدس تشهد أنها من صنع الخالق ، وأنها هيكل مؤلفاته عليها جلال اللّه يحفها نور لين سماوى ، ولست أرى هذه إلا نبوة فى عصور ساد فيها الكفر والإلحاد ، وعملا من أجل أعمال تلك العصور وإن كان من أسكنها وأسكتها ، ولولا علل عوائق لكان مثالنا على الكاتب البطل هو « جيتا » هذا ، وما كنت إلى شىء أشوق منى إلى الخوض فى حديث بطولته ، وموضوع عظمته ، لأنى أراه بطلا صادقا ، وعظيما جليلا ، بطلا وعظيما فيما قال وفعل ، وربما كان أشد بطولة وعظمة فيما لم يقل ولم يفعل ، وهو فى نظرى آية من آيات اللّه ـــ وبطل عظيم قديم أشبه فى كلامه وصمته

بنبى غابر فى ثياب أديب حديث يلبس أحد أزياء التهذيب والمدنية ، وما رأينا منذ مائة وخمسين عاما منظرا كهذا .

ولكن ضلة الجيل الحاضر فى أمر هذا البطل وجهلهم بحقيقته ، وسوء قدرهم لقيمته يجعل التعرض لتقديسه وإجلاله ضربا من العبث الباطل ، ومهما أقل فيه فسيبقى لمعظمكم لغزا من الألغاز ، ولن تدركوا من أمره إلا خلاف الواقع ، وإنما أمره دفينة سيثيرها المستقبل ، وحسب الساعة الحاضرة أن توقف على ثلاثة من أكبر أبطال القرن السالف : جونسون وبارنز وروسو ، ثلاثة كانوا من الفقر وسوء الحال بعكس ما فيه « جيتا » اليوم من الرفه والنعمة ، هؤلاء لم يظفروا ظفر جيتا ولكنهم حاربوا فصرعوا ، ولم يكونوا من جالبى الضياء وإنما من طالبيه ، ولقد كانوا من عيشهم فى أبرح برح ، وآلم قرح ، كأنما يعانون من أيامهم سلاسل وأغلالا ، ويحملون من فوادح دهرهم هضابا وجبالا ، فلا بدع أن تعذر عليهم أن يبرزوا من كوامن أفكارهم كل خفية ، أو يستقصوا الغاية بكشف الغامض من ذلك (المعنى المقدس) والذى أعرضه الآن عليكم من هؤلاء الأبطال هو قبورهم ، فإنها الكثبان الأثرية التى يثوى تحتها ثلاثة من أضخم جبابرة القلم ، مشهد محزن ولكنه لذيذ ممتع ، فقفوا بنا على تلك القبور مليا .

كثرت الشكوى الآن مما يسمونه اختلال نظام المجتمع ، وكيف أن كثيرا من العوامل الاجتماعية تسيء أداء وظائفها ، وكيف أن كثيرا من القوى العمرانية الشديدة تكدح فى غير مكدح وتكد فى غير مكد ، وتلك شكوى لا شك فى صحتها . ولكن من نظر فى جهة الكتاب والكتب وجدها أشد الجميع اختلالا وفسادا ، بل أصل كل اختلال وفساد ـ وجدها كأنها قلب يصدر عنه ويرجع إليه كل اختلاط وتشوش فى العالم ، ولست أرى حالا أنكر من سوء ما يجزى به الكتّاب على جليل ما يسدونه إلى الملأ . ولو غمسنا القلم فى هذا المبحث غمسناه فى بحر لا قرار له ، ولكن لا بد لنا أن نمس شاطئ الموضوع إذ كنا غير خائضين عبابه إتماما للفائدة ، وأسوأ ما كان من أمر هؤلاء الثلاثة الكتاب أنهم وجدوا عملهم فى هذه الحياة ومركزهم ضربا من الفوضى . والسائح إذا صادف طريقا مذللا ومنهجا واضحا مضى فى سننه وأمعن فى قصده ، فإذا أصاب عقبة لا تقتحم وسدا لا يفتح فجعل يطعن فيه يبغى نفاذا ،

فأحر به أن يظل من عمله هذا فى مصاب جلل ، وأوشك أن تمر به فريسة بين مخالب الهلاك !

أدرك آباؤنا ما هنالك من الفائدة العظمى فى خطاب الرجل للرجال وعظة المرء لإخوانه ، فأسسوا الكنائس والمساجد لذلك الغرض . فما من بقعة فى العالم المتمدين إلا بها منبر يستطيع منه الرجل أن يعظ باللسان إخوانه فى اللّه . كانوا يرون ذلك من أهم الأمور وأنه لا خير فى الحياة من دونه . ولله ما كان أنقاه عملا وأجمله مشهدا ! فأما الآن وقد ظهرت صناعة الكتابة والطباعة فقد طرأ تغيير كلي على ذلك الأمر . أوَ ليس الكاتب الذى يضع كتابا خطيبا ليست خطبته قاصرة على هذه البلدة أو تلك ، رهينة بذلك اليوم أو ذاك ، ولكنها خطبة لكل إنسان فى زمان ومكان ؟ وحقا إنه من يخطئ فى عمله ، فأوجب الواجبات على كاتب الكتاب أن يتوخى الصواب والسداد .

والخطب العظيم والطامة الكبرى أن الناس لا يحفلون ألبتة أصاب كتّاب الكتب أم أخطأوا — وُجد كتّاب الكتب أم فقدوا . نعم قد يكون للكاتب شيء من الأهمية عند طابع الكتب الذى يرجو أن يربح مبلغا من وراء مؤلفه ، فأما عند خلافه فلا كلا ولا يعبأ الناس من أين جاء ذلك الكاتب وأين يذهب ، وكيف وصل وكيف يمكن أن تستهل له طرق التقدم والاستمرار ، وإنما يراه المجتمع كأنما هو إحدى الشواذ فيتركونه* هيم كالذى لا يدرى أين هو .

أنا فى أمة تداركها اللّـ — ـه غريب كصالح فى ثمود

وصناعة الكتابة لا شك أكثر الفنون إعجازا ، أو أعجب ما أبدع الإنسان ، « وحروف » أودين كانت أول عمل أتاه أول أبطال العالم ، وليست الكتب فى هذه الأوقات إلا من قبيل « حروف » أودين ، والكتب — حرسكم اللّه — مستودع حكمة الغابرين ، وفيها تتجلى لنا أرواح العصور الماضية ، والحقب الخالية ، بعد أن فنيت أجساما ، وأصبحت أوهاما وأحلاما . ولا ننكر أن الجيش اللهام ، والأسطول الضخم الجسام ، والمرافئ والثغور ، والمدائن والقصور ، أشياء رائعة جليلة ، ولكن ماذا مآلها وأين مصيرها ؟ وإذا سألت اليوم عن أغاممنون وبيركليس ويونانهم ، رأيتها عهودا تبكى وتذكر بعد أن كانت مشاهد تروع وتسر . ولم تنل عينك منها إلا دمنا عافيات ، وطلولا دارسات ، ورسوما دائرات ، ومعاهد خربات ، كأنها صحف

باليات تنشرها أيدى السحب السواكب ، وتطويها أكف الرياح الغرائب ، إذا نفشتها أقلام الهاطلات ، مسحتها أنامل السافيات .

لأيدى البلى فيها سطور مبينة عبارتها أن كل بيت سيهجر

ولكن ماذا كان من أمر مؤلفات اليونان ؟ هى اليوم عينها بالأمس لم يغيرها الزمان ؛ ولم ينكرها الحدثان ، ولا أبلتها العصور ، ولا أخلقتها الدهور ، هذا وقد خلد اللّه اليونان بين أوراقها وصحفها ، وأحياها فى سطورها وحروفها ، فكأنها لم تمت وإنما طوتها من تلك الكتب صناديق وخزائن ، وأصبحت فى تلك الأسفار ودائع ودفائن . والكتاب ـ رعاكم اللّه ـ فؤاد العالم ، يعى كل ما طرأ عليه من حوادث وآثار ، وخواطر وأفكار ، ووجدانات ومشاعر ، وفعال ومآثر ، ومشاهد ومناظر ، فنعم تراث للأواخر ، وتحفة الغابر للحاضر .

أو ما زالت الكتب تأتى بالمعجزات ، كالتى زعموا أن « حروف أودين » كانت تأتيها ؟ بلى حسبها أن فيها للناس دوافع ومحركات ، وبواعث ومحرضات ، ولن تعدم أحقر قصة وأسخفها أثرها الحميد فى قارئاتها ذوات الخرق والحمق من بنات الريف ، تجدها بعد الزواج فى ترتيب بيتها وتنظيمه ، ثم انظروا ما الذى شاد كنيسة سانت بول ، هو كتاب التوراة الذى هو كلمة الرجل موسى الخارجى الطريد راعى الغنم فى صحارى الطور . نعم لقد أقامت الكتابة فى العالم دولة المعجزات ، وضمت الماضى والحاضر بأوثق العقد وأوكد الصلات ، ولاصقت بين الشرق والغرب ، وصاقبت بين القطب والقطب ، وجمعت بين طنجة وبكين فى القرن ، وألفت بين نوح ونابليون فى زمن ، وغيرت للناس وجوه الأمور وصور الأعمال ، وجددت شأنا بعد شأن وحالا بعد حال .

فانظروا مثلا إلى التعليم وما أحدثت فيه الكتب من الأثر الجميل ، وحسن التغيير والتبديل ، لقد كانت الجامعات قبل الكتب هى الطريقة الوحيدة لاقتناء العلوم واكتساب المعارف . نشأت الجامعة حين لا كتب تذيع وتنتشر ، وحين كان الرجل يريد الكتاب فيبذر الضياع والعقد . وكان ذو العلم إذا أراد أن يعطى من علمه لم يجد بدا من جمع الطلاب حوله فيلقنهم العلم فما لفم . فإذا كنت فى ذلك الوقت فأحببت أن تعرف من العلم ما يعرفه « أبلادرد » لم يكن أمامك إلا أن تذهب إلى

« أبلادرد » ، حتى لقد بلغ قصاد أبلادرد وحجاجه نحوا من ثلاثين ألفا يحتشدون حوله ليستمعوا فلسفته ، وإذا وجد بهذا المكان هذا العديد المجمهر من طلاب العلم ، رآها العلماء الآخرون فرصة يحسن اغتنامها . فمن وجد فى نفسه الكفاءة لتدريس علم رأى ذلك المكان أحق الأمكنة بأن يذهب إليه فيعرض فى سوقه سلعة علمه . وهكذا كلما زاد فيه عدد المدرسين زاد عليه الإقبال من الطلاب والمعلمين معا ، وبعد ذلك أصبح المكان لا يحتاج إلا إلى التفات السلطان إليه ليجمع تلك المدارس المتعددة فى مدرسة واحدة ، ثم يمنحها المبانى والميز والمنح ويسميها جامعة ، وهذا هو فى نظرى منشأ الجامعات .

ولكن انتشار الكتب وسهولة اجتلابها قلب الأمر قدما لرأس ، وذروة لأس ، ومتى أوجدت الطباعة نسخت أمر الجامعات وعلوتها علوا مبينا ! إذ لا يصبح المعلم فى حاجة إلى أن يجمع الطلاب حوله ليسمعوا منه . وما هو إلا أن تطبع الكتاب حتى يتناوله من بأقاصى الأرض غنيمة بلا عناء ، ويرتشفه شربة بلا رشاء — هنيئا مريئا — وهو متكئ على أريكته ، مرتفق فوق وسادته ، ليقلب فيه البصر ، وينعم فى معانيه النظر ! ولا شك أن فى الخطبة لمزية خاصة ، حتى لقد يحسن أحيانا بكتّاب الكتب أن يخطبوا طلابهم أيضا ، وحسبكم ما نحن فيه الآن . وأرى أنه ما دام للمرء لسان فسيبقى للخطابة فضل لا ينكر ، وقيمة لا تحقر ، ومنطق للكلام ، خلاف منطقة الأقلام . ولكن الحد الفاصل بين المنطقتين لم يعين حتى اللحظة ، ولم توجد بعد تلك الجامعة التى يعرض معها نفوذ قوة الكتب وتأثير سلطانها ، ولا أعرف بعد كيف تكون تلك الجامعة وما معالمها وحدودها . فإذا كنا مفكرين فى ذلك فمثل هذه الجامعة لن تكون إلا كأقدم جامعة ، أعنى أن يكون من شأنها تعليم القراءة فى مختلف اللغات والعلوم — أى تعليم مبادئ كل صنف من أصناف الكتب . ولكن مأخذ العلوم ومقتبسها هو الكتب أعينها ! ومبلغنا فى العلم متوقف بعد على ما نقرأ بأنفسنا مهما صنع لنا المعلمون ، وأجاد المدرسون ، نخرج من ذلك على أن خير جامعة فى هذه الأوقات هى مجموعة كتب .

وأما من جهة الكنيسة فالتغير الحادث عليها من نشر الكتب تغيير تام ، والكنيسة هى جماعة القسوس والأنبياء ذوى الهداية والإرشاد ، من يهدون بعظاتهم عباد الله

الصراط المستقيم . وقد كان اللسان يوم لا كتابة ولا طباعة هو الأداة الوحيدة لبث النور والهدى ، فأما وقد ذاعت الكتب فقد أصبح كل كاتب يلين من قلوب الناس ، ويأخذ بزمامها نحو الحق ، فذلك بطريق أمته وإمامها ، وطالما قلت إن كتّاب الجرائد والمجلات والرسائل والشعر والكتب ، هم فى الحقيقة الكنيسة العاملة الفعالة ، هم الأمم الحاضرة . وليست الكتب خطبا لنا فقط بل هى أيضا ضروب العبادة ، وبعضها تكون قراءته أحسن صلاة لله وتسبيح . أوَ ليس المعنى الشريف يزفه إليك البليغ فى رونق اللفظ المصقول ، يختال من صفاء السبك وإشراق الديباجة فى أكرم حلة وأبهج خلعة ، فيمتزج بأجزاء النفس ويجرى مع الروح حتى :

يظل سامعه لدنا مفاصله　　كأنما فترت أوصاله الكاس

يفعل بالنفس ما تفعله العبادة . ولعل الكثيرين لا يعرفون فى هذه الأوقات الفاسدة من أساليب العبادة إلا هذا الأسلوب . والشاعر الذى يريك من جمال الزهرة ما كان قبل غائبا عنك ، أليس كأنه أطلعك على مظهر من مظاهر قوة اللّه وعظمته ، وشعبة من ينبوع الجمال الإلهى الشامل ، وعلى سطر خطه القلم العلوى فى صحيفة الكون فبدا مبينا ناصعا ، جليا ساطعا ، وكأنما غنى لنا نشيدا قدسيا ؟ وإذا كان هذا شأن من يصف زهرة الروض ، فكيف الذى يتغنى لنا بمكارم أولى العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوى الفضل ومفاخرهم ؟ مثل هذا كأنما يمس أكبادنا بجذوة من مجامر المحراب ، ولعلها أشرف طرق العبادة .

وما الأدب إلا كشف وجلاء لأسرار بدائع اللّه ، أو ما يسمونه « السر الجلى » وقد عرّف الأدبَ « فيشتى » بأنه البيان المستمر لما يكمن من أسرار اللّه فى الأشياء الأرضية العادية ، فإن أسرار اللّه ما برحت كائنة فى كل شىء ، وما برحت تصادف من هذا الكاتب وذاك من تبرزها فى هذه الصورة أو تلك ، فى مقادير مختلفة من الوضوح ، ودرجات متفاضلة من البيان ، كل حسب ما وهبه اللّه من الفضل . هذا هو الذى ما زال ذوو المواهب اللدنية من الشعراء والكتاب والخطباء والمتكلمين يصنعونه عمدا أو عفوا ، حتى لقد تجد أن شعر بيرون لا يخلو من تلك الأسرار برغم ما قد امتلأ به من زوابع الحنق وصواعق القذف والانتقام ، ومعاسف الغل والحقد والضغينة على بنى البشر ، وهى (الأسرار) أيضا كائنة فى متواضع شعر بارنز ، ذلك

الفلاح الذى كان يختلس القوافى من خلال حركات الفأس والمحراث ــ صاحب القصائد التى كأنها أغاريد القنبرة صاعدة من أديم التراب ، إلى أعلى ذوائب السحاب ، والحقيقة أن كل غناء صادق هو عبادة ، كما أن كل شغل صادق هو أيضا عبادة . وما الغناء الصادق لو نظرت إلا صفة للشغل الجيد الحر وتمثيل موسيقى مطرب . ومن أنعم النظر رأى هنالك قطعة جمة من الأناشيد الكنيسية ، والصلوات الدينية ، طافية على مياه ذلك البحر الخضم الذى يسمونه بحر الأدب . فالكتب أيضا كنيستنا .

ننتقل الآن إلى تأثير الأدب فى الحكومة ، لقد كان البرلمان قوة عظمى تبرم أمور الرعية وتنقض ، وتعقد شئون الأمة وتحل ، وتصرف أعنة البلاد وتدبر ، وتقطع أحكامها وتقرر ، بعد طول الروية والنظر ، وإدمان التأمل والفكر ، وإطالة المناقشة والمحاورة ، وإدمان المجادلة والمناظرة ، ولكن انظروا الآن أما ترون أن عمل البرلمان هذا يعمل الآن خارج البرلمان فى طول البلاد وعرضها ، بواسطة المطبوعات ، من جرائد ومجلات ، ورسائل ومؤلفات ، وإن كان البرلمان لما يزل باقيا . ولقد قال بيرك : إن البرلمان ثلاثة أركان ، ولكن بمجلس مخبرى الجرائد ركنا رابعا أهم من تلك الأركان الثلاثة . ولم تك كلمته هذه بالمجاز والاستعارة ولكنها عين الحقيقة . وقد أصبحت خطارتها اليوم أجسم منها يوم قالها بيرك ، فالأدب هو برلماننا أيضا ، والديمقراطية ــ أيدكم الله ــ رهن الطباعة التى هى من نتائج الكتابة ، وما هو إلا أن تخترع الكتابة حتى تنبع الديمقراطية . فالكتابة تنتج الطباعة ــ الطباعة العامة اليومية كما نرى اليوم ، فيصبح كل ذى لسان بوقا يسمع الشعب ، وقوة وفرعا من أفرع الحكومة راجح الميزان عند وضع الشرائع والقوانين ، وجميع تصاريف السلطة ، ولا ينظر إليه من أى طبقة هو وماذا يملك وماذا يلبس ، وإنما الأمر الجوهرى هو أصاحب لسان ، وأخو بيان فيصغى إليه ، ويقبل عليه ؟ هذا لا غيره الأمر الأساسى ، فالإقامة محكومة بكل ذى لسان من أبنائها ، وهناك الديمقراطية ولا مشاحة . أضف إلى ذلك أنه ما من قوة موجودة فى الكون إلا وسيريكها الدهر يوما ما فعالة معترفا بسلطانها ، فهى لا تزال تعمل فى خفاء ، وتكد تحت غطاء ، تدافع العوائق والعوائق تدافعها ، وتصارع الموانع والموانع تصارعها ، حتى يجلوها صبح اليقين من غياهب الشبهات ، وتطلقها يد

النصر من سلاسل العقبات ، فتذهب شعاب الحق كل مذهب ، وتضرب في مناصر الإصلاح كل مضرب . ولا تستريح الديمقراطية حتى تبرز للعيان ، ويصطلى شمسها كل إنسان .

أوَ ما يزال في كل شيء دليل على أن خير ما في طاقة امرئ أن يصنع ، وأعجب الأشياء طرا ، وأثقلها في النفوس وزنا ، وأخفها على الأسماع حسنا ، وألطفها في النفوس مكانا ، وأقلها في العقول رجحانا ، هو كتاب ! لله تلك الرقع الواهية المرقشة المتون بلمع المداد الأسود ! أي جليل من الأمر لم تأت ؟ وأي شيء لم تصنع ولا تصنع ولن تصنع ؟ ولا غرو فهل كانت تلك الرقع مهما حقر ظاهرها إلا أشرف نتائج الذهن البشري ؟ هي فكر الإنسان ـ الفضيلة الحرة التي بها يصنع كل شيء . وجميع ما يفعل الإنسان ويحدث أنما هو ثوب فكره ، وجسم روحه ، ورأى من آرائه . فمدينة لندن هذه بجميع ما بها من منازل ودور ، وحلل وقصور ، وعدد وآلات ، وكنائس وبيعات ، وحركة وصخب ، وجلبة ولجب ـ ما كل هذه إلا فكرة أو مليون فكرة ، ألّف شملها نظام فصارت واحدة . ما هي إلا روح فكرة جسيمة قد تجسدت في الطوب والحديد والخشب ، والتراب والدخان والقصور ، والبرلمانات والمركبات والمصانع ، وسائر ما تنظر إليه من الأشياء . وما من طوبة صنعت إلا وقد أعمل بعض الرجال فكرته كيف يصنعها ؟ وما نسميه قطعا من الورق عليها لمع من الحبر إنما هو أطيب مظهر للفكر البشري ، فلا عجب أن يكون أنشطها وأكرمها .

وقد طالما أقر الناس بفضل الكتّاب وخطارة شأنهم في العصور الحديثة ، واستعلائهم على الكنيسة والبرلمان والجامعات وغيرها . ولكنه إقرار لم يشفعه عون ولا مساعدة ، وعسى أن يكون قد آن للعواطف أن تخلى مكانها للإمدادات المادية ، وإذ كنا نقرر ونعترف بأن للكتّاب على المجتمع النعم الغراء ، والمنن البيضاء ، وإنهم يحدون به في سبيل التقدم ويسعون به في مراقي المدنية ، فما بالنا إذن نتركهم في أسوأ حال من نكد الحياة وجحد العيش ، من أمرهم في حيرة عشواء ، وضلالة عمياء ؟ ويقيني أن كل شيء فيه فضيلة قوة خفية ، فسيحسر يوما ما لِثامه ، ويميط قناعه ، ويسفر لنا ناصع الصورة واضح الغرة ، بيّن الإشارة جهير الصوت ، فأما أن يلبس أناس زى الأدب والكتابة ويقبضون أجرها ، ويتضور من الجوع الكاتب الحقيقي صاحب

الخير والمنفعة ، فما ذلك بعدل وإنما جور وعسف . ولكن رد هذه المظلمة لن يكون وأسفاه إلا بعد الجهد الجهيد ، والزمن المديد ! وكم دون ذلك من مشكلات ومعضلات الله وحده المعين على حلها . فإذا سألتمونى ما هو أحسن نظام تجعل عليه حالة الكتّاب فى العصور الحديثة ؟ وما هى خير طريقة لتنظيم شئونهم واستمرارها تكون على تمام مطابقة لمركزهم ولمركز المجتمع ؟ استقلتُ من الإجابة عن هذا السؤال لقصور مبلغ عقلى عنه ، وإنها لمعضلة لو تتابعت عليها عدة عقول راجحة لما استطاعت لها حلا تقريبيا ، فكيف بعقل واحد ؟ نعم ولا أحسب أن أحدا يقدر أن يقول ما هو أحسن نظام لأمر الكتّاب ، فأما إذا سأل سائل ما هو شر نظام وأخبثه ؟ لقلت : هذا الذى هو كائن اليوم ـ هذا الخلط السائد والفوضى المستحكمة ، وما أبعد ما بيننا وبين نظام صالح طيب .

وثمة شىء لا يفوتنى ذكره ، وهو أن هناك غير أمر العطايا المالية أمرا أهم وأعظم ، ألا وهو إجلال الكتّاب وتقديسهم . وهو أمر كان معدوما فى القرن الثامن عشر ـ قرن الجحود والكفر ، فأما هبة العطايا وترتيب الرسوم فهى على ضرورتها فى بعض الأحيان ، قلما تقربنا وحدها من النظام المطلوب لحالة الكتّاب . وإنى لأحد الذين أسأمهم كثرة ما يغلط به من سلطان المال وفضله على كل شىء . بل إنى أحد القائلين بأنه لا ضير على الحر أن يكون فقيرا ، وأنه يجب أن يكون من الفقر محك لأذهان الكتّاب ومعيار لقيمهم وأقدارهم . وقد أوجدت الكنيسة النصرانية فرق الشحاذين من رجال أبرار قدرت لهم الشحذ والتسول ، ورأت الكنيسة أن ذلك من أسباب نشر روح الدين وتأييده . وهل أسست النصرانية نفسها إلا على الفقر والحزن والاضطهاد والصلب وسائر أصناف الغم والمهانة ؟ ولنا أن نقول : إن من لم يعرف هذه الأشياء فيتعلم منها درسها الذى لا تقدر قيمته ، فقد فاته من فرص التعليم أثمنها ، ومن أسباب التقويم والتثقيف أمتنها ، ومن فوائد التربية والتهذيب أكرمها وأحسنها . ولم تكن الشحاذة والحفاء ولبس المسوح وشد الحبال فى الأوساط ، بالشىء الجميل أو الجليل فى أعين الناس حتى جمله وشرفه مزاولة الكرام له ، وإتيان الجلة الأشراف إياه .

وليس موضوع الشحاذة من أغراض هذا الكتاب ، ولكن من ذا الذى لا يقول بأن كاتبا كجونسون لم ينفعه الفقر وتفيده الفاقة ؟ ولقد كان مثله جديرا أن يعلم أن المال

أو النجاح ــ كيفما كان ــ لم يكن الغرض الذى يسعى ليدركه . وكان مليا أن يعرف أن فؤاده لم يخل مما قد جبلت عليه سائر القلوب من الكبرياء وحب الذات بجميع شعبه وفروعه ، وأنه من أوجب الواجب اقتلاع هذه الأغراض اللئيمة من تربة النفس . ثم اذكروا أن بيرون مع غناه وشرف نسبه ، كان أقل فائدة وأصغر مأثرة من بارنز مع فقره وضعة نسبه . وما يدرينا أنه إذا وجد فى المستقبل البعيد ذلك النظام المنشود كان الفقر لا يزال ركنا من أهم أركانه ، وكان الكتّاب ــ أبطالنا الروحانيون ــ لا يزالون طائفة من الشحاذين متاحا لهم العوز والتكفف حتى يجنوا ما فيهما من كرائم الثمرات ، وينتفعوا بهما انتفاع غيرهم باليسار والغنى ؟ ولا أنكر أن الطيب الكثير يبلغ بالمال ، ولكن ما يبلغ بالفقر أطيب وأكثر ، وإنما علينا أن نعرف حد المال فنقف عنده ، ونعلم أن ما زاد على ذلك فضول حقه الرد والرفض .

هذا ولو فرضنا وجود الإمدادات المادية والرسوم المالية ، فأنى لنا بمعرفة الكاتب الكبير الذى يستحقها ؟ إنه لا بد قبل ذلك من أن يجوز الامتحان اللائق . وأرى أن الحياة الأدبية ــ تلك التى كلها فوضى يتلاطم موجها ويتصادم لجها ، هى نوع من الامتحان ، وما زال هناك عنصر من الحق فى قولهم إن الجهاد فى سبيل الصعود من وهاد الطبقات السفلى إلى ذرى الطبقات العليا هو من الأمور التى لا بد من بقائها ، لما يترتب عليها من استمرار رقى العالم ، إذ أنه ما زال يولد فى الطبقات السفلى من ينبغى أن يكون فى أرفع المنازل وأسمى الطبقات . ولكن كيف ينظم ذلك الجهاد ؟ هذه مسألة المسائل ، فأما أن يترك هذا الجهاد كما هو الآن رهنا بمحاسن الصدف ، فكلما أفلح فيه كاتب من عصابة خاب الباقون ، أو نجا واحد من ألف هلك فى الطريق بعد التسعمائة تسعة وتسعون ، ويترك مثل بارنز يجوذ بروحه ولا يجود عليه إنسان بدرهم ، ومثل جونسون يزجى الوقت بين الثؤباء والمطواء فى حجرته ينطبق عليه قول القائل :

نلوم على تبلدها قلوبا   تلاقى من معيشتها جهادا
إذا ما النار لم تطعم وقودا   فأوشك أن تمر بها رمادا

حتى إذا شرع يكتب ، راح وهو من دفعة العمل وعجلته مع البخس والوكس كأنه فى مضمار ، أو كأن يديه يدا عائم يكافح التيار . ويترك مثل روسو على جمر

الإعسار والاحتقار يتململ ويقذف بشرر الكلم اللذاع ، فيؤجج الثورات الفرنسوية ــ هذا وأيم اللّه شر النظام وأسوؤه ، فأما النظام الأحسن فهيهات منه نحن وأنى لنا به الآن !

بيد أنه لا شك هناك فى أن ذلك التظام آت يحمله المستقبل البعيد فى جوفه جنينا فى رحم الزمان الآجل ، وهذا ما أجرؤ على أن أتنبأ به ، لأنه لا يكاد الناس يرون فضل الشيء حتى يأخذوا فى تسهيله وتزجيته ، وتنظيمه وترقيته ، ثم لا يستريحون أو يروه قد بلغ منتهى ما يستطيعون أن يبلغوا به . وقد قلت : إنه ليس فى سلطات الكنيسة والحكومات بأنواعها سلطة تستحق أن تقارن بدولة الأقلام ، وقد قال الوزير « بيت » وقد سئل أن يكتتب بشيء من المال للشاعر الأكبر بارنز : « الأدب سيد نفسه يدبر زمامها ويسوسها وليس فى حاجة إلى الناس » قال المستر « سوذى » : نعم هو سيد نفسه يسوسها ويدبر زمامها ، وهو أيضا سيدك ، يسوسك ويأخذ بخطام أنفك إذا أنت لم تلتفت إليه وتعرف له قدره ! » .

وما معظم الضرر بواقع على الكتّاب ، فإنهم أفراد وجزء ضئيل جدا من الجسم الكلى ، وفى جهدهم أن يجاهدوا ويكابدوا حتى يظفروا ، أو يموتوا فيعذروا ، ولكنه يهم المجتمع أن يضع شهبه ومصابحه فى الذرى والغوارب ، وحيث تُرى فتهدى ، أم يجعلوها تحت أقدامهم ويبددوا جوهرها الساطع شررا يستطير فى حيث لا مقتبس ولا متنور ، ويعرضوا أنفسهم بذلك لما قد عساه يحدث من الحريق ؟ وقد حدث . والنور ــ هداكم اللّه ــ هو رأس المنافع وأصل الحياة وأول حاجات المجتمع وآخرها ، وأن دنيا يتقدمها النور لجديرة أن تظفر فى حربها مع الدهر وتكون للإنسان أحسن دنيا ، وعندى أن مرض الفوضى الكتابية هو أصل سائر الأمراض فداوه تشف المجتمع من كل داء به وعلة . وقد بدأ فى آفاق الأدب بفرنسا وبروسيا تباشير نظام نقابلها بالاستبشار والهتاف ، لأنها بشير بأن ما قد حدث فى هذين البلدين خليق أن يحدث فى غيرهما .

إن أهم ما سمعت عن الصين أمر فيه علينا لبس وإبهام ، ولكنه يحرك فينا أعظم الشوق على لبسه وإشكاله ، وهو محاولتهم أن يختاروا ملوكهم من بين كتّابهم وأدبائهم . وأرى أنه من الخطل والخبط أن يتكلف أحدنا فهم هذا الأمر فضلا عن

شرحه وبيانه ، وما أحسب إلا أن مثل هذه الأمور لن يكون إلا عديم النجح ، غير أن في مجرد محاولتها فضلا كبيرا ! ويظهر أن فى جميع أنحاء الصين عناية شديدة بالبحث عن أولى الألباب فى كل جيل من النابتة . ولكل درجة من الطلبة مدرسة ، فمن أظهر براعة فى دنيا المدارس رفع إلى أعلى منها درجة ، وهكذا حتى يفضى إلى أشرفها منزلة . ومن ثم ينقل إلى مراكز الحكومة ومناصبها ، وربما قلد عملا أو ولاية ، وتلك هى الطائفة التى منها يختار الولاة والحكام مع الأمل والرجاء . ففيهم ـــ وليس فى غيرهم ـــ ظهرت آيات الفضل وأمارات اللب والذكاء . نعم فليجرب هؤلاء وإن كانوا لما يزاولوا الحكم والإدارة وقد يعجزون عنها ويعيون بها . ولكن لهم على كل حال فهم وعقل ـــ ذاك الذى لا يستطاع الحكم والإدارة إلا به . وليس العقل بآلة كما جرت الحالة بتشبيهه ، ولكنه يد يمكنها أن تستعمل كل آلة . فليجرب هؤلاء الفتية ذوو الألباب فإنهم أحق الناس بالتجربة ، ولا أحسب أن هناك شيئا أسر لطلاب الإصلاح ذوى الإخلاص والغيرة من إسناد الرئاسة إلى ذوى العقل ، لأنهم فى الحقيقة ذوو العدل والبر والمروءة والرحمة . قلدوهم أموركم تظفروا بكل شيء ، دعوا توليتهم تخسروا كل شيء !

ولعلكم ترون مثل هذه المسائل غريبا مما لا يجرى فى محاورات الناس ولا يدور فى مذكراتهم ، وليس العيب فى المسائل وإنما فى الجيل والعصر . إنما الواجب أن تطرح هذه المسائل على بساط البحث والمناقشة حتى تنضج ، فتخرج إلى حيز الفعل . ويسلينا بعد أنا أينما ألقينا البصر وجدنا دليلا بينا وبرهانا ناطقا علَى أن دولة القديم قد زالت . وإن طول عمر العادة ليس فى هذا الزمن حجة على وجوب بقائها ، وأن الأشياء التى كانت قبل اليوم قد بليت وفقدت مزاياها ومعانيها ، وأن الألوف المؤلفة من الأوربيين قد أصبحوا لا يطيقون الاستمرار على أسلوب المعيشة القديم . وإذا عادت الملايين من خلق الله وهم لا يستطيعون إحراز المطعم ، ويظل ثلث الناس لا يطيقون الحصول على أردأ أنواع البطاطس مدة ثلاثة أرباع العام ، فقد آن ولا شك للأمور أن تتغير وللأحوال أن تتبدل ! هذا وحسبنا ذلك فى الكلام عن النظام المؤمل لتحسين حالة الكتّاب .

وإن عدم ذلك النظام وإن كان من آفات كتابنا الثلاثة ، فلم يك بعد أشد من الآفات ! بل كان ثمة آفة هي أصل عدم النظام وأصل كل آفة أخرى ! وهي إلحاد القرن الثامن عشر وكفره . فأما خطب عدم النظام فقد كان على مضضه يمكن احتماله ! وقد كان الكاتب البطل يطيق الصبر على وعوثة الطريق ووعورته ، وعلى وحدة السفر ووحشته ، ويثقب بعقله النافذ في السدود المعترضة والعقبات القائمة ، لولا أن ذلك العقل قد قلل من حدة تأثير ما كان حوله من الكفر والإلحاد . نعم ، لقد كانت آفته العظمى وطامته الكبرى ما ساد في تلك الأزمان من شلل الأرواح وموت النفوس ، ولم يعدم ذلك الوسط السيئ والجو الفاسد أثره الخبيث في قلوب أبطالنا الثلاثة ، وحسبي أن أقول عن القرن الثامن عشر إنه كان عصر إلحاد ، وقد نعته بكل خسيسة ، ووصفته بكل دنيئة وخبيثة ! والكفر — وقاكم الله — جملة المحن والبلايا ، وجعبة الداهيات والرزايا . وليس الإلحاد هو موت الأذهان فقط ، بل موت الأخلاق كذلك ، وفيه كافة أنواع الكذب وعدم الإخلاص وخمود الأرواح كما قلت . ومثل ذلك العصر أبعد العصور من فهم البطولة ومعرفة الأبطال ، وجو سام لهم ، والبطولة روح لا تنتعش إلا بنسيم الإيمان والتقوى . وكيف وقد كان معنى البطولة قد محي من كل خاطر وبال ، وأمسى يراه كل إنسان حديث خرافة وضربا من المحال ! وأصبح قد سار به القارظان ، وبات في خبر كان ، وطارت به العنقاء وتبدد في رياح الكفر تبدد الهباء ، وذاب في موج الجحود ذوب الجفاء ، أو ذوب السراب المرقوق في أكناف القفرة الملساء . وقام بدل معنى البطولة معاني الشك والاستخفاف والرسوم الميتة والاصطلاحات الجامدة ، وأصبح الناس في عالم — لا رعاه الله من عالم — خلو من الروعة والعجب والعظمة ، عالم خلا جوه من التقديس فباض فيه الشيطان وأفرخ .

وما كان أخبث الأفكار إذ ذاك وأخسها وأسفلها إذا قورنت بأفكار قدماء الوثنيين المتوحشين ، لا بأفكار الأتقياء دانتي وشكسبير وملتون . وكيف وقد كان الوثنيون يشبهون الحياة الإنسانية والطبيعية بشجرة جذورها في عالم الموت وفروعها في الجان ، وهي فينانة غيداء ، وحفة غناء ، كثيفة الورق ملتفة الأغصان ، غير محصية الفنون والألوان ، ممددة الظلال منفسحة الأفياء ، قد ضربت في جميع الأرجاء

والأنحاء ، وغصت بها كافة الآفاق والأجواء . فنسى كفار المدنية الحديثة ـ أهل القرن الثامن عشر ـ هذا التشبيه وشبهوا الحياة والكون بمكينة تصلّ صليل الحديد ، وترن رنين النحاس . يا للّه أى فرق بين الشجرة والمكينة ؟ قارنوا ـ أصلحكم اللّه ـ بين هاتين . أما أنا فلست بقائل قط إن العالم مكينة ! لست بقائل إنها تدور بلولب وعجل وبما يقوله الاقتصاديون من العوامل والمصالح والموانع ، والموازين والمقاييس . ولكنى صائح بملء فمى أن هنالك أسرارا خلاف رنين آلات المصانع ، وضجيج صراخ البرلمانات ، وأن العالم على كل حال ليس بمكينة . أفلا ترون بعد فضل آراء الوثنيين المتوحشين على آراء أولئك الجهلة المتمدينين أصحاب المذهب « المكينى »[1] ؟ ولا عجب فقد كان الوثنيون القدماء أمة مخلصة مؤمنة ، ولكن هؤلاء الكفرة الأشقياء لا إخلاص لهم ولا صدق ولا مرءوة ولا شعور ، وكان الحق عندهم هو ما أجمع الناس على استحسانه لا ينظرون إلى لب الشيء وحقيقته ، بل إلى أقوال الناس فيه ، فمقدارك من الفضل بعدد ما تحرز من أصوات المادحين . وكأنما غاب عنهم أن الإخلاص قد يكون فى هذه الدنيا وأنه لم يصر بعد من المستحيلات . بل جهلوا معنى الإخلاص بالمرة . وكم من ساقط كاذب كان يسائل الناس من صميم قلبه سؤال مندهش غير متصنع ، « ألا ترونى رجلا مخلصا ؟ » أما لو حسبت نفسك أيها اللئيم الدقيق رجلا مخلصا ، لشد ما أخطأت معنى الإخلاص . وجملة القول إنه كان عصر موت لا حياة ، اللهم إلا حياة كحياة المكينات حركة بلا روح ، وكان الرجل العامى حينذاك لا ينجيه من الغرق فى عباب ذلك الكفر إلا ركوبه خشبة صلبة من حطام المذهب القديم والدين القويم ـ ملة القرن السالف الذى عفا الدهر رسمه وأقام على طلله ذلك البناء الخبيث الذى كل طوبة فيه قلب كافر ونفس ملحد ، وهو بعد لا يسلم من دوافع تيار الكفر وغوالب لجه وغوامر موجه . وهو هالك لا محالة إلا أن يكون صارم العزم ماضى الجنان شديد الأيد . فإذا كان ذلك لم تك حياته بعد إلا حياة يحفها الموت ، ولم يستحق من الأسماء إلا لقب « نصف بطل » .

---

(١) نسبة إلى مكينة يقولها كارليل تهكما بالقوم لأنهم كانوا يزعمون أن الكون مكينة .

وكل ما وصفت الآن هو ما نسميه الشك وهو عنوان هذه الآفات وأصلها . ولو أرسلنا عنان القلم فى ذلك المضمار لاغتال شأوه ما ليس يحصى من الساعات ، ولكن فى قليل الكلم غنية عن كثيره ، وقد يُجتزأ عن طول المقال بقصيره . وإن كان ذلك المسمى « الشك » هو الداء العقام ، وسم الحياة الذى إليه وُجِّهت جيوش الهجاء ، ونُثلث كنائن القذف منذ بدء الخليقة . وحرب الشك واليقين هى الحرب التى لا تنتهى : ولقد تظلم أهل ذلك القرن الشك أن نحاسبهم حساب المجرم ، وإنما هى سنة الدهر وتصرفات الحلال واضمحلال المذاهب القديمة ، وبلى الآراء العتيقة ، والإعداد والتجهيز لمذاهب سيجىء بها المستقبل البعيد خيرا من القديم وأسمى ، فكيف نأخذ القوم بذلك وإنما هو قضاء محتوم ، وقدر محموم . وفى الرثاء لهم ورحمتهم مندوحة عن عذلهم وتأنيبهم لو نفقه . ولنعرف بعد أن إعدام الصور القديمة والأوضاع العتيقة ليس إعداما للحقائق الخالدة ، وإن الشك أو الإلحاد على شره ونكره ليس بخاتمة وإنما هو فاتحة .

ولقد أنكرت فى بعض كلماتى مذهب بنتام ـــ مذهب الماديين ، وما إنكارى له بطعن على مؤسسه وأتباعه ، كان مذهب الماديين هو الجحود المحض بوجود اللّه ، واليقين الصراح بأن الكون خال من كل معنى إلهى ، وليس هو إلا مادة جامدة تتحرك بدوافع غريزية فيه ــ أقول : إذا كان مذهب الماديين هو الكفر المحض فهو عندى خير من مذهب الشك ، بما أنه استقرار وثبات فى ذلك الموضع الذى يحوم حوله أهل شك فى حيرة وتردد ، ورأيى أن الإقامة على شر الطرفين أشرف من الحيرة بين بين ، ولأن يرزق المريض الشفاء أو الموت ، خير له من أن يظل وهو لا حى فيرجى ، ولا ميت فيبكى . نعم ورأيى أن هذه المادية المكينية[1] هى اقتراب من المذهب الإيمانى الجديد ، بما أنها كانت اطراحا للتصنع والسفسطة ، وكانت كقول الإنسان لنفسه : « لا شك فى أن هذا الكون إنما هو مكينة ميتة من الحديد ، وما إلهها إلا الجاذبية وإلا الجوع والشره وحب الذات . فدعنا ننظر كيف يمكننا استخراج أكرم نتائجها

---

(١) المادية أعنى مذهب الماديين ، على حد قولهم النصرانية أى مذهب النصارى ، والمكينية نسبة إلى مكينة وقد مر تفسيرها .

بحسن إدارة العجلات ودقة تحريك اللوالب ! » أفلا ترون بعد ذلك فى جرأة المادية على التمسك بما تعتقد ، معنى توفر القوة والرجولة والشجاعة، حتى ليمكنك أن تسميها نوعا من البطولة ، وإن كانت بعد بطولة قلعت عيناها ! هى كما قلت الغاية القصوى لذلك الشك الذى أخذ بخناق القرن الثامن عشر ــ بلغها أصحابها بفضل الصراحة والصرامة والجرأة والشجاعة ، ويظهر لى أن جميع الكافرين والمؤمنين باللسان لا بالقلب ، سيصيرون يوما ما إلى المادية لو ساعدتهم جرأة وصدق نية . والمادية كانت بطولة عمياء ، وأنها أشبه النوع الإنسانى فى الماديات بجالوت فى طاحون بيت المقدس . يدور مفقوء العينين ، ثم لا يلبث أن ينشب يديه فى أعمدة الطاحون فينهار فوقه البناء خرابا ، ولكنه خراب يشفعه الخلاص .

ولكنى مع ذلك أقول ــ وأرجو أن أصادف قلوبا واعية ــ إن كل من لم يجد فى ذلك الكون إلا آلة جامدة فقد أضل سر الكون شر إضلال ، ولست أرى سقطة أشنع من أن يتجرد رأى الإنسان فى هذه الخليقة من كل معنى إلهى ، فإن ذلك كذب وباطل ــ كذب فى سويداء لبه وصميم كبده ، ومن كانت هذه عقيدته فأحرى به أن يخطئ الصواب فى كل شيء ، وأن لا يقع على سداد قط . فكل نتيجة يستنتجها أفسدتها عليه تلك الغلطة الجوهرية ، فهى جديرة أن تعد فى نظرنا شر أضلولة غير مستثنين أضلولة السحر نفسها ، وكيف وقد كان السحر يحمل أهله على عبادة شيطان حى ، والمادية تحمل أهلها على عبادة شيطان حديدى ميت ؟ عجبا لها إذا جردت الكون من آلهة ، أفلا أقل من أن تترك فيه شيطانا ؟ تبا لها لقد عرت ذلك الوجود الرائع من كل آيات الشرف والجلال والروعة والقدس ، وتركته جثة بلا روح وهيكلا بلا حياة . فأنى للأنسان بعد ذلك بمساعى الأبطال ، ومآثر ذوى الهمم والمروءات من الرجال ، وإنما الذى يستفيد من ذلك المذهب الكاذب هو أن ليس فى الحياة إلا حب الشهوات والملاذ ومخافة الهم والألم ، وإن الحقيقة القصوى فى حياة المرء هى الحرص الممقوت على المدح والمال وسائر الماديات ، أو بالاختصار هى الكفر ، والكفر عقوبة نفسه .

أما الإيمان فهو عندى صنع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح ، وهو عملية خفية مبهمة لا توصف ، شأن كل عملية حية جوهرية . ولم نعطِ العقل لنعارض به

ونسفسط ، ونجادل ونغلط ، ولكن لنرى بـه حقـائق الأشياء فنفهـم ونوقـن ، ثـم نجعل اليقين أساسا نبنى عليه الفعال ، ومبدأ نستهل منـه فواتـح الأعمـال . وليس الشك نفسه بجريمة ، وكيف وما كان قط للإنسان فى مسائل المذاهب والعقائد أن يقع على أول ما يصـادف فيحتضنـه ويعتقـده ، ولا مـن العقـل أن يركـب الرجـل رأسه فى الرأى وينخرط فى الأمر من غير تدبير ولا روية ، وإنما العـاقل مـن بـات يقسم رأيه ويشاور نفسه[1] ولا يمضى الرأى حتى ينضج ويختمر .

لا كإمضاء جاهل عجرفى   يركب الأمر قبل شد الحزام

فإذا فعل ذلك جاء رأيه مشحوذ الغرار محصد الحبل حصيف العقيدة ، جديرا أن يجلى ليل الخطوب والأتراح ، ويخلص بين الماء والراح ، ويكشـف معـالم الحق الصراح . والشك والبحث والتنقيب غريزيـة فـى نفـس كـل عـاقل ، وهـى جولـة العقل فى الأمر الذى يحاول أن يعرف ليعتقده ، وتنبت شـجرة اليقـين كمـا ينبـت غصن الشجرة من مستتر الجذور ، ولكنه لما كان الواجـب علـى المرء فـى عـادى الأمور أن يسر شكوكه حتى يؤول بها طول النظر والتقليب إما قبـولا أو رفضـا ، فما بالكم بأسمى الأمور وأعلاها التى يعجز عن صفـة كنههـا اللسـان ؟ فأمـا أن يبرز المرء شكوكه ويحسب أن المجادلة والمناظرة هى أقصـى مبلـغ قوة العقل وأكرم مآثره ، فهذا مثل أن تقتلع الشجرة فتعكسها وتعرض على الأبصار منظر جذورهـا القبيح بدل ما كانوا يترقبونه من ناضر الورق ويانع الثمر وفينـان الأفـرع الخضـر ، فتريهم منظر الموت والشقاء موضع الحياة والنماء !

والشك - كما قلت - ليس فى العقل فقط بل هو فى النفس والأخلاق أيضـا ، وهو مرض الروح كافة . وإنما يحيا المـرء باعتقـاده شيئا مـن الأشياء لا بالمنـاظرة والمجادلة فى جملة أشياء . ولن ترى حالا أسوأ من أن يظل الإنسان وهو لا يؤمـن إلا بالشىء الـذى يـزر عليـه جيبـه ، ويلتهمـه بـإحدى حواسـه ويهضمـه ! وهـذه مسقطة ليس دونها وأيبكم مهبط ولا منحدر ، وإنما نسمى الأعصر التى يهوى بها الإنسان لهذا الدرك أمرض العصور وأخسها وأحقها بالحزن والبكاء ، وفـى مثلهـا

---

(١) يقال : يشاور نفسه إذا جعل ينظر بأى رأيه يأتمر ، وذلك إذا اتجه له رأيان لا يدرى على أيهما يعتمد .

تشل يمين الدهر وتقرح كبد الدنيا ويجمد نبض الحياة ! وفى مثلها تغيض عيون الخير ، وتطمس معالم البر ، وينقطع العمل الصادق الحر ويقوم بدله الحذق بالتقليد والمحاكاة ، وهو عنوان رق الأنفس وأسر الأذهان ، وعمه البصائر والقلوب . وهنالك تنتهب أموال الدنيا وتهمل واجباتها وتستلب خيراتها ، لا تؤدى حقوقها ولا تصلح شئونها . وكيف وقد ذهب الأبطال ، وجاء كل كاذب دجال ؟ والحقيقة أنه لم يأت منذ العهد الأخير من دولة الرومان قرن هو أحفل بأهل الزور والدجل من ذلك القرن الثامن عشر . اذكروا - رعا كم الله - رجال ذاك القرن وانظروا ماذا كانوا يتصنعون من حمد الفضائل ، وذم الرذائل . وهل رأيتم عندهم إلا قولا بلا فعل ، ومنطقا بلا عمل ، شقشقة هادرة ، وهمما فاترة ، وألسنة خالبة ، وقلوبا كاذبة ، وأعينا تندى ، وأفئدة كالصخر أو أقسى ، ونفوسا وسنى ، وجعجعة ولا طحنا ؟ وكأنى بهم قد حسبوا أن الغش والنفاق والكذب هى من عناصر الحق التى لا يقوم إلا بها . ولقد بلغ من ذلك أن الوزير شاتام ذلك المشهور بالجرأة والشجاعة يتصنع المرض ، ويدخل مجلس البرلمان ملفوف الأعضاء فى الخرق كأنه مكسر العظم بجبره ، ويشيع عن نفسه أنه فى أشد بُرجاء الداء ، وأنه لولا حقوق الشرف والمروءة وحرمة الأوطان ، لما خرج يتحامل قطيع الخطو مبهور الأنفاس . حتى إذا انقطعت به أشواط البيان فى ميادين المناظرة ، وطارت به أجنحة البلاغة فى آفاق المناقشة والمحاورة ، نسى ما قد تكلفه من التمارض فاستل ذراعه من لفافته استلال الصارم الجزار من غمده ، وجعل يهزه ويطوحه فعل الخطيب المصقع والمنطيق المفوه ! وكذلك ما انفك شاتام هذا منذ قرع أبواب السياسة إلى أن قرع عليه الحمام أبواب الحياة ، وهو يمزج بين الصدق والكذب والحق والباطل . نصفه للشرف ونصفه للخسة ، وشطره لله وشطره للشيطان ، ولعل حجته فى ذلك أن الدنيا لا تنال بإرضاء الناس ، والناس معظمهم بله مخاديع . فمن أراد الدنيا فليجعل الغش والخديعة ذريعته ، فكيف والحال هذه نؤدى حقوق العالم ؟ وماذا ينشأ عن ذلك المذهب العقيم من البؤس والشقاء ، والمحن والأرزاء ؟

وكأني بك قد وقعت على أصل أدواء العالم حينما تسميه عالما كافرا ـ عالما عديم الإخلاص ـ عالم كذب وباطل ـ عالما شيطانيا ! وهذا هو ما أراه منبع كل آفة اجتماعية ـ منبع الثورات الفرنسوية .

وأرى أنه لا بد من تغير هذه الحال ، ولست أتوقع للعالم خيرا ونفعا حتى يحدث ذلك التغير ، وإن أملي الوحيد في حسن المآل ، وعزائي عما أراه من شقاء العيش وبؤس الحال ، هو أني أرى ذلك التغيير قد بدأ وأنه مستمر . وإني قد أجد من آن إلى آخر الرجل المؤمن الذي يعرف أن هذا العالم حق ،وما هو بأكذوبة ولعبة ، وأنه هو نفسه حي وليس بميت ولا مفلوج ، وأن العالم حي يخفق فيه روح الله ويجول في أرجائه رونق الجمال والجلال ، وأنه كحالته في أوائل الزمن وبكرة الدهر ! وعندي أنه متى عرف أحد الناس ذلك عرفه الكثيرون ، بل عرفه الجميع على مدى الأيام ، وكيف أنه جلي واضح لو كشف الغبي عن قلبه الغطاء ، وطرح عن إنسان عينه الأقذاء ، وكأنه بذلكم الرجل المؤمن وهو ينظر من دولة الكفر في أعقاب نجم آفل ، وبقية ظل زائل ، ويستقبل من دولة الإيمان تباشير صبح أغر ، ونفحات روض عاطر ، ولا يرى الرسوم القديمة على متانتها إلا خيالات تهم بالزوال ، وأشباحا تشد للرحيل الرحال . وكأني بذلك المؤمن يخاطب دولة الكفر المدبرة بقوله : « ما أنت بحق وإنما خيال زور ، فاذهبي وعليك العفاء ! » نعم ستذهب دولة الإلحاد بحواشيها من ماديات وكفريات ، ورسوم كاذبات ، وما ذلك القرن الثامن عشر بعد إلا فلتة من فلتات الدهر لا تجيء حتى تنصرف ، وإني لأتفاءل للعالم بإقبال السعد والنجاح ، والخير والفلاح ، ودولة الإيمان يقوم عمودها ، ويخضر عودها ، ويضرب رواقها ، وترف أوراقها ، وعند ذلك يروح العالم بقدح رابح ، وسهم راجح .

بل ما لنا وفوز العالم وربحه ؟ لشد ما لهج الناس بذكر العالم ونجاحه وخيبته ، وإنما يجب على كل رجل أن يعرف أن له حياة تعنيه شئونها ، وتئوده أعباؤها ، مهما يكن من أمر الدنيا ، وسواء أفلح العالم أو أخفق ، وأن عمره إنما هو لمحة بين أبدين ، وما للإنسان بعد الموت إلى هذه الحياة من كرة ، فجدير بنا ألا نعيش عيشة النوكَى الأصفار من كل فضل ومكرمة ، ولكن عيشة النبلاء العامري النفوس بالحق والهدى . وما لنا والاهتمام بالدنيا وما في نجاحها ربح لنا ولا في

خيبتها خسارة ، وإنما هم العاقل أن يعنى بأمر نفسه ، وفى ذلك مندوحة له عن غيره ومشغلة . وأحق الناس بالالتفات إلى هذه النصيحة قوم أولعوا بالتطواف فى أنحاء الأرض قصد ترقية الأمم والشعوب ، وللأمم والشعوب إله أرحم بهم من كل مخلوق ، وأملأ بتعليمهم وترقيتهم . وفكرة الجولان هذا من نتائج تصنع القرن السالف وكذبه ، فليتجه بها أهل هذا القرن ، وليكن لهم فى إصلاح شئون أنفسهم شغل عن القيام بمصالح الغير .

وفى تلك الأحوال وهاتيك الأزمان ، كان يعيش كتابنا الثلاثة جونسون وبارنز وروسو — فى أزمان أصفرت الحياة فى أثنائها من كل أثر للحق والصدق . فأما الحقائق القديمة فكانت قد هد ركنها ، وخرس لسانها ، وأما الجدية فكانت أجنة فى بطن المستقبل لا جرس لها ولا نبس ، ولم يك لاح فى ظلمة الكفر المطلخمة فجر اليقين وصديع الإيمان ، ولم يك فى نبع قفار ذلك الكذب والباطل ينبوع حق . كلا ولا الثورة الفرنسوية نفسها التى هى على علاتها نوع من الحق ، وإن كان بعد حقا ملتفعا برداء من نار جهنم ! وما أبعد ما بين سيرة لوثر ذات الغاية المحدودة ، وبين سيرة جونسون المحفوفة بالمزاعم والفروض التى عادت لا تقبل ولا تفهم ! لقد وجد محمد أباطيل زمنه مصنوعة من الخشب قابلة للحرق فأحرقها وأخلى من عقباتها سبيله ، ولكن أباطيل زمن جونسون ما كانت مما يحرق بالنار فبقيت فى طريقه . وما برح كل قوى من الرجال يجد الحياة ملأى من الأعمال — أعنى من الصعائب والآلام — بما يستفرغ من جهده ، فأما أن يظفر المرء مبين الظفر فى عصر كعصر جونسون فذلك أصعب الصعائب — فلم يك مصاب جونسون قاصرا على العوائق وفساد النظام والفقر الذى حبس رزقه عند قرشين فى اليوم ، بل لقد كان جونسون قد سلب نور روحه ، فلا معالم تهديه فى الأرض ، وأبرح من ذلك أن أصفرت سماؤه من كل نجم ! فلا غرو أنه لم ينل النصر المبين من هؤلاء الثلاثة أحد ، وحسبهم أن جاهدوا فأبلوا ، ولذلك أقول عرِّجوا بنا على معاهد أولئك الأبطال ، لا كأبطال فازوا وظفروا بل كأبطال جاهدوا فصرعوا وقد مهدوا لنا السبيل — ثلاثة جبابرة قاتلوا فى حرب الكفر والإيمان فنسفوا من جبال الباطل ما بات أثرا جسيما على قبورهم ، فقفوا بنا على تلك الأحداث فإن فيها عبرة وتذكرة .

لقد سبق لى الكتابة عن هؤلاء الأبطال قصدا أو عرضا ، ولا أراكم إلا عالمين من سيرهم ما لا حاجة بنا إلى ذكره ، وإنما نتكلم عنهم الآن كأنبياء ذلك العصر العجيب . وإن فى الكلام عن حالتهم وحالة عصرهم من تلك الوجهة — أى من وجهة أنهم أنبياؤه — مجال لجملة آراء . وإنى أراهم الثلاثة رجالا ذوى صدق يحاولون فى إخلاص أن يبلغوا غاية الصدق ، ويثبتون أقدامهم فى أرسى قواعد الحق ، فكانت طبائعهم من أكبر البواعث على مليهم إلى سنة ، إذ كان لهم الحق من عظمة النفس ما لم يستطيعوا معه أن يقيموا على الباطل ، وقد جعلت سحب الأضاليل والأكاذيب تنهال تحت أقدامهم فلم يكن لهم إلا على أديم الأرض معتمد ، وإلا فلا مستقر لهم ولا مطمأن . وقصارى القول إنهم كانوا أبناء طبيعة فى عصر كلفة وتصنع — كانوا رجالا مخلصين فى حين لا إخلاص ولا صدق ، وفدوا بنفوسهم الشريفة على هذا العالم وقد طال عهده بالشرف والمروءة .

فأما جونسون فما زلت أراه رجلا من اعاظم رجالنا — قوى النفس متين الخلق ، شريف الطبع مفعم الفؤاد من كوامن الكرم ، بما عجز عن استثارته جمود العصر الذى عاش فيه . ولو صادف من إيمان جيله جوا أكثر نورا وحرارة لانفجر فؤاده بأعذب ينابيع الفضل والكرم ، ولجاز أن يصبح ملكا جليلا أو إماما كبيرا أو شاعرا فحلا . وعندى بعد وأنه ليس من العقل أن يشكو المرء عصره وقومه ودهره ، ولا فائدة فى ذلك ولا ثمرة . وهب عصره عصر خبث فما باله لا يطيبه ، وجيله ردىء فما له لا يحسنه ؟ وكان جونسون فى شبابه معسرا رث الحال عاثر الأمل منفردا . ولا تحسبوا أن سعة الرزق وفسحة النعمة كانت تجلى عن عيشه سحب الهم لو أنها اتفقت له ، وذلك أنه كان مصابا بالسوداء والألم الجثمانى والروحانى الناشىء من محاربة نفسه لجيوش الضلال والكفر ، فكان كما حدث اليونان فى خرافاتهم عن هرقل إله القوة — إذ قالوا إنه كان يلبس قميصا من نار فهو منه فى عذاب أليم وبلاء مقيم ، ثم لا سبيل إلى نزعه ، وكيف وإنما هو بشرته وجلدته ! وعلى هذه الحال كان لا بد أن يعيش يائسا من الخلاص والنجاة .

يا ابن بوران لا مفر من اللـ ـــه ولا من قضائه المحتوم

وكأنى به يمشى بين القوم قد قصر خطوه المرض ، وتركته الوحشة غريبا فى الأقربين ، يحمل بين جنبيه فؤادا ضخما شرها إلى المكارم منهوما بالعلى ، وروحا غاصا بخليط مشوش من مبهم الأفكار والخواطر يلتهم كل ما يصادف من فائدة دينية . وربما قنع من الفوائد الدينية بما قد يعثر عليه من أقوال الكتّاب والشعراء . وحقا لقد كان سيد أهل زمانه ونابغة قومه الذى كان يجزبه على تلك العظمة والنبوة درهمين فى كل يوم . ولكن ماذا يؤثر ذلك فى نفس جبارة لا تهزم ، وعزم ماض لا يكل ، وفؤاد صارم لا يفل ، ثم لا تنسوا تلك الحكاية المأثورة عنه ـ حكاية الحذاء ـ وذلك أن جونسون كان قد بلى حذاؤه وبصر به بعض الكرماء فى نعليه الباليتين فرحمه ، ثم عمد إلى حذاء جديد فاشتراه له ووضعه على باب داره فى خفية . حتى إذا جاء جونسون ورفع النعلين يحدد إليهما النظر من عينين كليلتين ، أخذته النخوة وشمخ بأنفه الكبر فرماهما من النافذة ، ومعاذ الله أن يتدلى البطل العظيم إلى مهابط الشحاذة ويسف إلى محاط السؤال ، وقد يحتمل القر والثلج ولذع الجليد للإخمصين ، فأما الشحاذة فلا . فانظروا هداكم الله أى قوة كانت فى ذلك الرجل المعوز البائس ، وأى إباء وعزة ، وأى توكل على الله واعتماد على النفس ! إنى أرى فى جوف هذا الرجل عالما من القوة والخشونة ، والبؤس والفاقة ، ولكنه بؤس أبيّ عفيف ، وفاقة عزوف أنوف ، وهذه الحادثة عنوان على حياة الرجل جميعها . نعم لقد كان رجلا حرا جديد الديباجة وليس بأخى باطل خلق الأديم ، ولا ذليلا ولا شحاذا ، وأولى بكل ذى مروءة أن يقوم على ما وهبة الله ولو كان الوحل والترب ، لا على عطايا الغير ولو كانت الفضة والذهب !

ومع ما نرى لجونسون من وعورة الإباء ، ومرارة الكبرياء ، وشدة الأنفة ، أكان قط رجل أرق حشا منه ، وأسلس انقيادا نحو الأمر الشريف والمعنى المقدس ؟ وقدما كانت النفوس الكبيرة منجذبات تلقاء ما هو أشرف منها وأسنى فؤادا ، نحو كل شىء أنبل منها وأسمى ، وإنما صغار النفوس ودقاقها هى التى لا تفعل ذلك . وجونسون فى ذلك خير مثال لما ذكرت قبل من أن آية المخلص أنه حسن الطاعة ، وإنك لا ترى الخضوع والخشوع لمعانى البطولة إلا فى عصر كله أبطال . وقد قلت إن جوهر الفضل الكرم ليس فى أنه جديد مبتدع . فلقد

كان جونسون فاضلا وكريما مع إقامته على قديم الآراء ، ووجد فى ذلك القديم حاجته وبغيته فعاش به عيشة شريف حر ، وما وجد بطل وشأنه فى ذلك غريب ، لأنه مع إقامته على تلك الرسوم القديمة الميتة لم يكن من أهل الأكاذيب والظواهر ، وإنما أخا حقائق وأصول ، وذلك أن الرسوم القديمة التى أقام عليها كانت تحمل فى أجوافها عنصرا من الحق . وعجيب والله من هذا الرجل إبصاره أسرار الكون المقدسة ، وحقيقة الحياة الكبرى ، فى ذلك العصر الورقى[١] الممحل الجدب المشحون بالكلفة والغش والتصنع ، ولا نعلم كيف وفق ما بين مذهبه ومذهب ذلك العصر ، بل كيف اطردت له عيشة فيه ؟ وحقا إنه لأمر جدير بالتأمل المشفوع بالاحترام والرحمة والإجلال . والله أشهد أن من أعجب الأمكنة عندى وأقدسها تلك الكنيسة ــ كنيسة سانت كلمنت ــ التى كان جونسون يعبد الله بها فى زمن فولتير ، فى زمن الكفر !

وإنما عد جونسون نبيا لأنه كان ينطق عن ضمير الطبيعة ، وإن كان بالأسلوب الاعتيادى المتصنع . أوَ ليس فى كل أسلوب شىء من التصنع ؟ وما كل شىء متصنع بأكذوبة ، بل كل شىء متصنع كان فى مبدأ أمره حقا . وما نسميه بالرسوم المتصنعة والاعتبارات الباطلة لم تك فى أوائل أمرها بمنكرات ، ولكنها كانت صالحة ضرورية . وما الرسوم والاعتبارات إلا طرق وأساليب وعوائد توجد حيث يوجد الإنسان ، وإنما تتكون الرسوم كما تتكون السبل ، وتنهج مفضية إلى غاية شريفة يؤمها الجم العديد من أخيار الناس . وأصلها أن رجلا عالى الهمة شديد الإخلاص يجد السبيل إلى فعلة من الفعال ــ قل مثلا بث شكره لله ، أو تأدية السلام لرجل من الناس . أقول مثل هذا العمل أو ذاك على ما ترون من صغره هو فى الحقيقة جسيم ، وإنما صغرته فى أنظاركم العادة ، وما كان ليوجد فى هذا العالم لو لم يقدر له الله مبدعا ومبتكرا هو أول من نطق به وأوجد . فهو لذلك بطل وشاعر ، بما أنه قد أعرب عن معنى شريف ما زال يضطرب بفؤاده وبأفئدة الآلاف المؤلفة من خلق الله ، فهذه طريقته فى التعبير عن ذلك المعنى ــ هذه آثار خطاه ــ هذه مبادئ المنهج ، ثم يجىء رجل آخر فيترسم آثار الأول

---

(١) نسبة إلى الورق أعنى أن موضوعات الكتاب كانت كلها مادية ، فهى مثل الورق التى تكتب عليه .

وتلك خطة أسهل ، يترسم آثار الأول مع إصلاح وتصحيح وتحسين وتنقيح . وكلما زاد ركّاب الطريق اتسعت أقطاره وانفسحت نواحيه ، حتى يئول منهجا واضحا وسبيلا مضروبا يمتطيه كل غاد ورائح . وما دام لذلك الطريق غاية مقصودة ، ونهاية محمودة ، فهو مألوف للناس مرضى لديهم ، حتى إذا ضاعت الغاية هجر الطريق . فالرسوم ــ رعاكم الله ــ تكون فى أوائل أمرها مملوءة بالمعانى الجليلة ، ولكم أن تسموها جلودا وأجساما تسكنها حقائق حرة صحيحة ، ولولا ذلك لما وجدت تلك الرسوم . وقد قلنا عن الأصنام نفسها إنها لا تكون باطلة حتى تعتورها الشبهة فى نظر عابدها ويضعف إيمانه بها ، وما أحسب أن كثرة ما تعودناه من ذم الرسوم منسينا قيمة الرسوم الصادقة وفضلها ، وإنها كانت وسوف تكون ألزم ما نحتاجه فى سكنى الدار الدنيا من الفرش والأثاث .

واذكروا أيضا كيف كان ذلك البطل يتحدث أيام صغره بإخلاصه إذ لم يكن يشك فى أنه من أكثر الناس إخلاصا ، ومن أكفئهم للقيام بأى جليل من العمل . ولقد كان فتى شديد الجد والاجتهاد يستنزل الرزق من شاهق ويستدر به صخرة صماء ، ولو طلبه من غير طريق الحق لأغدق عليه ودر ، ولكنه رجل حق لا يقيم إلا عليه ولا مضطرب له من دونه . أما ترون فى ذلك لزوما لمنهاج الحق من غير افتخار ولا إعلان ، لا كمن خط على جبينه بالمداد كلمة « حق » يظل الناس ولا شأن لهم إلا التحدث به وإطراؤه ، وكذلك ما برح الفضل زينة من لا يتيه به ويعجب .

كان جونسون نبى قومه وكان كلامه لهم إنجيلا ، شأن أمثاله من الأبطال وأضرابه . وكان أنفس ما قال لهم يدور حول موضوع الحزم ، وما أعظم ذلك الموضوع وأجله فى هذه الدنيا التى قلت فيها معلومات الإنسان وكثرت واجباته . وكان فحوى ما علمه القوم هو : « قبيح بكم أيها الناس أن تغمسوا أنفسكم فى غمار الشك وأعماق الفكر فى عالم قصرت فيه المدارك وحسرت البصائر ، وثقلت أعباء الفروض وموازين الحقوق . إنكم إن تفعلوا ذلك تلقوا شقوة وبؤسا ، وتكونوا كالذى تخبطه الشيطان ، وأنى يكون للملحد الجحود عقل يعمل به ويعيش ؟ » . هذا هو إنجيل جونسون الذى لقنه الناس وعلمه ، وشفعه بإنجيله الآخر الذى فحواه : « خلصوا عقولكم من شوائب الرياء ودوسوا على الثلج

والجليد فى نعالكم البالية لا فى أحذية الغير ، ذلكم خير لكم » (كما كان يقول محمد[١] وعندى أن هذا إنجيل حكيم - أحكم ما تيسر فى هذه الأوقات .

أما كتابات جونسون فهى وإن نفقت سوقها قديما فقد أصبحت بين أهل هذه العصور بضاعة كاسدة ، ولا أنكر أن كثيرا من آراء جونسون قد أصبح اليوم قليل القيمة ، ولكن أسلوب تفكيره وعيشته سيبقى عالى القيمة جديد الرونق أبد الدهر ، وإنى لأرى فى كتب جونسون من أبين آيات الفضل وأرجح براهين الحكمة والعقل مالا يدفع ولا يفل ، وما هو جدير أن يرحب به على علاته مهما كانت ، لأنه كلام حر صريح أريدت به أغراض سامية وأمور جليلة . أما أسلوبه ففيه جفاء وصلابة - خير ما وفق إليه إذ ذاك - أسلوب ضخم البناء يابس المفاصل ، كأنما يسير الهوينا فى أرجح رزانة ووقار قد أصبح اليوم غير مألوف ولا مستظرف ، وربما سمعت له طنينا وجلجلة لا يوازيهما ما ضمن من المعنى ، ولكن هذه كلها مغتفرة فى جانب ما أودع كلام الرجل من الحكم والآيات . وإنما العبرة بالمعانى دون الألفاظ ، والأرواح دون الأبدان ، وكم من أسلوب حلو مونق خلو من المعنى ، كالقشرة العجيبة النقش لا لب فيها ، والصدفة المصقولة ولا درة . وما كانت أرباب تلك الأساليب الكاذبة إلا جناة مجرمين ، خليق بكل ذى دين ومروءة ألا يواقع خطيئتهم ويركب سننهم ، وجدير بكل قارئ أن يتحامى كتبهم ويجتنب أقوالهم : ولو أن جونسون لم يترك لنا إلا معجمه (قاموسه) لكان حسبنا دليلا على رجاحة عقله وحدة ذكائه . ومن اطلع على وضوح تعريفاته وحدوده ومتانة مبانيه ، وصحة معانية وحسن مذهبه كان خليقا أن يعده أحسن المعاجم جميعها . وإنى لأنظر إليه فأراه فى جمال تنسيقه وفخامة صنعته ، كالقصر المشيد متشاكل الأطراف متشابه الجوانب ، يطرد فيه روح النظام ويجول فى حجرتيه رونق الإتقان والصناعة - ولا تفوتنا كلمة عن صاحب جونسون وتابعه اللورد بوزويل - ذلك الذى جاوز الحد فى إجلاله وتقديسه لجونسون . وقد بالغ الناس فى تفنيده على ذلك وغلوا فى احتقاره وإصغاره ، ورغما من أن لهم بعض الحق فى ذلك فإنهم بعد جائرون وظالمون . وعندى أن

(١) يشير إلى الآية القرآنية ﴿ ذلكم خير لكم لو كنتم تعلمون ﴾ .

إجلال بوزويل لجونسون ما زال من أجل الآثار ، وأعجب الأخبار ، وماذا أعجب من منظر اجتماع ذينك الرجلين ـ اللورد الاسكوتلاندى الأبله المغرور يدنو حانى الرأس خاشع البصر إجلالا وهيبة نحو الأستاذ الجسيم فى أطماره الرثة التربة ، وغرفته الحقيرة الخاوية . هذا واللّه صريح الإجلال لنفس كبيرة وروح شريف ، وهذه عبادة الأبطال فى زمن أقفر فيه العالم من الأبطال والعبادة . بل كيف أقفر منهما وقد بلغ أكمل صورة فى هذين الرجلين ؟

ولعل الوجود ما خلا طرفة عين من الأبطال وعبادة الأبطال ، ولا جناح علينا أن ننكر ما قاله القائد الفرنسوى « دى كوندى » من أن الألفة تذهب الإجلال ، حتى أن البطل الكبير لا يكون بطلا فى عين خادم مرقده ، وأن نرى أن البطولة أشرق من أن تطمس الألفة شمسها . فإذا وجد الخادم الذى لا يرى عظمة سيده ، فالذنب عليه فى ذلك لا على السيد العظيم ، ولعل الخادم حسب أن البطولة هى حلة موشاة وتاج وإكليل ، وأبواق تسجع ؛ وأذيال ترفع . وإذا كانت الحقيقة كذلك فقد كان بالقائد الفرنسوى أن يجعل كلمته هكذا : « لا ملك يكون سلطانا فاخر المظهر فى عين خادم مرقده » ولو عمد إنسان إلى الملك المهيب لويز الرابع عشر فنزع ثيابه وتركه عريانا ، إذن لرأيت شخصا حقيرا لا موضع فيه لإجلال خادمه . والخادم الذى يحمل فى جوفه روح خادم أى روحا وضيعه ليس خليقا أن يفهم بطولة البطل ! وإنما يفهم البطل من خالط نفسه جوهر البطولة .

أفلا ترون بعد أن إجلال بوزويل لجونسون لم يعد موضعه ، وأنه ما كان ليجد فى بريطانيا نفسا أحق بحنو الهامة وثنى الركبة من تلك النفس الكبيرة . وهل كان جونسون إلا رجلا عظيما أركب من عيشته ظهر صعبة شموس ، فراض جهده من صعوبتها وذلل من شماسها ، وخلق فى مضطرب فوضى الأقلام ومختلط فوضى الأديان والسياسات ، فمهد لنفسه منهجا واضحا وسط تلك العناصر المتصادمة ، واستطاع على رقة حاله ووهن جسده وغبرته وشعثه ، أن يستخدم تلك القوى المتضاربة المتلاطمة بما كان فيه نفعه وفائدته ، وذلك بهدى اللّه وبكوكب إرشاد لاح له فى سماء عالم الأسرار فوكل به عينا كلوءا ، وعقد به

لحظا علوقا ، وجعله قبلة سفينته فى بحر الحياة العجاج ، صافحا عن كل مغرية ومغوية ، ومال عن حزب إبليس ولم يرفع على قلعة الكذب لواءه ..

* * *

أما روسو فلم يبلغ فى البطولة الدرجة العليا ، وليس بمصيب من إطرائى قسط جونسون ولا نصيب بارنز ، وما هو عندى بالرجل القوى وإنما رجل مريض النفس سريع الانفعال كثير النوبات العصبية ، ولم يكن أوتى فضيلة الصمت — وأى فضيلة وأبيكم ومزية قصر عن غايتها معظم الفرنسويين بل معظم أهل هذا العصر ، والرجل القوى هو فى مذهبى من كتم مصيبته وأخفى عن الناس دخان نيران أحشائه ، وقد كان يعوز روسو الجلد والصبر على الشدائد ، وهما أول شروط البطولة . وإنه لمن الخطأ أن يسمى الناس سرعة الهياج قوة ! والرجل المريض الأعصاب ليس جديرا أن يسمى قويا وإن عجز ستة رجال عن إمساكه حين تثور به النوبة الشديدة ، وإنما القوى من استقل بالحمل الفادح ثابت الوطأة قائم الصلب . وخليق بنا فى هذه الأوقات الكثيرة الصخب العالية الصراخ ألا نزال نذكر ذلك ، والرجل الذى يعييه أن يسكت حتى يحين وقت الكلام والعمل ، هو رجل عاثر الرأى جائر عن القصد .

وأرى فى وجه روسو عنوانا على خلقه .. حاجبين مشرفين وعينين غائرتين تجول فيهما حيرة وقلق ، ويضطرب فيهما نزاع ولهف ، ووجها حافلا بآيات الشقاء الوضيع ومعنى السوقية والحطة — عيوب لا يعوض منها فى ذلك الوجه إلا آية الجد الشديد والحدة الصارمة . وقصارى القول إنه وجه رجل متعصب وبطل مشوه ، وإنما نذكره هنا لأن فيه — على علاته وهى كثيرة — أول صفحات البطولة : الإخلاص . ولست مخطئا إن قلت إنه لم يك قط فى الأبطال من هو أشد إخلاصا منه ، حتى لقد كان له من شدة الإخلاص ما لا يقوم له طبعه الحاد الضعيف لولا هذا الإخلاص — طبعه الذى بلغ به أخيرا من المناقضات المنكرة ما يوشك أن يكون جنونا . بل لقد أصابه بالفعل فى آخر أمره صنف من الجنون ، وذلك أن أفكاره ركبته كما تركب الشياطين الإنس ، وساقته أعنف السوق إلى كل قحة ومهواة . وكانت منشأ عيوب روسو ومصدر شقائه ، هو ما يعبر عنه بهذه اللفظة المفردة « الأثرة » حب الذات ، وهو منشأ كل عيب ومصدر كل

شقوة . ولم يَرُض روسو نفسه على قذع النفس . طلعة إن لم يزعها الإنسان نزعت به إلى شر غاية ، ولم يشحذ عزيمته لقهر جيوش الأهواء والشهوات ، وكان قد ملكه جوع خبيث للشهرة وغير الشهرة . وأخشى أنه كان رجلا كثير الغرور والزهو ، به غلة إلى مدح الناس . وتذكرون قصته مع السيدة « جنليز » وذلك أنها سارت به إلى دار التمثيل بعد أن اشترط عليها أن يخفى نفسه عن أعين شهود التمثيل ويجلس بحيث لا يراه إنسان ، قائلا : « أنا لا أود أن يرانى الناس هناك ولو أن لى الدنيا بما فيها » . ولكنه اتفق رغما من ذلك أن أرخى الستر ورأى القوم روسو ولكنهم لم يحفلوا به كثيرا . فأظهر أشد الغضب وقضى ليلة آسفا مكتئبا ، ولم يفه إلا بمر الكلام ومضيض القول . ولم يزل من عقيدة السيدة أن غضب روسو لم يكن لرؤية القوم إياه وإنما لقلة احتفالهم به حينما رأوه . واأسفاه على ذلكم البطل ! لقد خالط دمه سم الأنانية ، وتقسم فؤاده الريبة والوحشة والتبرم بالناس والاكتئاب والإطراق والهم ، حتى أصبح لا يطيق عشرة إنسان . وكان رجل من سادة الريف يتردد إليه ويجالسه فرحا به مسرورا بحديثه ، مبديا له أصدق آيات الوداد والولاء ، فجاءه ذات يوم فوجده فى أسوأ حال من الغم والاكتئاب بلا سبب ظاهر . وبينما الرجل فى حيرة من ذلك المنظر العجيب صاح به روسو وعيناه تلتهبان غضبا : « سيدى لا يدر بخلدك أنك تستطيع أن تموه على سبب زيارتك هذه فإنى أعلم به منك . لقد جئت الآن لتفاجئنى وسط مصائبى وآلامى ، وتنظر أى عيش نكد أكابد ؟ وأى حال شديدة أقاسى ؟ وكيف أتحرق وأتوجع ؟ وماذا أذوق وأتجرع ؟ فليكن ذلك يا سيدى ، وهاك مرجلى على النار فانظر بها عنوان الفاقة ، واستمع من أزيزها قصة البؤس . انظر سيدى فى تلك القدر ، هل ترى بها إلا رطلا من اللحم وكراثة وثلاث بصلات ؟ وأنت بعد ذلك فى حل أن تقول ذلك لكل من لقيت » فمثل هذا الرجل قد جاوز مصابه كل مصاب ، وعدا فى الشذوذ كل مقدار ، وأصبحت أعماله تلك نوادر حديث الناس وفكاهات سمرهم يلهون بها ويضحكون منها ، وما هى بلهو له ولا ضحك . وكذلك رجفات المصارع المتخبط فى دمائه وافته سكرة الموت ، هى مصيبة له وعذاب ، وهى فرحة الجمع المشاهد ولذته .

لا تحسبوا أن رقصى بينكم طربا   فالطير يرقص مذبوحا من الألم

وبعد كل ذلك فلا يسعنا إلا القول بأن روسو هذا ، قد عمد نحو الحقيقة فى عصور الباطل بتلك الكتب التى كتبها ـ العقد الإجتماعى وإشادته بذكر الطبيعة والحياة الهمجية الطبيعية ، وكان يؤدى بذلك لقومه رسالة نبى حسب طاقته وطاقة الوقت ! ومن العجب أنه كان فى فؤاد روسو هذا وسط هذه العورات والخسائس ، والحمق الذى كاد يكون جنونا ، جذوة من النور الإلهى . وما ذلك إلا أن اللّه قد أثار بعد تقادم عهد من بين ذلك الكفر والجحود والفسوق ، شعورا قويا فى فؤاد ذلك الرجل يوحى إليه أن هذه الحياة حق ـ وأنها ليست بفكرية ولا نظرية من النظريات ، وإنما حقيقة عظيمة هائلة . بذلك أوحت إليه الطبيعة وأمرته أن يصدع فصدع . فإذا لم يأت قوله محكما بليغا فإنه جهد المجتهد . إن خطاياه وشواذه وسرقته الأقمشة ، وشروده فى الآفاق وبؤسه وشقوته كل هذه آيات الحيرة والدهشة والترنح التى تبهر رجلا حمل من الأمر ما لا طاقة له به ، وترك فى مجهل طامس الأعلام لا يعرف كيف يهتدى فيه .

أما مكانه فى الكتابة فمقدور فوق قدره . وعندى أن كتاباته كعقلة مريضة وليست من النوع الذى أسميه صالحا ، وإنما يمتاز روسو فى كتاباته بتغلب الحيوانية والمادية ، وتلك هى التى تعينه على تصوير صوره المثقلة بالزخرف الجذاب . ولكنها صور .. خلاف كرائم الصور الشعرية مما أبدعه عقل شكسبير أو (جيتا) كلا ! ولا كتصويرات (والتر سكوت) ، وكل من نظر فى بدائع هؤلاء ففهم ، عرف الفرق بينهما وبين مصنوعات روسو ومن رمى على منواله ؛ عرف الفرق بين الجمال الحر والكاذب ، وظل جديرا أن يفرق بين هذا وذاك ما عاش ، فإنه فرق كالذى بين نور الشمس ونور المراسح الصناعى .

لقد تبينا فى جونسون ماذا يستطيع البطل أن يقدم إلى العالم من الخير ، رغما من كل ما يحفه من المكاره والآفات . أما فى روسو فلنتبين أى شر وضر وبلاء قد تصحب ما يهديه البطل من النفع والخير . والحقيقة أنا لو ننظر إلى موقع روسو من التاريخ ، لرأينا مشهدا جللا ومنظرا هائلا . ولشد ما أساء العالم إلى نفسه بإساءته إلى ذلك البطل . وماذا أفادهم أن شردوه وتركوه يأوى من الفاقة إلى أسطحة المنازل يحدق به من همومه وأحزانه شر صحابة ، ويطيف به من العوز والكربة أنحس خليط ، شريدا طريدا يلجأ من غار إلى كهف كأنه الريح

الهوجاء حيرى مولهة (حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد) بلى ماذا أفادهم أنهم ألحوا عليه بالضر والأذى ، وهاجوه وأوغروه حتى تميز من الغيظ وجن جنونه ، وحتى جعل يعتقد أن العالم شر والمدنية سوأة وجريمة ، وأن الدنيا أكبر أعدائه ، وقانونها الظلم وناموسها الجور وأساسها اللؤم ، وكان أولى بالعالم أن لا يعادى مثل هذا الرجل ويستنزل عقابه ونقمته ، فيصبح معه كما قيل :

حداك إلى الحين حتى استثرتنى عليك وإنى فى عرينى لمخدر

لقد قدر العالم على إلجاء ذلك البطل إلى الأسطحة ، وعلى اتخاذه أضحوكة يسخرون منه كما يسخر بالبله والمجانين ، وعلى إجاعته وتركه يتضور من السغب كالوحش المسجون . فهلا قدر العالم على منعه من إضرام الثورة وإشعال الأرض نارا تلظى . ولقد وجدت الثورة الفرنسية إنجيلها فى كتابات روسو ، وقد أحدثت آراؤه الشبيهة بالجنون فى آفات المدينة وتفضيله عيشة المتوحشين على عيش المتمدينين ، جنونا فاض فى أنحاء فرنسا وغمرها ، ولنا بعد أن نسأل ماذا عسى العالم وملوك العالم أن يبلغوا من ذلك الرجل وماذا يصنعون به ؟ هذا سؤال نعيى ، ويعيى العالم ، تعيى ملوك الأرض بجوابه ، فأما ما يستطيع روسو أن يصنع بالعالم وملوكه ، فذلك يا للأسف واضح بين ، يضرب أعناقهم .

* * *

كان من أعجب العجائب أن ظهر فى القرن الثامن عشر — قرن الكفر والضعف . بين رجاله الذين كلهم تكلف وتصنع كأنهم تماثيل الخشب وعرائس الورق ، بطل كبير فى زى فلاح حقير يحمل الفأس ويسحب المحراث ، ألا وهو روبرت بارنز الاسكوتلاندى ، الذى جاء فى ذلك العصر القفر كالينبوع الشبم الفرات وسط اليبابس الملس ، أو كالفتقة الزرقاء فى الغيم المتلبد ، أو كمنظر السماء وزينتها خلال سقف القصر المزخترف ، إذ كان القوم لا يعرفون من سماء الله ونجومها إلا صورها المنقوشة بسقف ذلك القصر ، أو ما يمثلونها به من الأشكال النارية[1] . فبينما هم فى

(١) التى يسمونها بالعامية « الصواريخ » .

وسط تلك الصور والأكاذيب ، انفرج لهم سقف المكان عن منظر السماء والكواكب فدهشوا ، أو تملكتهم حيرة ولم يدروا ماذا يفهمون من ذلك المشهد وماذا يقولون فيه . وبعد أن طالت بهم الحيرة أجمع رأيهم على أن هذه السماء ونجومها الباهرة ما هى إلا من قبيل تلك الصور والأشكال التى اعتادوا رؤيتها ، جهلا منهم وضلة وعماية . وماذا ترجو من أناس ختم الله على قلوبهم فهم لا يبصرون ، وضرب على آذانهم فهم لا يسمعون ؟ فواأسفاه ! لبئسما تلقى به القوم هدية الله إليهم — ذلك البطل الجليل ، وبئس منزلته بينهم وجواره فيهم ! ولا أعلم رجلا لقى من الغبن والوكس ، والتعس والنكس ، ما لقى روبرت بارنز ، فياللّه أى جوهرة كريمة نبذت بأكناف صحراء ، وأى درة مكنونة ألقيت بكف خرقاء ، وأى بلبل صداح تقاذفته أيدى الأطفال ، وحر كريم تناشبته أظفار السفلة الأنذال !

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان أبوه صانعا فقيرا ، وقد حاول جملة أشياء فخاب فيها وما زال من عيشه فى عذاب دائم وبرح مستمر ، وقد حدثنا بارنز فقال : « كانت ترد على أبى طلبات الغرماء يتقاضون ديونهم ، فكانت تنخب أفئدتنا وتستذيب دموعنا — دموع الوالد الكدود المكدود المعنى المعذب ، وزوجه الجلدة الصبور ، وصبيتهما وفيهم بارنز كان لهم الله . لقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وحمتهم مشارعها العذبة وهى حل مباح للوراد ، ومنعتهم مراتعها الخصبة وهى طلق حلال لكل مرتاد . تأملوا — رحمكم الله — فى قوله : « كانت رسائل الغرماء تستذيب دموعنا » أى مشهد حزن ومنظر ألم ! وإنى ما زلت أرى فى والد بارنز بطلا صامتا وشاعرا مفحما ، ما كان ابنه لولاه ليكون ذلكم الشاعر الناطق والبطل الكبير ؛ ومما يدل على فضل ذلك الوالد شهادة معلم ابنه حيث يقول : « لقد جئت مدينة لندن وحضرت بها نوادى السراة والأعيان ، فلا واللّه ما لذ أذنى كحديث والد بارنز ، ولا نعمت فيها بمجلس كتلك التى أمتعتنى مدة حول مائدة ذلك الصانع المسكين » وقد كان فى الحقيقة مسكينا منغص الحياة مرنق موارد العيش جامد أخلاف الرزق ، لم يصادف نجحا فى السبعة الفدادين التى رزقه الله ولا فى أى شىء غيرها ، فكان بينه وبين الدهر حرب لا تنتهى ، كان المغلوب فيها أبدا ، وسوق لا تفض كان الخاسر فيها دائما . ولكنه ثبت فى تلك

الحرب طول عمره وما كان منه قط حيصة ولا فرة ، فيا له من كريم باسل أيد الركن ثابت الأس ، لا تهيل من جانبيه الحوادث ولا تخون من قطريه الكوارب والكوارث ، حمول يغضى على الأقذاء ويردد أنفاس الصعداء ، وتضيفه النوازل والكرب فيقريها الصمت والسكون ، وتهم المصائب أن تلتهمه فيلتهمها ويجعل لها صدره الرحب قبرا لا تنبش دفينته ، ولا ترد وديعته :

مفازة صدر لو تطرق لم يكن ليسلكها فردا سليك المقانب

* * *

حليم إذا ضاقت بلاد بأهلها يضل الفضاء الرحب فى صدره الرحب

يا له من بطل يناضل كتائب الدهر مستورا عن الأعين ، لا تسير محاسن ذكره جريدة يومية ، ولا تطير روائع خبره أسلاك برقية ، ولا تقيد نوادر مجده مصايد الشعر ، ولا تطلق غرائب همته شوارد النثر ، ولكنه لم يذهب عمله سدى ، ولا شىء فى العالم يذهب سدى ، نعم لم يضع من هذا ولده ! وأن يذهب فهذا روبرت بارنز سليله ــ وسليل عدة أجيال كلها أمثاله .

لقد خرج بارنز إلى هذه الدنيا محفوفا بالمكاره والشدائد ، بين سوء حال وسوء تعليم وكد ونصب ، يختلس النظم من ساعات الكدح اختلاسا ، ويسترق النظر فى كتب الفحول استراقا ، ويكتب بلغة ريفية مجهولة إلا لإقليم صغير من البلد الذى ولد فيه . ولو كتب ما كتب باللغة الإنكليزية الشائعة ، لما شككت فى أنه كان ينال إجماع الناس على أنه من أعاظم رجالنا . وإن كان فيما حمل ألوف الناس على معالجة لغته الصعبة واستفتاح أغلاقها عما أودعت ، وفض أختامها عما ضمنت ، دليل قاطع على أن هنالك جوهرا مكنونا وسرا مصونا . وبعد فقد أحرز إقرار الكثيرين بالفضل واعترافهم بالقدرة والسبق ، وما تزال دائرة ذكره فى اتساع ، وصوت صيته فى ارتفاع ، وقد شرع الناس فى جميع أنحاء العالم السكسونى حيثما طارت الريح بلفظة إنكليزية ، يدركون أن من خير ما أنجبت التربة البريطانية رجلا فلاحا اسكوتلانديا اسمه روبرت بارنز . نعم ولا حرج على إن قلت : إنى أرى فى بارنز هذا جوهرة كريمة بريطانية ، أبدى الله صفحتها وجلا رواءها وبهجتها ، على حين لا عهد للناس بالجوهر ــ نعم جوهرة هى على لألائها ووقدتها أمتن الأشياء وأصلبها ، كالحجر

الكامن فى أحشاء الأرض - كالحجر ولكنه المطوى على آبار الرأفة والرحمة ، وعلى نيران الذكاء وزلازل الحدة والشهوة ، وعلى حلو النغم ومطرب الغناء .. طبع شريف خشن ، وسذاجة قوة وعظمة فيها بوارق الحدة ، وفيها أنداء الرأفة ، فهى كإله الرعد « ثور » إله المزارع والريف .

ولقد حدثنى أخو بارنز وهو المستر جلبرت - رجل فاضل عاقل فقال لى : إن بارنز كان فى صباه شديد الفرح مستعذب الحديث جذل الكلام ، أخا لعب وضحك ومرح ، شريف الوجدان وفير العقل . وكان يوم هو غلام ينثر الحب ويحصد الزرع ، أفرح حديثا وأعذب إشارة ، وأبعث لسرور الجليس بمراحه وجذله وانطلاق فكاهته منه فى سائر أطوار حياته . وهذا كلام جدير بالتصديق ، ومراح بارنز الغريزى وجذله الفطرى - ذلك الخلق الذى لا أشبهه إلا بشعاع الضحى أو بالزهر الضاحك فى رونق الربيع الجديد - ذلك الخلق ممزوجا بحرارة جده وحرارة حدثه ، وذوب رحمته ورقته كان من أخلب صفات بارنز . وكان ذلك البطل جم عتاد الأمل ، غزير مادة الرجاء ، ولم يكن بالمطرق الحزين خلى الشكوى والأنين ، رغما من شدة مصابه وطول عذابه ، وإنما كان ينفض الأحزان عن كبده ، نفض الغضنفر لؤلؤ الطل عن لبده . وكان كالجواد العتيق يستقبل قعقعة السلاح بقهقهة الصهيل ، ويرقص على صدح الأبواق وقرع الطبول ، ويهز الأعطاف والأوصال كهز الكماة القنا العسال ، ويضرم الشد أيما إضرام كتضريم الهند الحسام ، نيران الموت الزؤام ، فى الجيش الكثيف اللهام . ولا أرى مراح بارنز ونشاطه وأمله ، إلا نتائج ما أوتى من عواطف الحنان والرأفة - أصل كل فضيلة وأساس كل مكرمة .

وربما أخذك العجب إن قلت: إن بارنز هذا أكبر نوابغ البريطان فى القرن الثامن عشر ، ولكنى أوقن أنه سيجىء اليوم الذى لا يعجب الناس فيه من قولى هذا . وشعره على ما فيه من قوة وفحولة ما هو إلا حفنة طفيفة من كنوز فضله ، وثمرة فجة من بستان عقله . وقد قال عنه الأستاذ « ستوارت » كلمة تقال فى كل شاعر ذى قيمة ، وهى : أن شعر بارنز لم يكن ملكة خاصة فيه ، وإنما هو النتيجة العامة لذهن حاد متوقد مطبوع ، بدا له أن يعبر عن أفكاره بطريقة الشعر . هذا ولقد كان حديث بارنز

المرتجل العادى أبدع من شعره وأبدع من حديث كل مخلوق ، فكان أعجوبة القوم ونادرة العصر وكان :

شرك العقول ونزهة ما مثلها ۞ للمطمئن وعقله المستوفز
إن طال لم يملل وفى إيجازه ۞ يهوى المحدث أنه لم يوجز

وكان حديثه كسلم الموسيقى قد جمع درج الألحان من أخفض جرس التحية وألين عبارة الملاطفة ، إلى أرفع صوت الغضب وأشد صيحة الوجد ، وقيمة ضحك الجذلان وزفير الولهان ، ورنة الثكلان ، وإيجاز المجترئ بإشارته ، وإطناب ابن المقفع فى يتيمته .

* * *

وقد شهره الأميرات البارعات الأدب ، بأنه كان يخلبهن بحديثه ويستخفهن حتى يكدن يطرن فى الهواء ، فهذا والله أعجب منه ما رواه النقادة النابغة المستر لوكهارت عن خدمة الفنادق ، كانوا إذا رقدوا فى فرشهم للنوم فسمعوا بارنز يتكلم وثبوا من مضاجعهم فالتفوا به وكلهم إقبال عليه وإصغاء لحديثه ، خدمة الفنادق ! وما لى أعجب من ذلك ؟ أليسوا رجالا ينصتون إلى رجل ؟ ولقد قرأت وسمعت كثيرا فى صفة حديث بارنز ، ولكن أجل ما بلغنى عن ذلك هو ما حدثنى به العام الماضى شيخ مسن كان من أخص أصدقاء بارنز ، وهو أن بارنز ما فتح فاه قط إلا ألقى منه حكمة . قال ذلك الشيخ : « وكان بارنز قليل الكلام كثير الصمت ، فإذا تكلم جلا من غوامض الموضوع وأوضح من مشكلاته » . ولا أرى لماذا يتعرض المرء للكلام فى الموضوع إذا لم يفعل كذلك ! وجملة القول إذا نظرنا إلى قوة نفس ذلك البطل وفحولته فى كل ما نطق وكتب وصنع ، وشدة صراحته ، وسمو همته ، وكمال مروءته ، ونفاذ بصيرته ، ووفرة رجولته ، تعذر علينا أن نجد له فى القرن الثامن عشر نظيرا :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ ۞ دد والمجد والمكارم مثلا

ولكنا إذا أجلنا النظر فى عظماء القرن الثامن عشر ، وجدنا بينهم رجلا فيه مشابه من بارنز — وهذا هو ميرابو ، فهما فى الجوهر متشابهان وإن تباينا زيا وتخالفا ظاهرا ،

نعم إنهما سواء فى قوة البدن وقوة الروح ، كلاهما غليظ الرقبة شديد الكدنة[1] ، كبير النفس ضخم الفؤاد ، ولكن ميرابو أكثر صخبا وأشد دفعة وقلقا بالفطرة والنشأة والشبه القومى . ومزية ميرابو بعد هى الصدق والعقل ، ونفاذ الرأى وحدة الجنان ، وكل أقواله جدير أن يحفظ ويمتثل ، وما كلمته إلا طعنة الرأى فى حشا المشكل ، ولمحة برق اليقين فى دجى الشك :

ألمعى موفق يهدى اللّـ ـه لدى الخطة العياء العقام
وإذا باد الحوادث بالرأ ى أصاب الصواب بالإلهام

* * *

ألمعى يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب

* * *

وكذلك كان بارنز ، وكلاهما كان جياش الصدر بمراجل الأهواء والشهوات ، طورا تعصف عصف الجنائب وتارة تخطر من النسيم ، وفى كليهما العارضة والبديهة والمزح والضحك والفكاهة ، والقلق والنشاط والتوقد ، والعزم والهمة ، والصدق والصراحة ، والجد والإخلاص . فهما من محتد واحد فى الكرم ، وإن تشعبت بهما بعد ذلك الأشكال . ومن جوهر بعينه فى النبل ، وإن تنوعت بعد بهما الأعراض والأحوال . فلو أن بارنز شغل مكان ميرابو فى الحكومة والسياسة لأجاد مثله فى كليهما . ولكن شجاعته العتيدة كانت ياللأسف تصرف فى أسر مهربى البضائع فى خليج سولواى بتلك البحار الشمالية . وفى السكوت عن كثير من المغضبات ، حيث كان لا يجدى الكلام وإنما الحنق الأخرس . ولو صادفت تلك الشجاعة موضعها لألجمت اللد الخصام فى المناظرة ، واستحقت قول القائل :

كم حومة للخطاب فرجها والقوم عجم فى مثلها خرس
شك حشاها بخطبة عنن كأنها منه طعنة خلس

ولَبَدتْ تلك الشجاعة لعيون الملأ طرا فى تدبير الدول وتنظيم الممالك وإصلاح شئون العالم . ولكن القوم ـــ أعنى الحكومة ـــ قالت لبارنز قول موبخ : « لست

---

(١) الكدنة : القوة .

للتفكير إنما أنت للعمل » فكأنها قالت له ضمنا : « لا حاجة بنا إلى قوة المفكرة ـ أكبر قوى البلاد في هذا القرن ـ وإنما نريد منك أن تمسح الأراضى ، ولسنا لغير ذلك نريدك » حسن والله هذا وجميل ! حتى لكأن قوة التفكير ليست فى كل آن ومكان أهم ما تحتاجه الدنيا . أوَليس شر الناس هو الرجل الذى لا رأى له ولا تفكير عنده ، ولا يرى وإنما يتجسس ويعيث ويتخبط ويهذى حقيقة الشيء الذى يزاوله ، ويظل حائرا مضللا لا خير فيه ولا ثمرة ؟ هذا هو شر الناس وهو الآفة والبلية . وعسى قائل يقول : ما بالك تعلن شكواك وندمك على ذلك ؟ أما تعلم أن ذا القوة قدما ممنوع من مجال إظهار قوته ؟ » نعم وذلك أضر بما نعيه وأبرح . وإذا كانت الشكوى قليلة الحدا فما ذكر الحقائق بقليلة . ولا يسعنى إلا القول بأن استغناء العالم الأوربى عن مثل بارنز والثورة الفرنسوية على الأبواب ، لا يدعونى إلا إلى الحزن والأسف .

وبعد فأهم صفات بارنز الإخلاص ، وهو أيضا أكبر مزايا شعره وعيشته ، وما قصيده الذى يتغنى به بمجرد تصورات وتوهمات ، وإنما إحساسات تجيش بخاطره وتثور بوجدانه . وسر ذلك وسر فضله فى جميع أركان حياته هو الحق . وحياة بارنز هى ما يمكن أن نسميه رؤية محزنة سداها الحق ، ولحمتها الإخلاص . ولكن الإخلاص المر الوعر ليس القاسى ، ولكنه إخلاص جرىء ثائر يساور الحقائق ليروضها ويقتادها . ومن ثم ترى فى جميع الأبطال روح التوحش والسطوة .

عبادة الأبطال ـ لقد يعزينا عن شقاء أولئك الكتّاب الأبطال إجلال بعض الناس إياهم ، ولكن أى حالة عجيبة وصل إليها ذلك الإجلال ! أما إن فى ازدحام خدمة الفنادق بباب غرفة الجلوس ، يرهفون الآذان لاستراق كلمة من كلام بارنز لإجلالا منهم لذلك البطل ، وإن كانوا بذلك لا يشعرون هذا . وقد أوتى جونسون فى اللورد بوزويل أخشع محترم ومعظم ، وسخر الله لروسو أشراف الدولة وأمراء بيت الملك يودونه فى غرفته الحقيرة ويجلون منه رجلا تقاسمته النوائب ، فشطره للبؤس وشطره للمس والخبل . تناقض وأيم الله عجيب ، وحياة لا يلتئم طرفاها وينكر أسفلها أعلاها ، فبينا هو يجالس العيون والسراة ، ويؤاكل الرؤساء والقضاة ، إذا هو ينسج بيده سطور الغناء لينال من القوت مسكة الذماء . ومن مأثور قوله فى هذا الصدد : « لقد حملت نفسى بالتغذى فى منازل الأمراء على خطر الهلاك جوعا فى منزلى » وفى ذلك

على عاشقيه ومعظميه من العار ما فيه . وعلى كل حال سواء نال الكتّاب الأبطال حقهم من الإجلال أو لم ينالوا ، فهم أساتذة العالم يؤدبونه ويحكمونه ويعظونه، وما نافذ فيه إلا كلمهم لا مرد لها ولا ملغي لحكمها . فعلى الكاتب البطل أن يفكر ويرى ، وعلى الملأ أن يذعن ويخضع، وعلى الكاتب أن يأمر ، وعلى العالم أن يصدع، وللعالم بعد أن يختار طريقة الإذعان والطاعة، فإما قهرا وإما اختيارا، وإما حسبة وإما اضطرارا ، إما صحو خريف فينان الظلال ، ناعتم الآصال ، طيب أرذان الصبا ؛ مصقول رونق الضحى ، وإما سحب صواعق تمطر الحين والبوار ، ونكباء تنسف الدور وتقتلع الأشجار ، طريقان متعاكسان مفضاهما واحد ، وصورتان متباينتان والجوهر فرد ، فإما نور مفيد وإما بريق مبيد ، وليس الأمر الهام هو ماذا نسمى البطل وبماذا نعامله ، وإنما هو الصدق كلمته ونصدع بأمره أم لا ، وإذا كانت كلمته صادقة وأمره الحق فسنعقدها ونعمل بها طوعا أو قسرا ، إن لم يكن بميلنا ورغبتنا فبرغم أنوفنا ، فأما هيئة استقبالنا إياه ومعاملتنا له ، فذلك من شئوننا وراجع إلينا ، وأما كلمته فتلك رسالة الله إلى العالم ، ولا بد من أن ترغمنا على تصديقها وتستولى على نفوسنا .

وآخر أقوالى فى هذا المبحث كلمة عن أهم حوادث حياة بارنز ، أعنى وفدته على إدنبرج ، وطالما رأيت أنه قد كان فى رباط جأشه هنالك وثبات جنانه ، أوضح آية على وفرة رجولته ورجاحة فضله . لقد كان فى انتقاله من أسفل حضيض البؤس والكرب والخمول ، إلى أشرف ذرى النعمة والهناء والذكر ما هو جدير أن يطير بلب أى امرئ ويذهب بعقل أى إنسان . فبينما روبرت بارنز فلاح مسكين قد رزأه النحس ، أجرته الزهيدة سبعة جنيهات فى العام ــ فعادت الدنيا فى عينيه أضيق من بياض الميم ، وخرج على وجهه يريد الهجرة إلى أمريكا ، إذا به قد ولج زمرة الأشراف والأمراء فأفسحوا له بينهم أكرم مقام ، وبوءوه صدور المحافل ، وخاصرته ربات القدود يسايرنه مزهوات بمسايرته ، رانيات إليه بأعين الجآذر ، عاطفات سوالف الآرام[1] وأتلعت نحوه الأعناق ، وازدحمت فيه العيون ، فعليه من حدق نطاق ،

---

(١) سوالف جمع سالفة وهى صفحة العنق . الآرام جمع رئم وهو الظبى .

والضرّاء ثقيلة على كاهل الرجل ـ ولكن السرّاء أثقل ، وفى كـل ألـف مـن النـاهضين بعبء البؤس واحد ينهض بثقل النعمة ، ونادر فى الناس من له أن يقول :

كلّ بلـوت فـلا النعمـاء تبطرنى ... ولا تخشعــت مـن لأوائــه جــزعا

ولا نعلم فى الناس من فوجئ من النعمة بمثل ما فوجئ به بارنز ، ولا نظن أن رجلا غيره كان يبدى ما أبداه من الرزانة والوقار . فلقد لقى ذلـك الحادث الجليـل لا حـائرا ولا وجلا ، ولا هائبا ولا خجلا ، ولم يؤت من ذلة ولا استخذاء ، ولا مـن نخوة ولا غلواء ، وكان يشعر وسط هذا الجمع الزاهر أنه هو روبرت بـارنز الفـلاح المتواضع ، وأن هذه المرتبة السامية والجاه العريض ليس إلا من قبيـل النقـش فـى صفحـة الدينـار لا ينقص من قيمته ولا يزيد ، وإن الشهرة ما هى إلا ضياء يرسل على الرجـل فيريك أى رجل هو ، ولكنه لا يجمل منه ولا يقبح ولا يشوه من صورته ولا ينقح ، غير أنــه ربمـا قبح وشوه بما يملأ الرجل كبرا وغرورا ، ويصعر خده ويصلف جانبه ، وبما ينفخه حتى يتصدع فيعود كالأسد الميت خير منه كلـب حى ، فبـارنز فى هـذا الأمـر قـد بـرع وفاق ، وجاء غرة زهراء فى جبهة السبـق . ولكن هؤلاء الجماعة ـ عشاقه المعجبين بـه ـ هم كانوا سبب شقوته وموته ، هم الذين حرموه لذة العيـش وحـرموا عليـه طيـب الحياة ! هم كـانوا يلتفون به فى حقـله ، ويحولون بينه وبـين عملـه ، لا يقعدهـم عنـه بعد الدار ولا شطط المزار :

فأضحـوا ولو كانت خراسان دونهم ... رأوها مكان السوق أو هى أقـرب

لقـد أعيـى عليـه مـع صدق الجهـد والمحاولـة ، أن يمحـو ذكـر نفسـه مـن أذهـــان الجماعة ، وكم أراد ان يفصم عروة ما بينه وبينهم فما أفلح ، وهكذا تقلب عليه الدهـر بالأكدار والمحن والخطايا ، وأدبرت عنه الدنيا وزايلـه الأمـن والعافيـة والغبطـة وحسـن السمعة ، وأصبح إلا من الهموم والأشجان منفردا ، وإن فى ذكراه واللّـه لحزنـا وبثـا ، وفيم كانت زيارات القوم إياه إذا لم يكونوا يقيلون عثرتـه ، ويسـدون خصاصته[1] ؟ بلى إنه ما من رحمة كانت زيارتهم وإنما للهو والتفكـه ، وذهبـت حيـاة البطـل ضحيـة ذاك .

---

(١) الخصـاصـة : الفقـر .

قال ريشتار : إن فى جزيرة « صوماطرا » ضربا من جسيم الذباب براق الأجنحة، يستصبح به سراة القوم فيجعلونه فى أطراف العصى كالذبال ويسيرون فى ضوئه . وهكذا ينعم سراة القوم بأمثال النجوم الطوالع ، والشهب اللوامع ، فسلام الإله وريحانه على تلك الذباب !

المحاضرة السادسة

البطل فى صورة ملك

كرمويل ـ نابليون

الثورة فى العصور الحديثة

الثورة الإنكليزية

نذكر اليوم آخر أشكال البطولة ـ ذاك الذى نسميه الإمارة ، وأمير الناس وقائدهم الذى عن رأيه يصدرون ، ولأمره يذعنون ، وبه فى جميع الأمور يقتدون ، واجدين فى ذلك الخير والفلاح والفائدة . إنه لجدير أن يبوأ من ديوان الأبطال صدره ويحمل فى دولة العظماء اللواء ، وإنما هو فى الحقيقة جملة البطولة على اختلاف أصنافها ، وهو الخلاصة والزبدة والعصارة ، وقد جمع الله فى ذاته سائر ضروب الأبطال ، وليس ذلك على الله بمستنكر .

وقد تعرض هنا مسائل خطيرة ومباحث معضلة ، يمنعنا من طروقها ضيق المجال . وإنما نذكر كلمة شبيهة بكلمة (بيرك) حيث يقول : (إسناد القضاء إلى نخبة من القضاة يشتركون فى إصدار الأحكام ، هو روح الحكومة) فكذلك نقول نحن : إن خلاصة أعمال المجتمع الإنسانى سواء سارت على طريق الخطأ أم على منهج السداد ، هو الاهتداء إلى أعقل رجال بلدك وأفضلهم وأحزمهم ، ثم تقليده الحكومة والسلطة ، وإعطاؤه الخضوع والطاعة ، حتى يستطيع بذلك أن يهدى الناس حسبما يلهمه عقله ويوحى إليه فؤاده . وإنما إلى ذلك قصدت لوائح الإصلاح والثورات فرنسية وغير فرنسية ، اهتد إلى أعقل رجال بلدك وأكفئهم وارفعه إلى المكان الأعلى ، وبجله وأكبره تحرز لبلادك خير حكومة . وإنك إن تفعل هذا فقد بلغت المدى وكل شيء بعد ذلك فضول ولغو . فإن أعقل الرجال هو أيضا أكرمهم وأبرهم وأرحمهم ، وليس فوق

نصحه نصح . وقول الإمام إمام القول وكل ما يأمرنا به فهو ولا شك أحكم وأليق وأعلى ما نستطيع أن نجده تحت قبة الفلك . وهو ما يجب علينا أن نأتمره ونصدع به مع الحمد والشكر ! وتلك الحكومة هى الضالة المنشودة والغاية القصوى .

أقول الغاية القصوى والله يعلم أن الغايات تبلغ بالأمل ولا تنال بالفعل ، وللأمانى جياد سابحات تسبق وفد الرياح ، يرسلها الفكر فى مضمار الوهم فتطير بأجنحة الرجاء إلى كل غاية أبعد منالا من الثريا . فإذا طلبت تلك الغاية بأفراس العمل فى ميدان الحقائق قامت العقبات ، واعترضت النوب والآفات ، وسقطت الجياد أثناء المضمار طلحا أنضاء ، حسرى الجهد والإعياء ، دامية السنابك من الجفاء ، مهزولة الأعطاف من الأين والوجى ، وكذلك تبقى الغايات منا طعمة المنى سخرة الواقع ، كالخيال فى المرآة يبيح العين ما يمنع الكف :

أو كالسماء وكل ما زينت به   وكبعدها وكقربها من لاق

وإنا وإن استحال علينا أن نبلغ الغايات ، فحسبنا أن نأخذ فى سمتها أو نقع منها على مسافة ترضى وتسر ! ولا يقل أحد من الناس ما نهى عنه الشاعر الألمانى (شلر) إذ قال : « المرء تلقاء الحوادث ضعيف ، فلا يقس أحد منكم مجهود النزر القليل بمقياس الكمال » ومن خالف هذا القول كان مريض العقل بداء السخط ، مأفون الرأى مصدودا عن الحق ، ولكن لا ينس المرء مع ذلك أن نجعل الغاية نصب العين فإنه لا يقوم عمود صلاح الدين والدنيا على أساسه ويستقر به فى نصابه ، حتى ينزل الإنسان قريبا من الغاية ، فإذا لم يتم له ذلك انهارت دعائم الصلاح وتقوض رواقه ، ونحن نعلم أنه ليس فى العالم بناء يمكنه أن يشيد جدارا فيجعله فى أقصى درجة العمودية ، أى أن يجعل الزاوية الحادثة بينه وبين سطح الأرض تسعين درجة بالضبط لا تنقص ولا تزيد درجة . كلا فهذا مستحيل علميا ، فكيف باستحالته عمليا ؟ ولكن إذا لم يدن البناء بالجدار من هذه الغاية بعض الدنو ، فأحر بجداره أن تنهار أركانه ، وينهدم جثمانه . نعم إذا استهان بقانون العمودية وطرح مقياسه ومعياره ، وجعل يراكم الطوب بعضه على بعض بلا نظر ولا حساب كيفما اتفق ، فأجدر به أن تسوء عقباه ويشقى ، فإنه قد أغفل أمره ونسى نفسه . ولكن قانون التوازن ـــ ناموس

الطبيعة - لم ينس أن يسرى عليه وعلى بنائه ، وما هى إلا برهة حتى يسقط هو وبناؤه فيرتد كثيبا مشوشا ومعهدا خربا .

وهذا هو أصل كل فتنة ، وتاريخ كل ثورة ، وحديث كل انفجار اجتماعى فى الأزمان القديمة والحديثة . أجل إنما سببها هو أنك وليت الرجل العاجز وجعلت غير الكفء على رءوس الأعمال - الرجل الخسيس السافل الدنيء الكاذب ، ونسيت أن هنالك قانونا أو ضرورة طبيعية تستدعى تولية القادر الكفء ، وظننت أنه لا بأس عليك إن تراكم الطوب بعضه فوق بعض كيفما جاء واتفق ، بلا قاعدة ولا حساب . والرجل الكاذب إذا وليته كان جديرا أن يتخذ كل كاذب خبيث مثله ، ومن ثم يروح أمر الناس مختل النظام مبدد الشمل ، تأكل جوفه الخيبة ويهدم أركانه الشقاء والبؤس . وترى الملايين من خلق الله قد اضطربت عليهم أمور دينهم ودنياهم ، واسودت فى عيونهم ظلمات اللبس والحيرة ، فهم يمدون الأيدى استهواء ولا هادى ولا مرشد ، ويبسطون الأكف استعطاء ولا مانح ولا رافد . وحينئذ ينفذ قانون التوازن حكمه ، وتسرى نواميس الطبيعة ، وهى التى ما غفلت عن العمل طرفة عين ، فتثور الملايين ويجن جنونهم ويسقط البناء والبنّاء .

إن من يفتش الآن المكاتب العامة والخاصة ، يلق بها أسفارا ضخاما ومؤلفات جساما تفيض فى موضوع (حقوق الملوك المقدسة : ومعناه أن كل مالك مهما كان ، هو خليفة الله فى الأرض قد ولاه الملك القدوس زعامة خلقه بعقد مقدس خفى ، فعقدت فى رقاب العباد بيعته ، ووجبت عليهم طاعته ، واستحكمت فى نفوسهم مهابته وخشيته) . تلك هى عقيدة القرون الغابرة ، ورأى آبائنا الأول . عقدة دفنت معهم فى قبورهم ، ورأى بان بينهم ، ومذهب عفت رسومه وطمس الدهر أعلامه ، ومجلدات كالقبور تبلى فيها أفكارها ، وتنخر فى أجوافها عظام محتوياتها ، لا يزورها إنسان ولا يعوج بها مخلوق ، وباطل لاح فى ظلم الجهل ثم محا آيته نور اليقين ، ودولة زور استقل نجمها ثم خوى ، واشمخر طودها ثم هوى ، وأكذوبة أديل منها الحق . وإنى مع ذلك لا أرى من كرم الطبع وشرف الشيمة أن نتبع ذلك الباطل المدبر لعناتنا ، ونلحقه أهاجينا وشتماتنا ، فحسبه هزيمته وكفاه خزيه وفضيحته ، بل أرى - ولا يعجب القارئ ولا يرع - أنه لا يحسن بنا أن نترك هذ الزور والمحال يمضى من

غير أن نفتش أجزاءه ، ونفحص أنحاءه وأرجاءه ، ونقلبه بطنا لظهر علنا نجد فى ثناياه معنى من الحق ، وأن فيه لحقا يجدر بنا وبسائر الناس ذكره . أما قول هذه المؤلفات : « إن أى إنسان تأخذه عينك من بين الناس وتمسكه يدك فتجعل على رأسه صفيحة من الذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، وتسميه ملكا يرسل اللّه عليه فى الحال شعبة من نوره ، ويمده بروح من عنده ، ويعمر فؤاده بأسراره القدسية ، ويؤهله فى التو واللحظة لأن يحكم عليك حسبما تقتضى مشيئته ، فذلك حمق وخرافة ، وحسبه منا أن نتركه يبلى ويعفن فى أجواف كتبه ، أو بعبارة أصدق أجواف قبوره . ولكنى أقول ــ وهو ما عناه وأراده أرباب مذهب .. حقوق الملوك المقدسة .. : وهو أنه يوجد فى الملوك وفى جميع العلائق والمسئوليات والسلطات التى تكون بين الولاة والرعية . إما حق مقدس أو منكر شيطانى . لا بد من أحد هذين إذ أنه من أفحش الخطأ والكذب ما قاله القرن السالف الكافر ، من أن هذه الدنيا آلة ومكينة ، بل إن فى الكون لإلها ، وكل ما يجرى بهذا العالم من حكومة والٍ وطاعة رعية ، بل كل عمل وحركة لا بد أن يبوء إما برضى وإما بغضب من اللّه ، وأشرف ما يجرى بين الرجل والرجل هو لا شك الحكومة والطاعة . والويل لمن يطلب من طاعة الناس ما لا يستحق ، ولمن يأبى أن يؤدى من الطاعة ما أوجبه اللّه عليه لزعيم أو أمير . بذلك يجرى قانون اللّه المقدس مهما سنت شرائع البشر ونهجت نواميس الحكومات . نعم إن فى كل دعوى يدعيها الرجل على أخيه إما حقا مقدسا أو منكرا شيطانيا .

هذا أمر جدير بالنظر والتدبر ، وخليق أن نذكره فى جميع شئوننا ولا سيما فى أمر الزعامة والولاء أهم تلك الشئون . وعندى أنه شر من مذهب « حقوق الملوك المقدسة » هو ذاك المذهب ، إن العالم يدور على محور المصلحة الذاتية وتدبير الثروة ، وإنه لا معنى هناك مقدسا فى تعاشر الناس وتخالطهم ، وإنى أكرر عليك قولى : « إنك لن تأتينى بالملك القادر الكفء لأجعلن له على حقا مقدسا » . ولعل دواء أدواء الأمم فى هذه العصور هو أن يوفقها اللّه بعض التوفيق إلى إيجاد الملك الكفء ، وأن يلهمها طاعته والانقياد إليه إذا وجد ! وإنى أرى فى الملك القادر ـــ هادى الأمة فى سبيل الأعمال الدنيوية ــ خلة الدين كذلك ومعنى القسوسية . فهو أيضا هادى الأمة فى سبيل شئونها الروحانية التى هى مصدر الشئون الدنيوية . فالملك لذلك رئيس

الكنيسة أيضا . ولندع بعد مذهب « حقوق الملوك المقدسة » يبلى فى أجواف مؤلفاته أو قبوره ، لا نوقظ صداه ولا نستثير هامته .

وحقا إن التماس الرجل الكفء والحيرة فى ذلك لمن أشق الأمور وأجسمها ! وتلك هى آفة الأمم فى هذه العصور والأزمة الحرجة . هذه أوقات ثورات ، وإنى أرى بناة شئون الدنيا قد اطرحوا المقاييس والمعايير وأغفلوا قانون التوازن ، فانهار البناء بهم فإذا هم والبناء خليط أنقاض مشوش ! وليست الثورة الفرنسية هى مبدأ هذا التهدم والسقوط بل لعلها الغاية والنهاية . ولا نخطئ إذا قلنا إن المبدأ كان منذ ثلاثة قرون أى منذ نهضة لوثر ، وكان داء العالم إذ ذاك تحول كنيسة اللّه أكذوبة ، ووقاحتها وصفاقة وجهها إذ تدعى لنفسها القدرة على غفران ذنوب العباد بالدرهم والدينار ، وكان هذا مرضا فى الدين - داء فى الروح والجوهر . ومتى أدوى الجوهر واعتل الروح فأحل بالجسم والظاهر أن يفسد ويذوى - ثم يزداد فسادا ومرضا ، لقد كان الإيمان قد فنى وباد ، وفاض الشك وتفشى الجحود والإلحاد ، وطرح البناء معياره ومقياسه وقال لنفسه : « أى قيمة لقانون التوازن ، وأى فضل فى الحساب والنظام ؟ ضع الحجر على أخيه كيفما جاء واتفق ، ولا يعنيك أن تجشم النفس مراعاة قانون أو حساب ! » وكانت العاقبة يا للأسف كما تعلمون !

وإنى لأتبين اتصالا طبيعيا والتئاما تاريخيا ما بين مقالة لوثر إذ قال للبابا : « أنت أيها الملقب نفسه « البابا » إفكا وزورا ، ما أنت بأب فى الدين ولا والد لنا فى اللّه ، إنما أنت أكذوبة يعجز اللسان أن يجد بين الألفاظ المهذبة الرقيقة ما يليق بنعتك وصفتك ! » وبين صيحة الثورة الفرنسوية إذ علا بها ضجيج الثوار فى قصر الإمارة يصيحون « إلى السلاح ! إلى السلاح ! » . ولا يحسب الحاسبون أن هذه الصيحة المزعجة الجهنمية كانت شيئا حقيرا أو باطلا ! كلا إنما كانت صوت الأمم النائمة هبت من رقاد كاد يخنقها أثناءه الكابوس - نعم صوت الأمم هبت من حالة بين الرقاد والموت فبدأت تشعر أن الحياة شىء حق ، وأن عالم اللّه ليس بمكينة تساس بالدهاء والمكر ، وتدبر بعلوم الاقتصاد والرياضة . نعم لقد هبت فأرسلت صيحة جهنمية - وإنما أتت جهنمية لأن طغاة الملوك وعتاة الحكام أبوا إلا أن تكون كذلك ، لقد هبت الأمم وقالت لابد للأباطيل أن تنتهى ويخلفها نوع من الإخلاص كيفما كان ، ولابد

لنا من عودة إلى الحق ولو جرت علينا أهوال ثورة فرنسية ، وجلبت على رءوسنا شر الفظائع وأشنع البلاء ، هذه هى الثورة الفرنسوية - هى كما ترون حق ، ولكنه حق ملتفع فى شواظ الجحيم ولظى جهنم !

وكان قد ذاع لدى جماعات كثيرة من أهالى إنكلترا أن الأمة الفرنسوية كانت فى تلك الأوقات (أوقات الثورة) قد جنت ، وإن الثورة الفرنسوية كانت صنفا من الجنون تحولت فرنسا وفرق عظيمة من سكان المعمورة أثناءه مارستانا . ذلك كان رأى العدد العديد من الإنكليز وفلاسفتهم . إن الثورة كانت حريق جنون شب ثم خمد وأصبح الآن فى عالم الأحكام والأوهام ، والقصص والعجائب ، والنوادر والغرائب ! فليت شعرى كيف كان وقع الثورة الثانية - ثورة ١٨٣٠ فى نفوس هؤلاء الفلاسفة الذين حسبوا أن الثورة الأولى كانت فلتة جنون وبيضة الديك ، وأن حديثها أصبح كحديث الخرافات لايكاد يصدق ؟ ماذا كان شعورهم حينما رأوا فرنسا قد ثارت ثانيا إلى السلاح تكافح كفاح المستميت تَذبح وتُذبح ، وكل ذلك لتؤيد الثورة الأولى وتحفظ آثارها ونتائجها ؟ نعم إن أبناء رجال الثورة الفرنسوية وأحفادهم يبررون عمل آبائهم وأجدادهم ، ويأبون إلا تمسكا به وإصرارا عليه . هم لا يبرأون منه إلى الله ، بل يعملون على حفظ أثره ، واستنتاج ثمره ، باذلين الدماء والأرواح فى سبيل ذلك . ولعل فى هذا الحادث (حادث الثورة الثانية) أكبر مصاب لأولئك الفلاسفة الذين أسسوا مبدأهم وشادوا مذهبهم على أن الثورة الفرنسوية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا ، ولا يعود بها الزمن أبدا ، نعم إن فى ذلك الحادث نكبة لأولئك الفلاسفة ، حتى لقد ذاب قلب الأستاذ الألمانى « نيبور » كمدا وتقطعت نفسه حسرة ، لما بلغه نبأ هذا الحادث ، ثم اعتل على أثر ذلك وقضى نحبه قتيلا بداء الأيام الثلاثة (هو اسم ثورة ١٨٣٠) وما هكذا تموت الرجال -! ولست أشبه هذه الموتة إلا بموتة الشاعر الفرنسى الكبير (راسين) الذى قتله آن لويز الرابع عشر تجهمه[1] مرة ورمقه شزرا ، فيا ليت الأستاذ الألمانى علم أن الكرة الأرضية صلبة جلدة ، وأنها طالما تحملت صدمات الدهر وضربات القضاء ، وأنه ليس من البعيد أن تعيش وتبقى وترى دائرة

---

(١) عبس فى وجهه سخطا .

حول محورها بعد ثورة (الأيام الثلاثة) . ولقد جاءت تلك الثورة الثانية لتعلم الناس جميعا أن الثورة الفرنسوية لم تكن قط فلتة جنون ولكنها ثمرة حرة من ثمار هذا العالم ـ عالم الله ، وأنها كانت حقا يحسن بكل إنسان أن يعده حقا لا باطلا ولا جنونا .

وحقا أنه لولا الثورة الفرنسوية لأشكل علينا ماذا نصنع بعصر مثل ذلك العصر الملعون ، ولعميت علينا وجوه الرشد ، واستبهمت معالم القصد وكنا لا محالة هالكين . وإنا لنرحب بالثورة الفرنسية ترحاب المشرفين على الغرق بالصخرة العبوس . وهل كانت الثورة الفرنسوية إلا كذلك أو وحيا صادقا ورسالة حقا ، وإن راعت القلوب وأزعجت الخواطر فى عصر تصنع وكذب ـ رسالة تنبئ أن للكون سرا ، فإن لم يكن إلهيا فهو إذن شيطانى ، ولكنه سر على أية حال . وأن التصنع والغش ليس بحق ، وأنه لا بد أن يتحول حقا ، وإلا اشتعل العالم تحت ما يستره من أثواب الغش واللؤم والباطل فأحرقها . وليت شعرى إذا احترقت فصارت « لا شىء » ، أفهل كانت قبل ذلك إلا « لا شىء » . نعم بالثورة الفرنسوية انتهى التصنع والغش والباطل الأجوف الفارغ ، وانتهى شر كثير وفساد جم . والثورة الفرنسوية رسالة الله إلى الأرض صدع بها صوت من الرعد ، أو صرخت بها نفخة إسرافيل فى الصور يوم القيامة ؛ فمن أسرع إلى اعتقاده أصاب خيرا وحمد العقبى ، ثم لا طمأنينة ولا صفاء ، ولا أمن ولا سلام أو تعرف هذه الرسالة حق اليقين . وقد كان الرجل وسط هذه الأباطيل والأكاذيب والأضاليل جديرا أن يصبر وينتظر ـــ جديرا أن يمضى فى شأنه ويعنى بعمله ، ويعلم أن القلم العلوى قد جرى بحكم الهلاك والموت على هذه الموبقات والشرور ، وإن هذا الحكم الصارم قد كتب اليوم فى الأرض بعد أن صدر فى السماء . لقد كان الرجل المخلص جديرا أن يرى ذلك ، فيغتبط ويصبر وينتظر ، ثم هو من وجهة أخرى إذا أبصر ما قد وقع فيه العالم من الأزمات والشدائد ، وصيحاته المتوالية يطلب انفراج الأزم وتراخى الخناق ، كان جديرا أن ينصرف بحكم هذه الضرورة عن شأنه وعمله إلى شئون أخرى ، لا سيما وقد نال السيل الزبى وبلغت الروح التراقى . وعندى أن أنفس الحقائق فى مثل هذه الحوادث (حوادث الثورة) هى حقيقة « عبادة الأبطال » فإنها أجمل العزاء وأحسن السلوة فى هذه

الأوقات ، وأملنا الوحيد في سياسة الدنيا وتدبيرها . ولو أن الثورة هدمت جميع التقاليد والنظامات،والعقائد والمذاهب ، والملل والنحل لسلمت لنا هذه الحقيقة ، فإن ثقتنا بأن الله مرسل لنا الأبطال ، وما جبلنا عليه من إجلالهم حينما يرسلون إلينا — هذه والله نعمة تشرق علينا كنجم هداية وسط غياهب الدخان وغياهب النقع ، ووسط كل انهدام وانفجار .

ولو أنك أسمعت ثوار الثورة الفرنسية كلمة « إجلال الأبطال » لوقعت منهم موقع التكذيب والإنكار ، ولأرخوا دونها حجب الآذان وقالوا حديث خرافة . فقد كان هؤلاء المجاهدون فضلا عن عدم احترامهم الأبطال لا يصدقون بوجود الأبطال ، بل لا يودون أن يجيء الزمن ببطل قط ، وكأنهم ظنوا أن الكون بعد أن تحول مكينة ، وهن وبلى حتى ضعف عن إخراج الأبطال وعقم صلبه منهم ، وإذا صح أن الكون قد أصبح كذلك فإني قائل له أولى لك أن تكف بالمرة عن إخراج الرجال ، فإنا لا نقبل بضاعة ليس فيها التحف والنفائس ، ولا نرضى بأنسجة ليس فيها الخز والديباج ، أو بالاختصار لا غنى لنا عن الأبطال . أما مذهب « الحرية والمساواة » فقد كان من نتائج تلك الأحوال ، كان إذ ذاك شيئا طبيعيا فلذلك لا يجمل بي أن أرد عليه ، ومعنى « الحرية والمساواة » هو هذا « بما أنه قد استحال وجود العظماء والأبطال ، فللعالم الآن أن يستغنى عن هؤلاء الأفذاذ النوادر بالجماهير العديدة المتساوية فى ضئولة القدر وخسة القيمة وخفة الأحلام وعجز الآراء » ماذا أقول فى هذا المذهب وبماذا أقابله إلا بعذر أربابه والسكوت عنه كحقيقة كان لا بد منها إذ ذاك ، ولا مفر ؟ ذهب أرباب ذلك المبدأ إلى أن الناس أحرار متساوون ، وإنه ليس لرجل أن يسود ويقود ويتسلط ، وحجتهم على ذلك أن عبادة الأبطال واحترام المسلطين والزعماء والقادة قد ظهر فسادهما وما هما إلا كذب وباطل . فحسبنا منهم ما كان ، لقد خدعنا من هذا الطريق مرارا حتى فنيت الثقة به ، وطال تصديقنا حتى لا نصدق ، وإذا كثر مجال النقود الزائفة فى الأسواق كذب الناس بوجود الذهب الصراح . وإنه قد تصلح الأمور وتستقيم الحال بلا ذهب ، أنا لا آخذ القوم بهذه الآراء بل أعذرهم عليها ، وأرى أنها كانت ثمرة ذلك العصر الطبيعية ، وإن كانت صابا وعلقما .

وبعد فليس هذا المذهب إلا تحولا وانتقالا من الباطل إلى الحق وليس هو بالحق ، فإذا رئى(١) أنه الحق بأكمله فهو إذن باطل محض ـ نتيجة الشك الأعمى يحاول أن يكشف عماه ليبصر ، فإن عبادة الأبطال موجودة فى كل زمان ومكان . وما هى قاصرة على إجلال الملوك والسادة والسواس والقادة ، بل إنها لتمتد من عبادة الله إلى أحط مواطن الحياة العملية . وانحناء الرجل لأخيه بالسلام ما لم يكن خديعة وملقا فهو من قبيل عبادة الأبطال ، واعتراف بأن فى كل إنسان خلقه الله روحا من الخالق ، وأن كل امرئ مظهر لجلال الله . وعندى أن الذين أبدعو إشارات التحية ودلائل الملاطفة والاحتفاء التى تجمل الحياة وتزينها هم شعراء . وآداب المقابلة والمعاشرة ليست بكذب ولا باطل ، والولاء والإجلال المفرط المشرف على العبادة لا يزال من الممكنات بل من المحتمات .

وإنى أقول : إنه وإن رأينا كثيرا من أبطال العصور الأخيرة قد ظهروا فى الثورات وكانوا ثوارا ، فإنهم بفطرة الله أبناء نظام لا ثورة ، واشتغالهم بالثورة بلية عليهم ومصيبة . إذ يرى أحدهم فى الفتنة وكأنه فوضوى ، وما هو بفوضوى ولا كانت الفوضى قط من شأنه ، ولكن جوا من الفوضى يحيط به ، وعقبات منها لا تزال تعتاقه وتعرقل مسعاه ، وهو عدو الفوضى وخصمها ، وإنما النظام عمله وظيفة كل إنسان . وما خلق الله الإنسان إلا ليصلح الفاسد ويلم الشعث ، ويعمد إلى الشىء المختلط فيصيبه فى أبدع قالب من النظام ، ويلقيه فى أكمل صورة من التنسيق والإحكام . والإنسان رسول النظام ، أوَ ليس كل ما يصنع المرء فى هذه الدنيا هو تنسيقا وتنظيما ، فالنجار يعمد إلى الشجر الغليظ الأشعث فينعم نحته وتمليسه ، ويحسن تقديره وتصويره ، ويجيد خرطه وصقله ، ويقلبه فى أعجب القوالب والصور ، ويتركه ذا نفع للناس ووظيفة فى المجتمع ، وقد خلقنا الله جميعا أعداء الفساد والفوضى . وإنه لمن البلية علينا جميعا وسوء الحظ أن نصرف عن التنسيق والتنظيم ، إلى التقويض والتحطيم ، وسوء الحظ فى ذلك والبلية مضاعفة على الرجل العظيم الذى يكون حبه للنظام على قدر عظمته .

---

(١) رئى فعل ماض مبنى للمجهول والضمير عائد على المذهب .

وكذلك نرى أن أشد أعمال الثورة الفرنسوية جنونا كانت تسير نحو النظام . أقول وليس رجل من أولئك الثوار قد طار فى دماغه جنون الحنق والفتك إلا وهو مدفوع فى كل حركاته نحو النظام منجذب إليه ، وكيف وما حياته نفسها إلا مسيرة نحو النظام ، بل لهى النظام ذاته . إذ أن الفوضى هى الفساد هى الموت ، وما من فوضى تثور إلا ويجعل الله لها قطبا تدور عليه فتتحول بفضله نظاما . وما دام الإنسان إنسانا فسيكون للثورة رجل كنابليون أو كرمويل تختم به وتتم . عجبا والله كيف تكون عبادة الأبطال فى أزمان الثورة ضربا من المحال فى عقيدة الشعب السائر ، ثم لا نلبث أن تبدو للعيان فلا يستطيع أحد إنكارها ، وأرى « الحق المقدس » معناه على وجه العموم « القوة المقدسة » . فإذا حسبت الإمارة والسلطة فى عصور الثورة انمحت وماتت ، إذا بها قد عادت إليك فى شخص نابليون أو كرمويل ، وإنما هى المظاهر الكاذبة والقشور قد هتكت وأتلفت وظهرت الحقائق والجواهر من ورائها صحيحة خالدة ، وتاريخ نابليون وكرومويل هو ما سننظر فيه الآن إن شاء الله ، وهو آخر أصناف البطولة كما قسمنا ، وإنى أرى فى تاريخ هذين البطلين ما يعيد إلينا عهد الملوك فى طفولة الأمم ، إذ يرينا كيف كانت تنشأ الإمارة فجر تاريخ العالم ، وكيف كانت تولى الملوك يومئذ .

كرومويل ـ نابليون بونابرت

يعلم الذين نظروا فى كتاب الأبطال الذى وضعه الفيلسوف الإنكليزى توماس كارليل ، وعربه الفاضل محمد السباعى ، وأخرجته للناس مكتبة البيان أننا انتهينا فيما أظهرناه من هذا الكتاب إلى الكلام على كرومويل ونابليون بونابرت . وأنا الآن إتماما للفائدة ، ولأن كارليل خير من كتب على نوابغ العالم ، وكرومويل ونابليون هما من أنبغ النوابغ ، آثرنا أن نتحف قراء البيان بتلك الكلمات الإلهية التى خرجت من قلب ذلك الرجل الإلهى (كارليل) عن كرومويل ونابوليون . قال كارليل تمهيدا للكلام على كرمويل .

* * *

لقد حدثت فى إنكلترا حروب داخلية كثيرة : حروب الوردة الحمراء ، والوردة البيضاء ، وحروب سيمون دى مونتفورت ـ حروب ليست من الأهمية بمكان . ولكن حرب الخوارج (البيوريتان) كان لها من الخطارة ما لم يكن لغيرها . حتى ليجوز لى أن أسميها جزءا من تلك الحرب العظيمة العامة التى ليس إلا منها يتكون تاريخ الدنيا الحر الصميم ـ حرب الإيمان ضد الكفر ! جهادِ حزب الله المتمسكين بالحقيقة ضد الكذبة الفجرة العاكفين على المظاهر والقشور . وقد لا يرى الكثيرون فى خوارج إنكلترا إلا عصبة سفلة غلاظا فظاظا مولعين بهدم الرسوم وإتلاف القوالب والأوضاع ، وأجدر بهم أن يدعوا أعداء الرسوم الكاذبة . ولعلنا نجد لهم عذرا فى احتقارهم البطريق « لود » زعيم الديانة إذ ذاك ، وحنقهم عليه وعلى أميره الملك تشارلس الأول . و « لود » هذا هو فى رأيى ضعيف العقل منكود الحظ وما هو بالخائن اللئيم ، وإنما هو رجل أحمق ؛ وأكبر حمقه التمسك الأعمى بمذهبه والاستبداد الممقوت برأيه ، وهو كناظر مدرسة لا يرى فى العالم شيئا إلا قواعد مدرسته ورسومها وأوضاعها ، معتقدا أن هذه هى قوام الدنيا وعماد الوجود ، وأن صلاح الكون مرهون بها . والمحنة العظمى والطامة الكبرى

أن الملك تشارلس الأول عمد إلى هذا الرجل الذى رأيه فى الكون والحياة والوجود هو ما ذكرت ، وجعله الرئيس لا على مدرسة بل على أمة يدير من شئونها أكثرها إشكالا ، ومن حاجها ومصالحها أشدها اعتياصا وإعضالا ، ويرى هذا الرئيس الشقى المسكين أن تدار تلك الشئون والمصالح بالقواعد القديمة والنظامات العتيقة ، بل يرى أن نجاحها فى إعلاء شأن هذه القواعد وتأييد أسبابها ، ثم تراه كالأحمق الضعيف يندفع بأقصى الشدة والعنف فى سبيل غايته لا يجيل رأيا ولا يعمل روية ، ولا يسمع نهيا ولا يصغى إلى نصيحة .

جامحا فى العنان لا يسمع الزجر ولا يرعوى إلى الرواض

هو كما قلت رجل أعمى التعصب أحمق الاستبداد ، يأبى إلا أن ينفذ قواعده المدرسية على نفوس الأمة ــ قائلا للشعب : تنفيذ قواعدى قبل كل شىء ! له الله من مستبد أحمق . أبى إلا أن يجعل عالم الله الطويل العريض مدرسة ، ويأبى الله أن تكون دنياه مدرسة . وبعد فيغفر الله له أفلا ترون أنه لقى من العقاب ما هو أهله ؟

(وبعد) فالحرص على الرسوم والأوضاع حميد مستحب إذ أنه من شأن الديانات وغيرها أن تلبس الرسوم والأشكال ، ولا مقام للإنسان قط إلا فى الأمكنة ذات الرسوم والأوضاع . ولست أحمد فى المذهب الخارجى (البيوريتانى) عريه من الأثواب والقوالب ، وخلوه من الرسوم والأوضاع ، بل أعيب ذلك عليه وأراه عورة أحق بالرحمة والأسف ــ فأما الذى أحمده منه فهو روحه ولبابه ، وكل لباب وجوهر فلا بد أنه يلبس زيا ويسكن رسما وقالبا . غير أن من الرسوم ما هو ملائم صالح ومنها ما هو غير صالح ولا ملائم ، والحد الفاصل بين هذا وذاك هو أن القالب الذى ينمو وحده حول الجوهر بقوة الطبيعة ، يجىء ملائما لطبع الجوهر موافقا لغرضه وغايته ، فهو لذلك حسن صالح . وأما القالب الذى تجعله يد الإنسان حول الجوهر عمدا فهو قبيح فاسد ، وإنى لأنشدكم الله أن تتأملوا ذلك وتنعموا فيه النظر ، فإنه الفارق ما بين كاذب الرسوم وصادقها ــ بين الإخلاص المحض وبين المظهر الباطل فى جميع الأمور والأشياء .

نعم يجب أن يكون فى الرسوم عنصر صدق وباعث شديد من الحق ، وسأضرب لكم مثلا : الخطابة ، فماذا تقولون ــ أعزكم الله ــ فى الخطيب الذى

يهئ الخطبة من قبل إلا أنه سوأة وآفة ؟ ثم ماذا تقولون فى الرجل المتصنع الابتسام المتكلف الانحناء للضيوف والزوار إلا أنه آفة كذلك وسوأة ؟ وإذا كنتم تعدون مثل هذين عورة وبلية ، فما قولكم فى رجل يأتيك فى أمر من أجسم أمورك ، فى أمر الدين والعبادة مثلا ، يأتيك وقد غمر جلال الدين روحك وحير لبك وألجم لسانك ، فإنك مطرق حائر ساكت من شدة الانفعال والوجد وفرط التأثر والطرب ، مفضل السكوت على الكلام ، واجدا لسان الصمت أفصح وأعرب بما يكنه صدرك ويضمره حشاك من ذلك الوجدان العظيم والشعور الجسيم — يأتيك وأنت فى هذه الحال الشديدة فيتعرض لأن يعرب لك عن مكنون وجدانك بكلام باطل ؟ ماذا تقول لمثل هذا الرجل ؟ وماذا عندك له إلا الطرد والإبعاد ؟ لا أبعد الله غيره — بلى ليذهب ذلك الرجل عنك إذا كان يحب نفسه ! إنما مثله مثل من يأتيك وقد فجعتك المنون فى واحدك ، فأنت من شدة الحزن ملجم اللسان جامد العين ، فيقيم لك احتفالا بشعائر الحداد مؤلفا من ألعاب قدماء اليونان على هيئة يونانية قديمة . فمثل هذا الفضول والزور والتصنع جدير بالمقت والإنكار . وهو عين ما كانت تسميه الأنبياء وثنية — أى عبادة القوالب الفارغة والصور الجوفاء — تلك الذى يرفضها وسوف يرفضها كل مخلص صادق ، وكذلك يمكنكم أن تفهموا بعض الفهم أغراض أولئك الخوارج ومقاصدهم ، فترون فى الرئيس «لود» ودأبه فى تأييد الكاثوليكية وحواشيها من تلك الرسميات والإشارات والانحناءات والشعائر — ناظر المدرسة المصر على تنفيذ قواعده ونظاماته لا القسيس الحر المخلص المعنى بجوهر الدين صافحا عن القوالب والقشور !

ولم يطق الخوارج هذه الرسوم فداسوها بالنعال ، وإنا لنعذرهم إذ جعلوا يقولون : لا رسم مطلقا خير من هذه الرسوم . وقد جعل خطباؤهم يمتطون صهوات المنابر عارية مقفرة إلا من الإنجيل يحملونه فى الأيدى . وهل ترون فى الكلمة تخرج من صميم فؤاد الرجل فتصيب حبات القلوب إلا أكمل مظاهر الدين وأجل صور العبادة ؟ وعندى أن أخشن الحقيقة وأعراها خير من أنعم الرسوم وأثراها . هذا وإن الحقيقة متى وجدت فهى الكفيلة لنفسها باللباس والكسوة ، ومتى وجد الإنسان الحى كان كفيلا لنفسه بالملابس — إذا لم يصبها لدى الغير

أخذها بيده من مواد الأرض وصنعها بكفه . فإما أن تجيء بالثوب وحده فتدعى أنه ثوب ورجل - ! - نحن - أعزكم الله - لا يمكننا أن نحارب فرنسا بجيش مؤلف من ثلاثمائة ألف ثوب أحمر .. ولا نجرؤ على تقديم هذه الثياب إلى ساحة الحرب إلا إذا كان فيها ثلاثمائة ألف رجل حي يتنفس ! وإنى لا أزال أقول إنه لا ينبغى للثوب أن ينفصل عن الجوهر ، ولا للرسم أن يطلق الحقيقة ويبين منها . وإذا فعلت الرسوم ذلك قام لها أناس فثاروا ضدها على أنها أكذوبة وزور . وكذلك ترون أن حرب الخوارج والرئيس « لود » لم تك فى الحقيقة إلا حرب الثوب والجوهر - حرب الرسم والحقيقة - حرب الباطل والحق - حربا ضروسا ثارت فى إنكلترا حينذاك واستمرت حقبة من الدهر ، وعادت علينا عواقبها بالنفع الجم والخير الكثير . وكان الجيل الذى أعقب عصر الخوارج ليس بخليق أن يزن أعمالهم بقسطاس العدل . وكيف نرجو من مثل تشارلس الثانى ورجاله أن يعرفوا أقدار الخوارج أو يفقهوا معانى أعمالهم ؟ وأنى يكون ذلك الحكم العادل والنظر الثاقب من فئة كان لا يخطر بأذهانهم أن فى حياة الإنسان ذرة من الحق والصدق والمعانى المقدسة ؟ لقد ظل هذا الملك وأولياؤه يمثلون أشنع التمثيل بالمذهب البيوريتانى (مذهب الخوارج) كما يمثلون برجاله - فلو شهدت الحال إذ ذاك لرأيت البيوريتانية مصلوبة على الأعواد كأجساد أربابها . ولكن الصلب والتمثيل لم يعق من مسير نتائجها . لا بد للعمل الصالح من أن تسير آثاره مهما مثلت بأهله وأصحابه . نعم إنا لنطرح البصر فتسرنا محاسن آثار أولئك الخوارج ، ونرى الدستور والحرية والسعادة التى نتمتع بها الآن أغراسا زرعتها قرائحهم وسقوها طورا بأوعية الدموع وتارة بسجال الدماء . وهم الذين سنوا المذهب القائل بأن جميع الناس أحرار بالفعل أو سيكونون أحرارا يوما ما - أحرارا تقوم حياتهم على أمتن أساس من الحق والعدل لا التقاليد والباطل ! هذا وكثير غيره من حسن آثار الخوارج وجليل نعمهم علينا .

والواقع أنه اتضحت مآثر الخوارج هذه وعلت فى النفوس مكانتهم وضرحت أقذاء التهم عن حواشى أعراضهم ، واستنزلت عن أعواد الصلب ذكرى عهودهم واحدا بعد واحد . بل لقد قدست أسماء بعضهم وعدوا ضمن أولياء الله المصطفين

. وحسب من الأبطال أمثال إليوت وهامبدين وبيم ، حتى ليدو وهانشون وفان أولئك القساوسة السياسيون الذين إليهم يعزى ما ننعم به اليوم من حرية البلاد . أفيجرؤ اليوم إنسان أن يلوث بالدم أعراض هؤلاء ؟ وهكذا أصبحت لا تكاد تجد من بين القوم إلا من له أنصار يقومون بعذره ، وشيعة تشيع فى الناس فضله وتشيد له صروح الإجلال والإكبار . كلهم قد برأ الله ساحته ، وجمل فى النفوس مكانته ، وأعذب فى الأفواه ذكره ، وأدال له إلا واحدا هو سيد الجميع وفتى القوم ــ الملك الأكبر رافع لواء الحق ــ أوليفار كروموبل . فإنى أرى عرضه لا يزال مجال الألسن السالقة الأظفار الممزقة ، وأرى ذكراه لا تزال مصلوبة فى أعالى الجذع وماله من عاذر ولا نصير ، والناس مجموعون عليه بالذم والنكير ، وأنه شرير خبيث . هم لا ينكرون أنه كان رجلا كفؤا حازما شجاعا مدبرا ، ولكنه خان العهد فى نظرهم نقض العقد ، وكان فيه أثرة وجشع وغدر ومكر وتصنع ونفاق . حول ذلك الجاد العظيم المبذول فى سبيل الحرية إلى طريق منفعته الشخصية ، بهذه الخلال وأسوأ منها ينعتون أوليفار كروموبل ، ثم يقارنونه بالزعماء واشنجتون وسواه ، ولا سيما بالأبطال بيم وهامبدين وإليوت الذين سلبهم ثمار أعمالهم العالية ، ثم أوسع تلك الثمار إفسادا وتشويها .

وليس بعجيب أن يكون ذلك الرأى القبيح هو رأى القرن الثامن عشر ، والشىء من معدنه لا يستغرب ، وما قلنا فى خادم غرفة الملك منطبق تماما على الرجل الملحد ، كلاهما لا يفهم معنى البطولة ولا يعرف البطل إذا رآه ! والخادم ينتظر أن يرى للملك ثيابا فاخرة مرصعة بالذهب والفضة ، مرصعة بالدر والجوهر ، وحاشية كثيفة من الخول والأتباع ، وأبواقا تصيح وطبولا تقرع ، والرجل الملحد ــ رجل القرن الثامن عشر ــ ينتظر أن يرى للإمام الرئيس قواعد محترمة ، أو ما يسمونه (مبادئ) . وينتظر أيضا أسلوبا خطابيا نعته الناس بالجودة والبراعة ، يحاج عن نفسه ويدافع فى أفصح بيان وآنق لهجة ، فيفوز باستحسان قرن كاذب متصنع كالقرن الثامن عشر ، وجملة القول إنه ينتظر ما ينتظره الخادم ــ أعنى زخارف ظاهرية وأثوابا وقشورا وقوالب ورسوم ليست من الحق فى شىء . كلاهما يريد الزخرف والزينة السطحية ليقر بأن صاحبها

ملك وبطل ، فإذا برز لهم الملك فى سيمياء القشف والخشونة ، وزى الفقراء والصعاليك أنكروه وقالوا ليس بملك .

وما كنت قط لأقول صراحة أو تلميحا أدنى ما يحط من أقدار رجال كإليوت ،هامبدين وبيم ، أولئك أقر لهم بالنفع وأشهد لأعمالهم بالنفع ، ولقد قرأت كل ما يسر لى مما كتب ، ونيتى وإرادتى أن أستلذ عهودهم وأعجب بأنبائهم وسيرهم أعبدهم عبادة الأبطال . هذه نيتى وإرادتى ولكنها لسوء الحظ لم تتحقق ، نعم لقد كنت أحمد ظواهر أولئك الرجال ولكن نفسى لم تجد تمام الارتياح لبواطنهم ، ولا أنكر نهم كانوا عصبة كراما أمجادا يمشون الهوينى عليهم برود العزة وسرابيل الجلال ، فإذا طقوا فما شئت من حكمة ولب ، تجرى الفصاحة بين قلوبهم وألسنتهم ، وتجول لفلسفة بين لهواتهم وشفاههم ، ويتحدرون بالخطب البرلمانية تحدر السيل ، ويتدفقون بها تدفق اليعبوب ، ويأخذون فى الأغراض التشريعية والاقتراحات الإدارية فيطيلون عنان القول ، ويملأون الدلو إلى عقد الكرب(١) ، مرسلين الحكمة فى عرض كلام كالجوهر المنثور ، تجول على صدره قلائد البيان ، ويطرد فى أثنائه ماء البديع ، ويتحير ى حواشيه رونق الحسن — فحبذا هم من رجال أساطين علم وأئمة تشريع وأولى عزة مجد وجلال . ولكن قلبى بعد كل ذلك لا يخف لهم ولا تجيش أحشائى ولا تهتز حوانحى ، اللهم إلا خيالى فإنه قد يحاول أن يجد لهم بعض الإجلال . وأى رجل فى لوجود تعزوه الأريحية ويهزه الطرب ويلتهب قلبه شوقا لهؤلاء النفر ؟ كلا لقد أصبحت راجمهم وأنباؤهم غاية فى الجمل والثقل : نعم إن بلاغة أولئك الفحول قد تكون أبهر لأشياء وأروعها ولكنها شىء ثقيل — ثقيل كالرصاص ومجدب كالصخرة الملساء . جملة القول إنه لم يبق فيها لقراء العصر غبار لذة ولا ظل مطرب ومستمتع ! فإن أبيت لا امتداحها فقل إنها كانت كأسا رشف الدهر أطيبها وأعذبها فلم يبق إلا صبابة مرة كدرة ! فسلام على أولئك الفحول ، ولندعهم ثاوين مضاجع مجدهم وشرفهم ، ولنقبل

---

(١) قطعة من حبل تعقد بطرف الرشاء أى حبل البئر وتشد بها الدلو مثل فى توفية الشىء حقه وهو من قول العباس بن عتبة بن أبى لهب :

من يساجلنى يساجل ماجدا　　يملأ الدلو إلى عقد الكرب

على الرجل الخشن المتوعر الطريد المنبوذ أوليفار كرومويل فإن فيه وحده ضالتنا من المبادئ الإنسانية ، وكنوز الكرم الصراح والبطولة العالية . إن فيه لذلك وإن لم يكن فيه فصاحة وكتابة وبلاغة وخطابة ، وبراعة وخلابة . وكم من بلغاء مصقولى جوانب اللسان رقاق حواشى الطبع ليس وراءهم كبير فائدة ، وما سرنا من إنسان نظافة كفيه إذا كان لا يقرب الأعمال إلا لابسا قفازه .

وبعد فلست أرى فى رضى القرن الثامن عشر عن خطباء الخوارج وزعمائهم إلا شعبة من رسميات ذلك القرن وكفرياته ، وكيف وهم (رجال القرن الثامن عشر) يعيروننا أن يكون سبب دستورنا وحريتنا هو « الخرافات الدينية » يقصدون بذلك مذهب الخوارج من « حرية العبادة » ، ويقولون : هلا كان لحريتكم مصدر أشرف وأسمى من « الخرابات الدينية » مثل « حرية وضع الضرائب » ؟ ويقولون : إنه كان من الوهم والخرافة والتعصب الأعمى والجهل المطبق بالفلسفة الدستورية أن يجعل آباؤنا الأول غايتهم الوحيدة هى « حرية العبادة » ، وإنما الغاية الوحيدة فى مذهب القرن الثامن عشر هى حرية وضع الضرائب » أعنى امتناع الإنسان عن دفع الدراهم من كيسه حتى يبين له السبب الذى يدفعها من أجله ، فأناس يجعلون هذا أول حقوق الإنسان لا شك جهلة أغبياء ، وأرى أنه لن تكون الدراهم وحدها قط باعثا للعاقل على أن يثور ضد حكومته . وما زال الإنسان يرضى بدفع المال لحكومته بشرط أن يبقى له سداد من عوز . وإنى أجد أن الإنكليزى حتى فى هذه الأوقات إذا لم يرض أن يدفع للحكومة ضرائب عديدة من غير أن يبين لها أسباب دفعها ، اضطر إلى أن يهاجر وطنه إلى غيره من بلاد الله . وكأنى بالإنكليزى يقول : « جابى الضرائب ! المال أخذوا مالى . بما أنكم قادرون على أخذه ومحتاجون إليه خذوه واذهبوا ودعونى وشأنى ، اتركونى وشغلى فإنى لا أزال فى دارى ووطنى قادرا على تجديد المال بالعمل . قادرا على العيش السهل المرضى بعد كل ما سلبتمونيه » . بهذا الكلام يجيب الإنكليزى رجال السلطة إذا أتوه يطلبون ماله ، فأما إذا جاءوه يقولون له : « اعتقد هذه الأكذوبة ، وأحسب أنك تعبد الله وأنت لا تعبده . ولا تؤمن بما تراه أنت أنه الحق . وإنما بما نراه نحن حقا أو ندعى أننا نراه حقا ! » كان جديرا أن يجيبهم

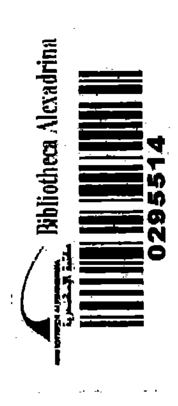
بقوله : « كلا ويمين الله . أنتم فى حل من مالى تأخذونه متى شئتم . ولكننى لا أبيع دينى ولا أخسر عقيدتى . أما المال فذلك غنيمة باردة لأى قاطع طريق يتهددنى بسلاحه . ولكن نفسى ملكى وملك الله ، ودينى لن تغلبونى عليه ولا تخدعونى عنه ما دام فى حلقى نفس يتردد ، وسأدافع عنه بآخر قطرة من دمى .

رقم الإيداع ٧٠٠٧ / ٩٤

I . S . B . N
977 - 11 - 0867 - 0



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه